بيان عن الشعر والزمن

(لقاء بين ادونيس ومنير العكش) *

* أدونيس ، لماذا الشعر ؟

ادونيس : لاشعر انني موجود ، ولأمارس هذا الوجود .

* ألا ترى قيمة خارج هذه العتبة؟

ادونيس: اراها من خلال شفافية الشعر . كل شيء ينصهر في الشعر ، لأن الشعر ليس طريقة للتعبير فقط انه وجود وطريقة وجود . لذلك تجد كل القيم تنصهر فيه . ترى من خلاله الحب .. الموت .. و ..

* لكن بحثك عن حل لتناقضات الواقع الخارجي ، كما هو واضح في ديوانك الجديد ، يتنافى مع هذا التصور ؟

ادونيس : بالعكس . انا اذهب الى ابعد من التوازن بين الانا والآخر . الشعر عندي نوع من الوحدة . وحين ابحث عن حل لتناقضات الخارج ، فكأني ابحث عن حل لتناقضات الداخل . كأنني احول العالم الى شعر .

* ماذا تسمي ذلك المتبقي من العالم خارج الشعر ؟

ادونيس : لا شيء . ما من بقاء خارج الشعر .

الشعر رئة العالم . ولا تنفس الا به . الشعر بديهي كالحياة . الشعر لا يوصف ولا يحدد . ومن لا يعرف الشعر او لا يحسه مباشرة ، يستحيل ان تكون لديه اية فكرة عنه ، لأن الشعر لا يمكن تعلمه ، ولا يمكن تعليمه .

الفوضى الكونية

* الا تحس احياناً بأنك خرجت من برزخ الشعر ، ودخلت برزخاً لم يُسمّ بعد ؟

ادونيس : احس ان هناك اغواراً ، انا عاجز عن الوصول اليها بالكلام ،

---

* في سلسلة مقابلات مع عدد من المبدعين العرب تتعلق بالقضايا الأساسية للشعر العربي بخاصة، والمشكلات الحضارية الكبرى للمجتمع العربي بعامة ، يجريها منير العكش ، تبدأ «مواقف» بنشر المقابلة الأولى مع أدونيس . وستنشر المقابلات الأخرى في أعداد مقبلة .

واحس ان هناك شيئاً امامي ، المجهول .. المستقبل ، انا ازاءهما محدود بل اشعر ان هذا فيّ شيء غريزي . نعم اخشى احياناً ان تتحول هذه الغريزة الى عادة ، لانها حين تتحول الى عادة تأخذ طابع القصد ، وهذا ما لا اريده .

كل ما يتعارف عليه الناس ، يصبح بالنسبة الي مقننا اي خارج الشعر . وخروجي عليه هو بالنسبة الي دخول في الشعر في حين يرونه خروجاً على ما اعتادوه .

* هل دخل هذا الخروج في الشكل ؟ الشكل اول ما يصدم المستجيب لديوانك، كيف نشأ ؟

ادونيس : احسست ذات مرة انني لم اعد قادراً ان اكتب ، لانني شعرت ان هناك ايقاعاً يتقولب في جمل ، وفي صيغ ، وانني منذ اكتب ، اقع في هذا القالب .

انا انفر من القالب نفوري من القبر . القالب قبر . عفوياً احاول ان اخرج كمن يخرج من قبر . قصائدي الجديدة شكل من اشكال هذا الخروج .

* الا تحس ان حركة الشكل ، اذا استمرت بهذا الاندفاع ستنتهي الى سكون مطلق ، كأن يستنفدها التاريخ ، او يحيلها الى نثر ؟

ادونيس : النثر ليس نهاية مطاف . كأن تقول : ان الوزن او الايقاع مرحلة ، والنثر مرحلة ابعد ، ابداً . الشكل يستنفد كل تاريخ ، وانا ارى ان التاريخ سيعجز ان يحيط بالشكل . التاريخ نص ، والشكل تنفس . الفرق بين الشكل والتاريخ هو الفرق بين الماء ومجرى الماء . الشكل ليس خطوطاً ، او كلمات منسقة بتطبيق ما .

الشكل هو في ذاته مضمون. والشعر بهذا المعنى هو الفوضى الرائعة كفوضى الطبيعة . القصيدة يجب ان تكون فوضى طبيعية . انت اذا اخذت جزءاً من الطبيعة ، تجد الشوكة الى جانب الحصاة ، الى جانب مجرى الماء ، الى جانب العشب .بل انك كثيراً ما ترى الحصى والعشب يعترضان مجرى الماء . والقصيدة يجب ان تكون مثل هذا المشهد الفوضوي ، لكن الخاضع الى نسق .

ومن هنا ، الشكل لا نهاية له . انه غياب القانون . انه الفوضى الكونية . انه زمن ما قبل العالم .

* لكن في شعرك عملا تنسيقياً واضحاً ، متى يحين دوره ؟

ادونيس : حين اقرأ ما كتبت يتدخل شيء من القسر ، كأن تدخل حديقة فترفع نبتة زائدة ، او تضيف ما تراه مناسباً . والخطأ يحدث هنا . وهذا ما اشرت اليه حين قلت : انني اكافح ضد هذه الارادة .

* الا ترى معي ان الشعر ، اذا استمر في هذا الخط ، سينتهي الى رسم حركة الطبيعة ؟

ادونيس : يمكن . على ان لا يكون بمعنى جامد . ان خصائص ما قبل العالم توحي ضرورة بخصائص ما بعد العالم . الشعر هو هذا العالم المقبل الذي يشبه كل شيء في العالم الماضي ، وفي اللحظة نفسها ، يختلف عنه اختلافاً كلياً .

* لماذا حاصرت الوقت بين لا نهايتي الحياة والموت ، أي بين الورد والرماد ؟

ادونيس : حين يخيل الينا ان كل شيء انتهى ، يوحي لنا الشعر ان كل شيء يبدأ ، ولعل هذه هي قوة الشعر ، وبهذا المعنى لا يمكن ان يكون وسيلة ، اي زمنياً .

الوسيلة مرتبطة بمكانتها ، والفائدة مرتبطة بالظرف ، وكلاهما يموت . والشعر حين يكون وسيلة للسياسة ، او للحب ، هو شعر لا قيمة له . الشعر نفسه سياسة وحب .

* بهذا المعنى ، اعتقد ان اهتمامك في ديوانك الجديد (وقت بين الرماد والورد) بتناقضات الواقع السياسية والايديولوجية والاجتماعية يدخله ضمن شعر الوسيلة.

ادونيس : القصيدة الوسيلة هي التي تتحدث عن زمن منسجم متناغم . اما القصيدة التي تعكس زمناً متناقضاً فليست قصيدة وسائلية . القصيدة الغزلية وسيلة . والحب حين يتحول الى غزل ينتهي حباً وشعراً ، لذلك ارى ان اسوأ ما يسيء الى الشعر العربي ان نسميه غزلياً ، بمعنى ان شعر الغزل ليس شعراً .

اوصي ان احرق

* والجنس ؟

ادونيس : الجنس في جوهره عودة الى الوحدة . الانسان منفصل ، وهو يتوق الى الاتصال ، سواء مع المرأة ، او مع الارض . الجنس هو الاتصال ، هو الوحدة . ومن هنا يتحد الموت بالجنس .

* كيف يتم فعل الجنس مع الطبيعة ؟

ادونيس : الجنس هو الاتصال ، وهو اعمق نوع من انواع الاتصال ، لان الرجل يجد في المرأة نبعه ، ولا يجد موضوعاً غريباً عنه ، انه يجد جزءه الآخر ، الجزء الضائع .

والجنس اكتشاف . حين يغرق الرجل في جسد المرأة ، فهو في الواقع يكتشف . هذا الاكتشاف هو ما يمنحه الطمأنينة والوحدة ، هو ما يشعره بانه موجود .

بهذا المعنى ، الغوص في اسرار الطبيعة ، اكتشافها ، فتح ثقوب في عتمتها ،

تحويلها الى شفافية ، هو ايضاً جنس . ولذا كان زواج الانسان بالارض موتاً . مع انني اميل كثيراً الى ان اوصي بان احرق بعد الموت ، وان لا ادفن في الارض ، ولعل ذلك عائد الى انني اريد ان اتواصل — اذا ما نثرت — مع اكبر حيز من جسد الارض .

* وفي الحياة ، كيف تنثر ؟ كيف تجد ما ينثرك ويغيبك ؟

ادونيس : في فعل الجنس . حين أنام مع امرأة . وفي فعل الشعر .

* كنت اتصور انك تنتمي الى الاحتمال ، وان مصادر حلمك اخترقت جدار الفعل المدرك .

نعم . الشعر عندي دفع في اتجاه الآتي . لذلك فالقصيدة الحقيقية هي القصيدة التي لا تكتب .

* هل تجد حلاً في الاداء خارج اللغة ؟

ادونيس : مشكلة اللغة صعبة جداً ، لانها مستقلة تماماً عن البنية التي اسميها بنية فوقية . بمعنى ان التعبيرات الاكثر جراءة ، في اي مجتمع ، لا تستطيع ان تغير اللغة .

مثال آخر مستمد من كلام ستالين عن اللغة : الثورة الاشتراكية خلقت بنية فوقية تطابق القاعدة الاشتراكية ، لكن اللغة الروسية بقيت بعد الثورة ، كما كانت قبلها ، فكأن اللغة مستقلة تمام الاستقلال عن البنية الفوقية . بمعنى اننا لا نستطيع ان نبتكر لغة او نميت لغة .

ماذا يفعل الشاعر ؟ كل لغة تمثل ماضياً . نحن نتكلم بلغة — ماضي . حين تقول : لغة ، تقول : ماضياً . كيف توفق ؟ هذه مشكلة الشاعر . هذه اهم المشكلات التي اعيشها ، لدرجة انه يخطر لي ان لا اكتب .

لكي احل هذه المشكلة ، استعين بطرق تجعلني اخلخل هذا الماضي . مثلا ، احاول ان اتصور اللغة مثل آنية مليئة باشياء ماضية ، لا مليئة وحسب ، بل مرتبة من حيث علاقاتها ببعضها بشكل — ماضي . بل اكثر ، انني اجدها في شكل ماض .

اول ما اعمله ، ان افرغ هذه اللغة من محتواها ، واحاول ان اشحنها بدلالات جديدة تخرجها عن معناها الاصلي . ثانياً : ابدل علاقاتها بجاراتها . ثالثاً : اغير جذرياً النسق الموضوعة فيه كقصيدة . وبهذه الافعال الثلاثة ، يخيل الي انه يمكن ان ابتكر لغة جديدة .

* وهذا ما يعيق الاستجابة لشعرك ؟

ادونيس : نعم . هذا ما يفصلني في الواقع عن الاستجابة لدى من لا يستطيع ان يتلقى خارج ماضيه . ولذا فان على من يريد ان يفهمني ان

يفهم هذه الافعال الثلاثة التي اقوم بها . ومع ذلك فان هذا لا يكفي . لذلك ..

القصيدة عندي صارت نوعاً من السياق . في الماضي كانت توجد فكرة معاشة ، عبر عنها بشكل مباشر . القصيدة الجديدة سياق شخصي تاريخي يعني قطعة من اللحظة الشخصية التاريخية التي نعيشها ، أي قطعة جدلية بين الانسان وغيره ، بين الفرد والتاريخ . انها سياق .

القصيدة القديمة مرتبطة وتقيّم بمصدرها وينابيعها . اما القصيدة الجديدة فتتجاوز ينابيعها او مصادرها . القصيدة الجديدة هي اكثر بكثير من مصادرها المباشرة وغير المباشرة .

* كيف جاءت هذه الزيادة. هل تعود الى فعل العلاقة بين الذات والموضوع ؟

ادونيس : تعود الى وعي الخارج . أي الى اهمية الآخر بالنسبة الى الذات والطاقة على موضعة عالمه الداخلي ، وتذويب الخارج فيه . وهذا يعود مداه الى الذات وقدرتها .

لذلك تجد شعراء تحت الشعر او قبله ، أي يتصهم العالم الخارجي وآخرين يتصون العالم الخارجي ويكونون بعد الشعر. وبهذا المعنى لا يمكن ان تقول ان هناك شعراً، بل هناك شعراء ، أي ان هناك شاعراً ومريدين . والشعر لذلك لا يدرس الا من خلال شاعر معين .

معنى المعنى

* في فلكك الشعري ظواهر تسيطر عليها علاقات باطنية. هل تدخل الباطنية في مصادرك، وتعتبر جذرا في حلمك ؟

ادونيس : طبعاً . يجب ان نميز بين الباطنية كحركة تاريخية ، والباطنية كموقف من العالم . بالمعنى الاول، لا علاقة لي بها اطلاقاً . بالمعنى الثاني ،الباطنية تهتم بما تسميه «الحقيقة» مقابل ما تسميه «الشريعة» ، أي بلغة شعرية ، تهتم بما يتجاوز العادي . وبهذا المعنى ، انا متأثر بالباطنية .

والباطنية هنا تلتقي مع الصوفية . وتلتقي كذلك مع السوريالية . وانا اعتقد ان على الشعراء السورياليين العرب ان يعودوا الى هذه المصادر التي هي ــ دون شك ــ اكثر غنى من المصادر الغربية . والباطنية بهذا المعنى ايضاً ، بحث لا ينتهي عن حقيقة متحركة لا تنتهي . لذا فهي شعرية خالصة .

* لكن الباطنية تراجعت شعراً وحركة عن الخارج ، واستغرقت في الاستبطان ، ومحاورة الآخرين من خلال عقد الخوف والخوف المعادي.

ادونيس : كشعر ، تعتقد الباطنية ان العالم معنى وصورة ، وان غاية الانسان ليست الوقوف على حدود الصورة ، أي عند حدود الخارج ،بل تجاوز

الصورة الى المعنى .

فاذا كانت تعامل الله بهذا الشكل ، فكيف بالوجود ؟ الوجود بالنسبة اليها هو هذا المعنى المستتر الخفي . هو هذا المجهول .هو هذا الذي يأتي باستمرار من المستقبل. وهذا هو الشعر .

* كيف وجدت الصيغة الباطنية لاستغراقك في مشكلات المجال ؟

ادونيس : وجدته في تحويله الى معنى . أي انني اريد ان احيل الكون الى معنى .

* ما معنى المعنى؟

ادونيس : هو شيء ، اذا فقدته ، تشعر انك تنزلق في هاوية من الرمل لا قرار لها .هو نوع من الاساس ، نوع من الصخر ،وان كان يحلو لي ، احياناً ان اسمي الصخرة موجة .

المعنى حركة ، بعد غير محدود . هو الماء ، النهر الذي لا تعبره مرتين ، كما يقول هيراقليطس . ومن هنا اهمية الصورة ، أي العالم الخارجي

لذلك فالمعنى لا يعرف ، او لا معنى له الا بالصورة . اعتقد هنا ان الباطنية ثورة عظيمة في الفكر الاسلامي من هذه الناحية .

* برغم كل ما ...؟

ادونيس : انا اميز ، كما اشرت ،بين الباطنية كفرقة ، والباطنية كموقف اساسي من العالم . وانا ضد المعنى الاول . بالعكس ، الباطنية بالمعنى الثاني ضد الباطنية بالمعنى الاول .

* اريد ان تحدثني عن علاقتك بالخصيبي ، والمنتجب العاني،وحسن بن مكزون ، وغيرهم من شعراء النصيرية ؟

الخصيبي ، كشاعر ، لا اهمية له . المنتجب ، كذلك ، شاعر ثانوي .

المكزون .. شاعر ، بمعنى انه اول شاعر عربي حاول ان يعبر عن الايديولوجيا التي يؤمن بها شعرياً . لقد وضع ايديولوجيته شعراً . وهذه ظاهرة مهمة جداً في تاريخ الشعر العربي .

* بهذا المعنى ، أجد ابن الفارض اكثر اهمية ؟

ادونيس : ايديولوجية ابن الفارض عامة ، وغير محددة ، بمعنى ان ابن الفارض ، كشاعر ، هو شاعر عائم ضمن التراث الاسلامي ، لكن المكزون ، شاعر عضوي .

ابن الفارض ، وابن عربي يعتبران شاعرين عائمين ضمن التراث الاسلامي .

المكزون هو نموذج اولي للمثقف العربي الحديث ، اي ان المثقف العربي الحديث

هو الذي يكون مثقفاً عضوياً ، لا عائماً .

* المكزون لم يكن عضوياً ، بالمعنى الذي ذهبت اليه ،ولو كان كذلك لما حاكى ابن الفارض في كثير من قصائده ، ولا سيما في تائيته الكبرى المسماة بنظم السلوك ، فكيف يكون المكزون مقلداً وعضوياً في آن ؟ ثم ان مبادىء الشاعرين تصب في قناة واحدة في النهاية ، وهذا يعني أنهما ، اما عائشان معاً ضمن التراث الاسلامي ، او منفيان منه معاً كما أرجح .

ادونيس : المكزون لم يحاك ابن الفارض ، انما حاول ان يخلق عالماً يثبت فيه انه ، شعرياً ، مهم كعالم ابن الفارض وغيره . المسألة ليست محاكاة بقدر ما هي توكيد على قضية معينة ، واهميتها . واذا كانت المبادىء الاولى واحدة بالنسبة للشاعرين ، فان غاية كل منهما مختلفة تماماً .

* هذا التفريق جاء من المفسرين . الباطنية والتصوف بالنسبة للاسلام يختلفان بالدرجة لا بالاصول .

ادونيس : لا . ليس من التفسير ، انما من الارتباط . بمعنى انك لا تنظر الى المكزون الا عضوياً ، أي انه شاعر في خط جماعة .

* ثم ما قيمة هذا الشعر الايديولوجي وانت ترفض ان يكون الشعر وسيلة ؟

ادونيس : لا اتحدث عن القيمة ، وانما اصف واشخص . لقد حول المكزون الايديولوجية الى معاناة شخصية ، اي انه صهر العالم الخارجي في ذاته . المكزون ليس كبيراً من الناحية الشعرية الخالصة . الشعر عنده كتابة موفقة لشرح عقيدته .

العالم عدد ونغم

* هل تحس بان هناك حركة جدلية بين عالمك الباطن وبين تطور الشكل لديك ؟

ادونيس : كل شكل يصبح ظاهراً ، يجمد بمعنى ما ، لانه يتخذ جسداً ، ويدخل في اطار ما تحقق ، اي في الثابت . اما الباطن فامكان واحتمال ، انه يظل بمعنى آخر مجهولا . فاذا قلنا : ان الظاهر هو الماضي من حيث هو الشيء المتحقق ، فمن الممكن ان نقول : ان الباطن هو المستقبل .

* اذن ، بامكان الشكل ان يتحول الى موضوع خالص ؟ اعني ، هل يمكن ان يولد عندك ما يسمى بالشكل الا (قبل - شعري) ؟ ثم الا تعتقد ان ظاهرة الوعي بتحدي الشكل ، الملاحظة في ديوانك الجديد تشكل طغياناً خارجياً على توصيل قصيدتك ، ان لم تسقها في ما لا يريده عالمك الباطن ؟

ادونيس : يمكن ان يكون الشكل موضوعاً شعرياً .. في اللوحة . اللوحة اولا ، بل جوهرياً ، شكل . في الشعر لم نتوصل حتى الآن الى جعل الشكل

موضوعاً شعرياً . لكن لم لا ، اذا استطاع الشاعر ان يجعل من القصيدة وحدة زمنية ـ مكانية ؟ لا شك ان ثمة خطراً ، يجب ان نشير اليه ، وهو ان الذين يعنون بالشكل يسقطون في الشكلية ، اذا لم تكن طاقتهم الابداعية الباطنية طاقة هائلة . والشكلية انهيار ، بل انحطاط .

اما اذا كنت تعتقد ان ظاهرة الوعي بتحدي الشكل عندي ، تشكل طغياناً خارجياً على توصيل قصائدي ، فأنا ارى العكس . ان شكل قصائدي الجديدةهو هرب من الذهنية . اذ ما هي الذهنية اخيراً؟ انها الشكل المسبق، او الجاهز . فحين تخرج من الشكل المسبق الجاهز ، فكأنك تخرج من الذهنية . لكن ربما احسست بما يجعلك تشعر ان ثمة طغياناً خارجياً ، وذلك آت ، على الارجح ، مما اسميه ظاهرة القسر في القصيدتين الاخيرتين .

ظاهرة القسر هذه جزء طبيعي من الشكل . اذ لا يمكن الحصول على شكل فني دون قسر . الشكل العربي التقليدي لم يعد قسراً . صار قالباً مستعداً لاستقبال كل شيء ، لذلك لا يعاني الشاعر ازاءه أية مشكلة . انه باب مفتوح ، يدخله كل من يعرف السير . لكن منذ ان تحاول ان تفتح باباً جديداً ، تجد نفسك مضطراً الى تشكيله ، أي الى ان تقسر حركته . واذا كان القسر ذهنية ، فليس هناك شكل في العالم غير ذهني ، حتى الموسيقى ، حتى ضوء الشمس ، حتى الينبوع .. كل هذه تخضع لنوع من القسر الداخلي .

* لكن قصيدة النثر تخلصت من هذه العقدة ، اي انها حين نفت الوعي بتحدي الشكل ـ سلباً او ايجاباً ـ الغت الذهنية ، وصارت تتحرك في انمياع لانهائي ، لا سيطرة للوعي عليه .

ادونيس : قصيدة النثر قائمة على نوع من التحليل ، اي ان الذهنية جزء اساسي من قصيدة النثر ، والذي يكتب قصيدة نثر ، يتحول كفاحه الى نوع آخر ، اي الى اخفاء هذه الذهنية الملازمة جوهرياً لقصيدته .

الكتابة النثرية ـ ضمن التعبير العربي ـ ردة فعل مقصودة وعنيفة ضد الانفعال السريع ، والعاطفية . هي عملية ادخال العقل في اللعبة الشعرية . ولعل اهميتها تكن ـ ضمن اطار الشعر العربي ـ في هذا الشيء ، أي في الذهنية.

العالم شيئان ـ على حد تعبير الفيثاغوريين ـ عدد ونغم ، أي ان للعالم وجهاً كمياً هو العدد ، ووجهاً كيفياً هو النغم . النثر عدد ولعل الكفاح العميق لقصيدة النثر هو ان تتحول الى نغم . غير ان الشعر موجود في العدد والنغم ، او فيما وراء العدد والنغم .

التوحيد بين الحلاج وارسطو

* يقال : ان العربي كان لا يستطيع وصف الزمن ، وانما كان يعيشه فقط . وهذا ما طبع العربية بالذاتية ، ومن ثم صارت القصيدة العربية فعلا ملتصقاً بالذات . ما الدور الذي لعبه العصر من جهة ، وحركتك في اللغة والشعر من جهة ثانية ، في تغيير مفهوم الزمن للقصيدة العربية ؟

ادونيس : احب اولا ان اشير الى ان الفرق بين نظرة العربي الى الزمان ، ونظرة الاوروبي ، نابع من الفرق بين نظرة كل منهما الى العالم . الاوروبي مرتبط بالكون . العربي مرتبط بمبدع هذا الكون . انه مرتبط بالخالق لا بالمخلوق ، بالموجد لا بالموجود . والزمن بالنسبة للاوروبي هو الاطار الذي يتم فيه الفعل ، وهو بالنسبة الى العربي : الفعل . لذلك ترى الزمن عند الاوروبي سببياً وعند العربي ارادة وقدرة. الزمن اذن بالنسبة الى الاوروبي ابدي متواصل مترابط ، وبالنسبة للعربي لحظات ، فهو متقطع وغير مترابط .

لذلك كان الشعر بالنسبة الى العربي ، هو ان تعيش لحظتك ، وكان بالنسبة للاوروبي ان تعلل هذه اللحظة. ما نطمح اليه هو ان نوحد بين الارادة والسببية، وان كان ذلك شبه مستحيل .

اذا استطعنا ان نحقق هذه الوحدة الجدلية بين الانسان والشيء ، نكون بالفعل قد احدثنا الثورة الحقيقية في الحساسية الشعرية المعاصرة ، لان الحساسية الشعرية المعاصرة ، اما انها تحت الشيء ، واما انها فوقه . الحساسية الشعرية العربية مهيأة لأن تضع الذات في مستوى الشيء ، وان تحقق الجدلية بينهما . اذا استطعنا ان نوحد بين الانسان بمعناه الفطري والطبيعة بالمعنى المادي ، نقوم بالثورة الحقيقية . لكن ليس للشيء قيمة بالنسبة الينا ، انه ما زال زخرفاً ، او زينة . انه خط في نسيج الانا .

* لهذا طالبت في احدى ندوات «مواقف» ، بشعر شيئي صرف ؟ وهل تتصور قيمة شعرية خارج الانا ؟

ادونيس : انت لا تستطيع ان تنظر الى الشيء الا من خلال الانا ، لكن بالمقابل ، حين لا ترى الانا الا نفسها ، تصبح خالية من المعنى . الانا يجب ان ترى نفسها من خلال ما يغايرها ، ومن هنا اهمية الشيء .

* نعود الى الزمان . الحقيقة انني لاحظت خلاف ما ذهبت اليه بالنسبة لعلاقة شعرائنا بالمكان او بالشيء . ان هناك موجة كبيرة من الشعراء تتجه بالشعر الى المكان . المكان اللوني المتجلي بالصورة الزخرفية بشكل خاص . وبدلا من ان تمضي بالشعر نحو توأمه الزمني ـ الموسيقا (اي التطرف في استغلال الزمن العربي) في محاولة لاستشفاف جوهر تعبيرها ، اغرقت نفسه

في الاتجـاه الآخر المكاني . أي ان الولوع بالصورة ، هو في النهاية ولوع بالشيء ، وبالتالي ولوع بالمكان .

ادونيس : يستحيل ان نفهم الزمان الا من خلال المكان . فالزمان كما عرفه اليونان والفلاسفة العرب هو مقدار الحركة، او مقياس الحركة . الزمان جوهرياً مكاني ، وبالمعنى اليوناني رياضي ، او موضوعي . لكن الزمان بالمعنى العربي هو جوهرياً لا مكاني أي شخصي ذاتي . اذا استطعنا ، كما قلت، العودة الى المكان، لا بالمعنى الزخرفي ، نكون قد قمنا بثورة حقيقية في الحساسية الشعرية ، لكن الزخرفية ليست ضد الزمان وحسب، بل هي ضد المكان ايضاً . انها قبح المكان. لذلك افضل ان نقرب الشعر الى الموسيقا ، او النغم بالمعـنى الفيثاغوري ، لان الكلمة بحد ذاتها مكان ، من حيث انها استقرار ، أي ماض ثابت .

* الكلمة مكان ؟ كل الذين اشتغلوا باللغات ، اصطلحوا على انها زمان ، باعتبار انها تصويت تستغرق حركته حيزاً زمنياً .

ادونيس : الشعر العظيم هو الذي يفرغ الكلمة من مكانيتها ، ويملؤها بالزمن. والشعر اخيراً هو ما يفلت من الكلمة . هو ما يرشح منهـا ويهرب . اي هو ، بمعنى آخر : ما يفلت من المكان . وبهذا المعنى اقول : ان الكلمة مكان زماني. ليس هناك مكان وزمان منفصلان. هناك مكان_زماني، وزمان_مكاني .

* لنبسط الامور اكثر . انا معك اننا نستطيع ان نرى القصيدة سطحاً كأي لوحة . لكن هذه المساحة لا معنى لها زماناً ولا مكاناً . ثم ان ظاهرة الاستجابة للمنجزات الفنية تتم في حد منفصل : اما زماني ، او مكاني . اذ لا يمكن ان نعطي المنحوتة صفة زمانية ، كما لا نستطيع ان نمنح القطعة الموسيقية صفة مكانية ، فضلا عن المزج بينهما .

ادونيس : على العكس مما تقول . للمنحوتة بعد زماني . وهي كزمان تقيّم، لا كمكان . وكذلك ، القطعة الموسيقية . ان زمنية الموسيقا نابعة من مكانيتها. نحن الآن نسمع «البولونيز» . ان البولونيز بالنسبـة الي هي اولا مكان، وهي ثانياً ، هذا التلألؤ الذي يفلت من حدود المكان . ان اهمية الشعراء الاوروبيين الكبار ، جوته ، هولدرلين ، رامبو ، سان جون بيرس، تكمن في تحويل المكان الى زمان ، في التوحيد بين الحلاج وارسطو .

* لماذا الحلاج لا اوغسطين ، او توما الاكويني مثلا ؟

اوغسطين ، توما ، جميـع من اشتغل في النبوات ، هم في النهاية عرب . ان تبني الاسلام للمسيح ظاهرة عظيمة جداً ، لم تدرس كما ينبغي ، ويجب ان تدرس من جديد . ان الايمان بالمسيـح كنبي ظاهرة هائلة في القرآن ، لكنها لم تدرس.

* بل قتلها العلماء المسلمون بحثاً . القاضي عبد الجبار المعتزلي في كتابه «تثبيت دلائل النبوة». ابن تيمية في «الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح» . واخيراً عبدالرحمن الباجه جي في كتابـه

« الفارق بين المخلوق والخالق ».

ادونيس : انا اقصد ، انه كلما أراد شاعر أوروبي ان يكون عظيماً يحاول ان يكون عربياً ، اعني ان يكون نبياً . الشعر الاوروبي يجب ان يدرس من هذه الزاوية . بالمقابل ، حين قلت بشعر الاشياء ، قلت : ان العربي يجب ان يكون الى جانب نبوته ارسطوطاليسيا .

ان تكون الارض سماء ثانية

* ذكرني هذا التوفيق بالاسبرانتو . الحقيقة ان القضية مستحيلة . فنحن حين نريد ان نوحد مفردات العالم مثلا ، في سبيل توحيد لغته ، ننسى ان لكل اسرة اجتماعية اسلوباً في التعبير ، سرعان ما يحل هذه المفردة فيه ، ويشحنها بدلالات ، ستختلف بالضرورة من اسرة اجتماعية الى اخرى .

وكما ارى هذا التوفيق اللغوي مستحيلا ، ارى استحالته اكبر في الطبائع ، أي بزج الارسطوطاليسية بظاهرة النبوات بحسب تعريفك لها ، وان كنت لا ارى صعوبة في التوفيق بينهما اذا اعتبرنا ارسطو عقلا والنبوة وحياً .

ادونيس : ما اقوله شيء ، وما تقوله عن لغة الاسبرانتو والعقل والنقل ، شيء آخر . هذه اللغة ــ الاسبرانتو ــ كالجنين الميت . ثم ان الاستحالة لا تعني ابداً ان لا يحاول الانسان ذلك ، ولا تعني ايضاً ادانة او حكماً سلبياً على الاشياء ، فليس المهم ان نحقق فعلاً الوحدة بين الحلاج وارسطو . بل المهم المحاولة ذاتها . ان ارسطو بذاته كالحلاج بذاته نقطة في الطريق في اتجاه المجهول . ومحاولة التأليف بينهما هي محاولة لمضاعفة العدة في مجابهة هذا المجهول .

* اذا اعتبرنا التراث العربي ذاكرة . فالى اي مدى يقوم بينك وبين هذه الذاكرة حركة جدلية؟

ادونيس : الى الحد الذي تفيدني هذه الذاكرة في فهم الحاضر ومواجهة المستقبل . اما ما تجاوزه التاريخ فقد اصبح قيمة تاريخية تعني المؤرخ وحده .

جدلي مع الذاكرة في نطاق ما يجاوز التاريخ ولا يستنفده الزمن . خذ مثلا : الشعر الذي كتب في المدح وفي الهجاء استنفده الزمن ، فهو قيمة تاريخية ، بمعنى انه يفيد المؤرخ في فهم الظروف الاجتماعية والسياسية الراهنة آنذاك .

فعل معاكس : الشعر الذي كتبه ابو نواس ، وبخاصة الذي عبر فيه عن تجربته الشخصية ، شعر لم يستنفده الزمن ، لانه يكشف عن حقائق نفسية ويضيء اعماقاً ، ويفتح دروباً وابواباً .

آخذ مثلاً آخر : الشعر السياسي العربي ، اصبح جزءاً من الصراع الاجتماعي السياسي ، لا جزءاً من الشعر ، بينما شعر الصعلكة جزء من الشعر .

* هذا بالنسبة للذاكرة الشعرية . هل لك موقف مشابه مع الذاكرة الحضارية ؟

ادونيس : لا يمكن رفض الماضي ككل . هذا عبث . حين اقول : انني ارفض الماضي، اعني ، وهذا ما اريد ان يكون واضحاً، انني ارفض الجوانب التي تعجز عن الحضور ، وعن مواكبة المستقبل ، كما مثلت سابقاً .

وهذا الرفض يعني ان العربي الذي كاد ان يسيطر على العالم في القديم ، يستطيع ان يسيطر عليه اليوم بشكل آخر ، لكنه لن يسيطر بالخضوع الى الماضي ، او الى اشكاله ، بل بانطلاقه من اللهب الذي انطلق منه اسلافه .

* ما هو الشكل الآخر الذي يمكن ان يقوم ؟ وما هو اللهب الذي انطلق منه السلف ؟

ادونيس : الشكل الآخر ، هو الشكل المنبثق عن سيطرة الانسان على لحظته الراهنة . العربي ما يزال يعيش في اللحظة الماضية ، ومن هنا تمسكه بالماضي وباشكاله جميعاً . بهذا المعنى : رفض الماضي هو احياء لأعمق ما فيه ، هو تأكيد على الانسان وقدراته .

واللهب هو هذه الطاقة الخفية التي حركت تاريخنا ، والهمت صانعيه الكبار . وهذا اللهب هو في جوهره هاجس الارتقاء بالانسان . هاجس ان تكون الارض سماء ثانية .

بهذا المعنى يمكن تقسيم ماضينا العربي الى مستويين . مستوى الحساسية الدينية ، ومستوى الحساسية الفنية ، اذا صح التعبير . واللهب العربي هو حاصل هاتين الحساسيتين . غير ان الحساسية الدينية خمدت في اشكال سياسية واجتماعية ، في الدولة ومؤسساتها .

كان الدين صلة بين الانسان والله ، فتحول الى صلة بين الانسان والدولة . الدين صار جزءاً من مؤسسات الدولة ، وبذلك خمد .

* هذا الدين الذي يقتصر على الصلة بين الله والانسان فقط ، ينطبق على المسيحية الاولى فقط ، ولا ينطبق على الاسلام . الاسلام لم يتم بناؤه الا في دولة الهجرة . الاسلام لم يجد روما تتبناه على هواها . انه هو الذي اسس روما نفسه .

ادونيس : لكن الدولة الاسلامية الاولى كانت تجسيداً لهذه الصلة بين الله والانسان . كان الخليفة يشعر ويتصرف على اساس انه واحد من كل . كان عمر يقول بصدقه الكبير (من رأى منكم في اعوجاجاً فليقومه ..) أي بقي الدين بمعنى ما شخصياً ، لكن حين تحول الى مؤسسة انطفأ . انطفأ من خلال الاشخاص الذين حولوه الى مؤسسة .

بدل ان يضيء الدين الزمن ، اصبح الزمن قيمة للدين . صار عاملاً بين العوامل ، لكن الفن الى حد ما نجا من هذا . ومن هنا استمر فعله .

لقد اعطانا الاسلاف الأول مواقف رائعة في السيطرة على الزمن وبتعبير ثوري معاصر : في السيطرة على اللحظة الراهنة . مثلا : حين يقول الغزالي : « النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية » اجد فيه تقديساً لامتناهياً لجدارة الانسان وقدرته على تجديد فكره وحياته .

اما نحن اليوم فقد استعبدتنا النصوص . لنقتد على الاقل ـ حتى في هذه الامور ـ باسلافنا . ثم انني ـ شخصياً ـ حين ارفض التقليد ـ يكون بين من يكون في ذاكرتي الغزالي نفسه .

* هل ترى للنظرية التي طرحها الاسلام من خلال النبوة والقرآن فعلا عصرياً ؟

ادونيس : ظاهرة النبوة تجد ذاتها عصرية . لكن المسألة هي في فهم هذه الظاهرة . وأنا شخصياً ، ضد فهمها السائد في المجتمع العربي اليوم . ان هذا الفهم المشوه يقيم سداً بينها وبين العصر . انه يقتل النبوة .

ليس هناك ثورة عربية

* منذ ٢٥ سنة ، ونحن نسمع عن فكر ثوري ، وعن ثائرين ، وحركات ثورية ، لكننا لم نستطع ان نرى الى الآن فعلا ثورياً ، خارج المشاقة اللغوية وخارج الانقضاض على السلطة . كيف تضع نفسك ثائراً بينهم ؟

ادونيس : ليس هناك ثورة عربية . واذا اتفقنا على ذلك تكون اعتراضاتك صحيحة . كل ما حدث حتى الآن هو تغير شكلي في السلطة . ولا شك انه كان لهذا التغير ـ اذا نظر اليه من ضمن التطور التاريخي ـ حسنات . فقد سارع في انهاء قوى تعيق التقدم . يمكن ان نقول ان هذا التغير هو أقل سوءاً من الثبات الماضي . لان هذا التغير يعطي أملا في التغير الحقيقي .

* ماذا تقصد بالتغير الحقيقي ؟

ادونيس : الثورة العربية التي اطمح اليها هي عملية تحويل المجتمع من وضع الى وضع آخر في جميع مستوياته الاجتماعية والثقافية والاقتصادية . هذا التحويل امر صعب . لكن المهم هو ان نسير في اتجاهه .

* كلنا متفقون على ان الواقع سيء ، وانه لا بد من ثورة . لكننا نختلفون في تحديد مفهوم هذه الثورة أي تحديد ما نثور عليه ، وتحديد ما نثور لاجله . ما هي العقبات التي تصادف الثورة بمعناها الذي يمكن ان نتفق عليه ؟

ادونيس : لا يمكن ان يحقق التغير الا اولئك الذين تغيروا بالفعل . معظم الذين يسمون انفسهم ثواراً ، لم يتغيروا في الواقع . اعني ان نظام العلاقات الاجتماعية في المجتمع العربي والنظام الثقافي والاقتصادي ، هذه كلها مستمدة من اشكال ماضية ، ربما كانت صالحة في وقتها ، غير انها لم تعد صالحة الآن .

الثورة هي ان تستمد هذه النظم من اللحظة الراهنة ، اي ان تجعل الانسان سيداً لمصيره وحياته ، لا خاضعاً لمصائر وحياة سابقة .

حين اسس معاوية مثلا الدولة الأموية ، اسسها بروح العصر الذي كان يعيش فيه ، وحين انشأ المأمون المؤسسات الثقافية ، واطلق النهضة الفكرية العربية آنذاك ، فعل ذلك بروح عصره ايضاً .

نحن اليوم بالمقابل ، بدل ان نفعل ما فعله معاوية والمأمون مثلا نكتفي بأن نقلد ما فعله معاوية والمأمون .

* لماذا تصر على الماضي كعقبة ، وانت تبحث عن نظام اللحظة الراهنة ، بينما هناك عقبة اهم، وهي العيش في واقع الآخرين ،في اللحظة الراهنة لغيرنا ، اي استعارة هويات الآخرين ؟

ادونيس : الانسان العربي المعاصر يقلد حضارته القديمة ، ويقلد حضارة غيره الحديثة . ولذلك يخسر الماضي ويخسر الحاضر . بل ان تقليده للحضارة الحديثة أشد خطورة من تقليد الماضي .

على العكس ،ان تجذره في ماضيه يجعله على الاقل يحتفظ بشخصيته وهويته. اما تقليده للحضارة الحديثة فيفقده حتى شخصيته وهويته.

* اذن كيف توفق بين مفهومك هذا وبين نقل الشكل الماركسي الى المجتمع العربي ؟

ادونيس : انا اعتبر الماركسية منهجاً لا حلا . انها ليست حلا . انها تقدم لي منهجاً في التفكير . الحل يجب ان يبنى على الواقع الذي نعيشه . الماركسية، كمنهج ، واحدة في كوبا وروسيا والصين ، لكن الحلول مختلفة .

لذلك على المفكرين العرب ان يدرسوا واقعهم،وهذا ما لم يفعلوه حتى الآن. ان دراسة الواقع لا تعني دراسة الواقع الراهن وحسب ، وانما تعني كذلك دراسة الماضي .

* هذا يقودنا الى معرفة حدود تخلفنا واستشفاف المفهوم العلمي للتقدم . ما هو تحديدك انت لهذين الحدين ؟

ادونيس : اصبح هناك مقياس للتقدم والتخلف هو المجتمع الاميركي،والمجتمع السوفياتي . التقدم يعني ان الانسان المتقدم هو الذي يكتب تاريخ الانسان اقتصادياً ، كما يكتبه صناعياً وثقافياً . أي اننا ، اذا قلنا : ان الانسان يسير في طريق مجهولة ، فان المتقدم هو الذي لا يكون في طليعة هذا الطريق وحسب ، وانما هو الذي يفتحها ويرسمها ، ويفرضها على الآخرين .

العربي مضطر في مثل هذه الحالة ان يقيس نفسه بغيره . انا شخصياً ارفض ان اقيس نفسي بغيري ، لكننا كمجتمع ، مضطرون . ومن هنا : ان مقياس

التقدم والتخلف مقيـــاس اجتماعي . ان هناك عرباً افراداً اكثر تقدماً من اي افراد في اي مجتمع من المجتمعـــين الاميركي والروسي . ولعل هذا التقدم على المستوى الفردي هو الذي يضاعف من غضب هؤلاء الافراد ومن جنونهم .

بين النظرية والممارسة

* ما هو دور العمل الفدائي في تحويل مفهوم التقدم من لغة الى فعل ؟

ادونيس : اهمية العمل الفدائي تقاس من ضمن الواقـــع التاريخي العربي . الافراد في الواقع التاريخي غير موجودين . الشعب نفسه غير موجود . واقصد من الوجود هنا ، الفعالية ، السيادة الحرة على المصير .

الموجود هو الدولة ، هو المؤسسات ، هو الارقـــام الدائرة في فلك الدولة والمؤسسات .

التاريخ العربي بعد الخلفاء الراشدين هو تاريخ القصور ، تاريـــخ الامراء . الشعب العربي لم يعد موجوداً كشعب ، كطاقة فعالة . اهمية العمل الفدائي اذن تنطلق من تذكيرنا ان هناك افراداً يموتون لا في سبيل عرش ، او قائد ، بـــل في سبيل وطن وارض . هذا من جهة .

واهميته من جهة ثانية ، ان العربي غارق في الكلام . وهذا الغرق دليـــل انحسار وعجز طبعاً . العمل الفدائي تذكـــير بدور العمل واهميته . توكيد على فشل الكلام . العمل الفدائي ممارسة حقيقية في تاريخ لم يعرف الممارسة منذ الف سنة تقريباً .

أهميته ثالثاً في انه يعكس القاعدة . العربي يفكر أولاً ، ثم يباشر العمـــل . نحن في مرحلة نحتاج فيها الى ان ينطلق فكرنا من عملنا . والعمل الفدائي يهيىء الوسيلة لذلك .

وهكذا يهيىء العمل الفدائي امكان التفاعل والجدل بين النظرية والممارسة ، بين القول والعمل .

طبعاً لم أشر الى الجوانب الاخرى التي لا تقل اهمية : الكفاح ضدالاستعمار ، توكيد الشخصية القومية .. الخ .

قلت مرة في مجلة «مواقف» : ان الخطأ الاساسي في العمل الفدائي هو انه لم يستطع ان يفرز نفسه كطليعة متميزة عن الاطار حوله . الاطار حوله ، وهذا ما اثبتته التجارب ، اقوى منه ، بل استطاع ان يبتلعه . اصبحت المقاومـــة نظاماً آخر . هنا يكمن مأزقها الراهن .

* هل تحس ان هناك منافسة بين المقاومة وشعرها ؟

ادونيس : لا تمكن المقارنـــة بين العمل والكلام . لا يتفاضلان ، بل يتواكبان . إنهما جناحا عصفور واحد . مهما عظم الكلام يبقى العمل ، من ناحية الفعالية المادية ، اكـثر عظمة . ان آلاف القصائد الكبرى لا تستطيع ان ترد رصاصة واحدة . لكن شهيداً واحداً قد يغير مجرى التاريخ . كل ما أطمح اليه هو ان أكون قادراً ،في شعري على أن أواكب في عالم الكلمة ذلك العمل الذي أشير اليه .

كذلك ليست المسألة أن أصور ذلك العمل أو أمتدحه،أو حتى أن أفسره، وانما المسألة هي أن أواكبه . ان الشعر الثوري هو مواكبة للعمل الثوري ،وهو ليس وصفه ولا امتداحه ، ولا تفسيره . لذلك لا أحس بتنافس بل بتكامل . أنا أعتقد ان المقاومة لن يكون لها هذا المعنى العظيم بدون الثقافة العظيمة التي ألمحت اليها .

* لكن شعر المقاومة شيء آخر ، انه لم يستطع حتى الآن غير ان يعطي هزيمتنا صيغاً جمالية، ان يحيل فعل المقاومة الى لغة ندب . لهذا احسست بالمنافسة وسألتك عنها . انني في الحقيقة أخاف على المقاومة مما يسمى بشعر المقاومة ، لا سيما وان هنـــاك صحفاً ودور نشر تتاجر بعواطف الجماهير ،وتوهمهم ان كل ما يقال في الارض المحتلة هو شعر من الدرجة الاولى ، شعر فوق النقد ؟

ادونيس : من هذه الناحيـــة ، ما يسمى بشعر المقاومة ، لم يكن شعراً يواكب المقاومة . بل كان شعراً يتفيأ بها ، ويستظل بظلالها . اتخذ من المقاومة ممدوحاً،وأخذ يعدد صفاته ،شأن الشعراء في الماضي ،ازاء الخلفاء، او العروش. ان شعر المقاومة الحقيقي هو الذي يخلق جبهة في الحاضر والمستقبل تواكب جبهة المقاومة في اللحظة الراهنة . يخلق جبهة ابداع باللغة ، تواكب جبهـــة الابداع بالعمل .

منير العكش

منير العكش

الشعر بين حركة الخلق والاستجابة

بين يدي قصائد متفرقة ، ومجموعة من دواوين الشعر العربي ، صدرت حديثا ، نستطيع أن نتعرف منها على تجربة عقدين كاملين من الشعر العربي الحديث ، في محاولة لرسم صورة واضحة لهذه الحداثة ، وتنوير مساحات جديدة في عتمة الاحتمال ، وذلك باعادة النظر جذريا في مفهوم الثبات والمطلق ، وفي قضية التوصيل (١) ، ومن أجل استنبات طرائق جديدة تعيد التوازن بين الحلم والأداء (٢) ، بتحقيق تجريبي يتفحص الحلم اولا ، والأداء ثانيا ، ثم يدرس **الحركة التي تمنح الحلم وجودا كاملا ، ومشخصنا ، وحرا ــ وجودا تقوم من خلاله الحداثة**

الحداثة بهذا المعنى صيرورة الحلم ، لامحايثته • انها ليست فيوضات وجدانية ، او جيشانات لعواطف ، او ما شابه هذه التعريفات المائعة • انها باختصار شديد :

١ ــ الغاء تام للذاكرة الشعرية (٣) ومحاولة ابتداع ما ليس له وجود قبلي عن طريق توحد وجودي بين الارادة والشهود ، بين الحلم والتمثل •

٢ ــ ان علاقتها بالقيمة أكبر وأهم من علاقتها بالزمن ، بحيث تفرق بين ما هو معاصر وما هو حديث ، ذلك لان كثيرا من ابداعات الماضي اكثر حداثة من كثير من ابداعات الحاضر •

٣ ــ انها تتعامل مع القيم الجمالية لا من زاوية وصف ما هو موجود ، وانما تفرق بين الجمال القبلي ذي القيمة السكونية الجاهزة ، وبين الجمال البعدي الذي تزخر عملية الابداع نفسها بقيمته وايحاءاته •

٤ ــ ان التشكيل ليس غاية ، كما انه ليس ماضيا ، لانه لا يتم الا في الصيغة التي يفرضها التعبير ، على اعتبار ان التنوع الداخلي للتصور بمجمله يختزن استقلالا شكليا لكل اداء •

٥ ـ ان تنضج لغتها من جوانية الشاعر حيزا أوسع واعمق مما كانت عليه لدى السلف ، بحيث يتخلص تعبيرها من كل طغيان خارجي ٠

٦ ـ انها لا تجعل من التواصل قيمة ، بمعنى ان تكون الاستجابة لاحقة بالاداء ، لا معيارا له ٠

٧ ـ الغموض والغرابة ليسا شرطين ، انهما صفتان ، ربما تلحقان بطبيعة الحلم ٠ ولهذا ينبغي التفريق بين غرابة الحلم وغموضه ، وبين غرابة التعبير وغموضه ٠ الاول طبيعة ، والثاني زخرف معقد ٠

٨ ـ النثر ليس نهاية ، انه كأي شكل جاهز مسبق يعيش في الذاكرة ، والشاعر نثرا لا يختلف مطلقا عن الشاعر بقالب امرىء القيس ٠

وكل منجزة تند عن هذه النقاط، هي اما محاولة لتكرار الماضي، كمانرى في شعر**نزار قباني** الذي يعتبر ترجمة ميسرة وعصرية لشعر **عمر بن أبي ربيعة** ومدرسته ، وما نراه أيضا في شعر **بدوي الجبل** ، **وعمر أبي ريشه** ، **وسعيدعقل**، الذي يعتبر صياغة تحديثية لبعض قطاعات الذاكرة الشعرية ٠ **واما انه ابتداع تركيبي** ، يقوم على مجموعة من المصادفات اللغوية في تعاملها مع الذاكرة الشعرية ، تراثية كانت أو مترجمة ٠

وباستثناء ـ وهذا ليس حصرا ـ بعض شعر **محمد الماغوط** ، **وسركون بولص (٤) وسمير الصايغ (٥) وادونيس** وبعض القطع التي حشرتبالاضطهاد مع النثر ـ كمزاجيات **أنسي الحاج** ، فان معظم ما يدعي الحداثة من شعرنا الحالي هو ابتداع تركيبي ٠ هذا الاطلاق الفجائي ، وغير المقنع للوهلة الاولى ، هو مادة **بحثي هذا** ٠

بين نقد الشيء ونقد الرمز

كانت مقولة النقد الاساسية تتلخص في البحث عن الموجود الشعري على انه ثابت ، تماما كما تبحث ظواهر الطبيعة ، أي ان النقد العربي الغى مفهوم **التحول ، والنسبية ، والحركة**٠ لا **الجرجاني** ولا **محمد مندور** ، مثلا ، اقاما مقولةالتحول مقام مقولة الوجود الثابت ، أو احلا مبدأ النسبية والحركة محل مبدأ المطلق والسكون ٠ ولان الموجود قديم ، اعتبروه مطلقا وساكنا ٠ كان التوغل في الاحتمال عبثا ، ذلك لان جل ما يطمح اليه النقد أنيكون**وعيا تاريخيا**٠ كانت حركة النقد تسير في اتجاه مغاير لحركة الشعر ، اذ بينما تتجه الحركة الاولى نحو دراسة **وقائعبحتة** باعتبارها **نهاية مطلقة**، كانتالحركة الثانيةتتجه نحو اختراق كثافة العالم باعتبارها **بداية مطلقة** ٠ ولعله ليس مصادفة أن يبدأ النقد العربي **بحس تاريخي** يتلخص بدراسة **الرواية كمعيار تاريخي للشعر** ، بحيث تصبح غايته التمييز بين الموثوق والمنحول ، مستعيرا **منهج علم الحديث النبوي** ٠ ثم يمضي فرعه غير المتأثر باليونانية، متوغلا في الحس التاريخي ،

وذلك بالانصراف الى دراسة **السرقات كشرط أساسي للمعرفة التاريخية للشعر، والى تقويم الشعر من خلال الموازنات التي تستلهم المثل التاريخي مقياسا لجودة** الشعر ورداءته . إننا لم ننس بعد تلك الحركة التاريخية التي شغلت نشاط النقد العربي أكثر من نصف قرن ، حين طرح **طه حسين** مجموعة أفكاره في نحل الشعر الجاهلي ، في محاولة لتعميق الحس التاريخي للنقد الذي ابتداه **ابن سلام** ، والذي لم ينته بعد ·

ونحن لا ننكر أن للحس التاريخي فضل جمع المادة الاساسية للمعرفة التاريخية للشعر ، لكننا لا نستطيع ان نقبل احالة **تفسير** هذه المعرفة الى **قانون طبيعي ذي صفة معيارية** ، ذلك لان التفسير لا يعني شيئا سوى التفسير ، انه ماض ، على حين أن الاحتمال مستقبل دائم · ان تحويل التفسير الى قانون طبيعي ذي صفة معيارية خلق نوعا من الاشتباك بين وظيفة النقد ووظيفة التاريخ · فقد بدأ المؤرخون — من هذا المعيار — يقتلعون من نصوصهم كل ما يخالف القانون الطبيعي للنقد ، تماما كما حذف المؤرخون من نصوصهم التاريخية معظم ما خالف معيارهم الديني · فبينما كان التفسير النقدي مقياسا لصحة النص التاريخي للشعر ، كان المعيار الديني مقياسا لصحة الواقعة التاريخية · هناك حذفوا كل ما يخالف قواعد **الخليل** ، واقتلعوه من الشعر ، وهنا حذفوا كل الوقائع التي من شأنها ان تسيء الى الحس الديني ، كشعر الشعراء الذين هجوا النبي ، او كمواقف الذين ادعوا النبوة مثل **مسليمة الكذاب او سجاح** · ان أي قارىء لهذه النصوص يعرف مدى التزوير التاريخي الذي أحال كلام رجل ادعى النبوة وآمن به اناس لا يستهان بذكائهم الى فكاهة مضحكة· على ان ما يهمنا هنا من هذا الاشتباك في الوظائف بين علمين لهما طبيعتان متباينتان ، وغايتان مختلفتان هو أثر هذا الحس التاريخي في حركتنا الشعرية الحديثة ، متخذين على ذلك مثلا واحدا هو **الخليل بن احمد** واضع علم العروض· اذ بينما كان هذا الرجل العظيم يدرس وقائع تاريخية ، ويضع لها تفسيرات ايقاعية معتمدا على منهج **الاستقراء الناقص** ، جاء النقاد والمؤرخون ، واعتبروا تفسيرات الخليل موازية لاكتشاف **كوبرنيك** ظاهرة دوران الارض ، لا يستطيع الشعر ان يثبت خارج دائرتها ، فأساءوا بذلك اساءة مزدوجة ، مرة الى الماضي، حيث حذفوا من الشعر الذي خالف تلك التفسيرات (٦) ، ومرة الى المستقبل، حين أوهموا الشعراء بضرورة التقيد بهذه المقاييس التي يعاني منها شعرنا حتى الان · هكذا خلق النقد للشعراء **بديهيات بالايحاء** ، لم تستطع حداثتنا الى الان أن تزحزحها عن عرشها ·

انني لا ابالغ حين اقول : **ان النقد العربي ميع معنى الحداثة ، ونصب لها متاهات كثيرة** · انه بالاضافة الى فساد مقولته **في الثبات** ، **واشتباك** دلالتها بالوظيفة التاريخية ، وبالاضافة الى اساءة مفهوم الزمن في اللغة العربية ، **هذا الزمن المكاني المعاش** ، الذي احاله الى **زمن عائم** عند النقاد المتصلين بالفلسفة اليونانية قديما ، اوالمتصلين بحركة النقد الغربية الحديثة حديثا ، حيث لفقوا بين الارادة والشهود (٧) · بالاضافة الى هذا كله **غفل النقد عن الوصل**

بين « **شيىء** » **الشعر** « **ورمزه** » ، فاقام تعريفات فاسدة بالضرورة لفسادالفصل الذي وقع فيه • فبينما اهتم الشيئيون بدراسة **علاقات الاشياء في القصيدة** ، أي بدراسة حركة الفكرة ، وقيمتها ، وصدقها ، وذلك بمناهج تتراوح بين المنطق الصرف الذي يهتم بصحة أو فساد تلك العلاقات ، ويعرف الحداثـــة علـى أساسها كجماعة علم المعاني ، وبين الدوجماتية الاستبدادية التي تخضع صحة العلاقات بين أشياء القصيدة الى مواقف مسبقة أو مرتجلة مثل **محمد النويهي، وغالي شكري** ، نجد أن نقاد الرمز اهتموا بدراسة **علاقات رموز الاشياء** ، أي **بدراسة التشكيل** ضمن الشكل ، ومراقبة حركة اللغة في التشكيل والشكل معا ، **مثل عز الدين اسماعيل ، جبرا ابراهيم جبرا ، وخالدة سعيد (٨) ، ونازك الملائكة** •

والحقيقة ان الموقفين كليهما، لا يكفيان، منفصلين، لوضع تعريف شامل للحداثة ، فضلا عن اغناء توصيلها وتطويره ، اذ لابد لهما من علاقـــة حب متبادلة ، انهما مايزالان يصدران عن التقسيم الظالم الذي اجترحه القدمـــاء للشعر ، حين شطروه الى **مبنى ومعنى** ، ثم استحدثوا لهما **علم البلاغة** ، **وعلم الكلام** ، اللذين اسلما الشعر الى متاهة من متاهات بورتيوس • ان **الحس التاريخي** بعد اتصاله بتيار الترجمات اليونانية شق**علم الرواية الى تيار نحوي** غايته التبرير المنطقي لعلاقات اللغة الماضوية بحيث أقام سدا أرسطوطاليسيا أمام أية محاولة لتطوير علاقات المفردات ، أو صيغ الجمل ، **وتيار آخر لغوي** شديد العجرفة كانت غايته أن يستخلص من الشعر شواهد نحوية أوصرفية أو بلاغية • كان ركوب القوافي الصعبة مقياسا للبراعة الشعرية ، وكان اهتمام النقاد منصبا على البحث عن شاعر حر اللفظ ، شرود القوافي ، رقيق الحواشي، جزل العبارة • على أن الامر الذي يدعو الى الدهشة أن **التيار النقدي المتصل بالفلسفة اليونانية لم يتاثر ، من هذه الفلسفة ، الا بما أضر بالشعر العربي (٩)** ذلك لان هؤلاء النقاد لم ينتبهوا الى الفرق الجذري بين منجزات الادب اليوناني وبين منجزات الادب العربي • فبينما كان الادب اليوناني يبحث في الافعـــال والاخلاق باعتباره **اراديا** ، **وموضوعيا** ، **ويمجد العقل** ، كان الشعر العربي يدور حول وصف الانفعالات باعتباره **عاطفيا** ، **ذاتيا**، **يستجلب اللذة والمنفعة** (١٠) ، ولم ينتبهوا كذلك الى **خصائص اللغتين وخصائص العقليتين الناطقتين بهما** • كانت الفلسفة اليونانية تدرس اللغة في ظل المنطق ، وتفترض اللغـــة اليونانية **مقياسا للغات العالم** ، وكانت العقلية العربية تدرس المنطق من خلال اللغة وتعتبر ان العربية **لغة دين العالم** • هكذا تم التلفيق بين الارادة اليونانية وبين الشهود العربي ، بين زمن عائم ، وزمن مكاني ، بين العقل والتلذذ ، بين لغة المقياس ، ولغة الدين • وهكذا تم المزج عشوائيا بين عقلية يونانية تخلط بين التفكير اللغوي والفلسفي ، وتعتبر الجملة **حكما منطقيا** ، وبين عقلية عربيـــة استقطبت كل الحواس في ثقب حلزوني للادراك يسمى الاذن ، عقلية لا تميز بين التفكير المنطقي والتفكير النفسي ولا تحاكم قضاياها المنطقية الا في ميدان الشعور والانفعال بحيث تعتبر المنطق **حكما لغويـــا خاصا** • واذا عرفنـــا أن المنطق بكل

تصوراته وأحكامه وقضاياه انما يستند أصلا الى اللغة ، وأن لكل اسرة اجتماعية لغة تنمط تصوراتها وفق دلالاتها ونسق مفرداتها ، عرفنا **ان الصورة المنطقية اليونانية ليست الا صورة اجتماعية يونانية تمثل العقل الجمعي** لليونان ، وبالتالي فان نقل هذه الصورة المنطقية الى الابداع العربي تم في الاصل عن جهل بحقيقة الابداع من جهة ، وحقيقة العقلية العربية من جهة ثانية ٠

انتقلت عدوى التفكير اليوناني الى النقد العربي من علم الكلام ٠ ولقد كان **الجاحظ** مثالا مجسدا للسوفسطائية العربية ٠ كانت معظم آرائه في النقد تدور حول **البيان** ، والبيان نوع من **الدلالة** ، والدلالة فكرةمستعارة من المنطق ٠ كما طبق النقاد **مقولة الزمان الارسطية** على النصوص بتعسف بالغ دون النظر الى الخلاف بين**زمان الصيغة** وبين **زمان الدلالة**، والخلاف بين **الزمان الفلسفي** وبين **الزمان النحوي** ، مما أوقعهم في تأويلات بهلوانية (١١) ٠ ثم انهم لما سقطت اليهم نظرية **افلاطون** التي تعتبر البلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال انطلقوا منها الى القاعدة البلاغية المعروفة لكل مقام مقال ٠ وأما نظرية**المبنى والمعنى** ففكرة أرسطية من الاساس ، استقرت في نفوس النقاد العرب ، كما استقرت من قبل في نفوس الرومان ومدرسة الاسكندرية ٠ حتى فكرة **التخييل** ، وهي اقصى مد للابداع النقدي عند العرب ، انما هي نظيرة **التصديق** الجدلي والخطابي عند اليونان ٠

لقد اساء التيار النقلي الى الشعر ، كما اساء التيار التاريخي ٠ ولم تكن هناك نظرية عربية للشعر ، وربما لن يكون ٠ ان كل ما تستطيعه العربية هو أن تبدع جملة من العواطف تجاه الاشياء ، لانها لا تستطيع فصل عمليات المنطق عن السياق النفسي ٠ ذلك لان الشيء لا يكون له وجود بالنسبة للعربي الا حين يجد له مطرحا في عاطفته ٠ بهذا المعنى ــ وانا عربي ــ لا اطمح من بحثي هذا أكثر من أن يستجمع حصيلة عواطفي عن الشعر ، ولهذا اجدني منصرفا عن موجوده الى احتمال وجوده ، ضمن هذه الخصيصة الهامة للعربية ــ لغة وابداعا ٠ ان اي مفكر عربي يستطيع بسهولة أن يهضم مجمل أفكار المنطق ويفلسفها لكنني لا أتصور مفكرا عربيا واحدا بين هؤلاء يستطيع أن يقيم نسقا كاملا من القضايا المنطقية ٠ ولئن استطاع المنطق الحديث أن يساهم مساهمة فعالة في الفلسفة الماورائية ، أو في النسق النبوئي للعقول ، فانني اشك تماما في قدرة النبوءة العربية أو غيرها على المشاركة في أي بحث منطقي ٠ من هذه المعرفة الاولية للغتنا واحتمالات ابداعها ننطلق في البحث عن الحداثة ، حتى لا نخدع انفسنا مرة ثانية بالحس التاريخي ، أو بالحس النقلي ــ وهما يسيطران الان على اتجاهات النقد العربي الحديث ــ وحتى نتعاون على تفجير الطاقة النبوئية الحبيسة في لغتنا الى ابعد مدى ممكن ٠

ان النقد العربي الذي يعيش في ذاكرة مفروعة بين ماضي الانا (المستغرق بالحس التاريخي الديني) وبين واقع الآخر (المستغرق بالحس النقلي المستعار) والذي ينظر الواقع وفق مقولات الاخرين ، انما يخون الحداثة ويسوقها في

قنوات غريبة عنها • ماذا نفعل نحن اليوم اكثر مما فعله القدماء ؟ هل تخطينا الحس التاريخي أو النقلي اذا غيرنا اتجاهيهما ؟ وهل استطعنا ان نتجاوز نظريتي **الجرجاني** المشهورتين في علم المعاني وعلم البيان ؟ لقد جاء من خلف الجرجاني فلم يجدوا ما يترجمونه أو يستعربونه • كانت صلتهم باليونان قد استهلكت نفسها ، لذلك خنقوا النقد بتلك المتون والتلخيصات ، والحواشي ، والشروح ، والطرر ، والمنظومات طوال ثمانية قرون• وهكذا نجري اليوم على سنن اسلافنا في ترجمة الاخرين ، مع فارق انهم كانوا ينقلون من موقفحضاري متفوق ، ونحن ننقل في حالة تعب حضاري ، وتحت قابلية الاستهواء النفسي• كما يجري **الازهر** وكليات الاداب العربية من خلال الحس التاريخي ، ومن خلال ظاهرة الاستهواء العكسي المتجليبالعناد علىتدريس البلاغةوكأنها قرآن منزل ، حتى وصلنا من كل هذه الترجمات والدراسات الازهرية الى منحيين نقديين لا يختلفان عما وضعهاسلافنا الا بالتعقيد والاصطلاح، وبالتالي اوقعنا الحداثة في غيابة الجب •

ان اهتمام النقد العربي الحديث بعلاقات الاشياء في القصيدة أو بعلاقات رموز هذه الاشياء لا يختلف عن دراسة المبنى والمعنى عند القدماء ، وهما الفرعان اللذان حجبا النقد عن دراسة العلاقة الهامة والحقيقية في الشعر العربي ، أي علاقة ما بين الاتجاهين ، علاقة ما بين الشيء ورمزه ، وطبيعة الارتباط بين الحلم وصورته اللغوية المنعكسة ، وبعبارة أدق :**دراسة حركة انتقال القصيدة من الاحتمال الى الصيرورة** ، وتقويم هذه الحركة ، وقدرتها على التوصيل • كما أساء النقد الى الحداثة والتوصيل اساءات أمر عليها سريعا تاركا مجال تفصيلها الى دراسة خاصة :

١ ــ لم يدرس النقد **مصادر الحلم** ، لذلك وقع في التلفيق بين **الخيال والتوهم** ، كما وقع في الخلط بين **التداعي والابداع** •

٢ ــ لم يميز النقد الى الان بين **الموقف والشكل** ونسي ان الشكل ليس **لغة مساعدة** وانما هو ــ كما يقول **ادونيس** : « **تجسد الباطن في ظاهر ، انه بهذا المعنى ، يغني الشكل ويطوره من كان باطنه خلوا من الذاكرة ــ متفجرا كنهر يفيض متجاوزا مجراه العادي** » (مقابلة خاصة) •

ان خضوع النقد للجماليات الهندسية اضطهد المنجزات ذات الموقف لمجرد أنها لم تتقن في مجاريه التشكيلية • لذلك بقيت ابداعات كثيرة خارج هذا المألوف •

٣ ــ مكر النقاد التفسيريون بالحداثة حين حاصروها بالمعاصرة • لقد اعطوا الحداثة صيغة آنية وآلية ، اكتفت بملاحقة تطورات العصر التكنولوجية أو السياسية ، أو المذهبية • لقد أدت **الرؤيا المعاصرة** للحداثة أضرارا بالغة حين نفت : اللاشعور الجمعي للشعر ، اي تلك **الرؤيا الانسانية** الغنية ، والتي تعتبر من أخصب مصادر الحلم • وقلت : « الحلم » ولم أقل : « الذاكرة » لان

التاريخ في الحلم ابداع ، وفي الذاكرة تكرار · كما نفت ملكة «التنبؤ» اي نفت « **الرؤيا المستقبلية** » التي هي خصيصة أساسية للشعر واللغة العربية ·

ان **غالي شكري** مثلا حين فهم الحداثة من خلال الرؤيا المعاصرة ، ذلك المفهوم المطاطي لفكره الشعر ، قتل الحداثة ، وأفقدها جدواها ومبرراتها · وجعل نقده شبيها بتقارير الاحزاب عن الشعر ·

٤ ـ لم يوضح النقد **علاقة الحداثة بالجمال** ، لكن النقاد الجماليين ، ومعظمهم بلاغيون مدرسيون ، استقرؤوا ذاكرتهم الجمالية ، واستخلصوا منها **مثلا أعلى** ، ثم استنبطوا من هذا المثل قواعد قيموا بها الحداثة · انهم بذلك لم يضيفوا صفة الاطلاق على ما هو آني وحسب ، بل انهم نفوا عن فعل الخلق قدرة الايحاء الجمالي ، وأرادوا أن لا يتصوروا جماليات نابعة من ماهية الابداع ، ربما لا تتفق ومثلهم ، جمالات تعددية ، تغني ذاكرة الجمال نفسه ، وتدع للشعر فرصة التنبؤ بجماليات مستقبلية · ان **أدونيس** ، بهذا المعنى ، أكثر جمالية من **سعيد عقل** ، **وبدوي الجبل** ، برغم المفردات ذات الاثارة الحادة التي يدمنها الاخيران · فبينما يطمح **سعيد وبدوي** الى تذكير المستجيب بجماليات يعرفها من قبل ، نجد أن **أدونيس** يفتح للمستجيب مساحة جمالية لم يعرفها من قبل ، لانه يترك لفعل الخلق نفسه أن يبدع ما ليس له قيمة قبلية ، بينما يصر **سعيد وبدوي** على امتصاص ذاكرتهما ـ لغة وصورة ·

نسي هؤلاء النقاد ان فعل الخلق لا يتلقى الا من نفسه ، وارادوا لذاكرتهم ان تكون مادة الابداع وماهية الحداثة · وعلى نقيض هؤلاء حاول بعض النقاد ان يقيموا تنافرا مزاجيا بين الحداثة والجمال في محاولة للثورة على الذاكرة الجمالية ، مما قادهم الى الخلط بين قبلي القيمة وبعديها ، على اعتبار ان عملية الابداع ذاتها فعل جمالي ، وانه لا بد لكل ابداع من جماليات خاصة به ·

٥ ـ انطلق النقد من بديهية ارتباط الشعر باللغة ، فلم يستطع ان يقدم حلولا عملية لمشكلة **التوصيل** ولا الى اعادة التوازن بين الحلم والاداء ، لا من خلال اللغة ، ولا بالافادة من وسائل التوصيل الانسانية كالنغمة واللون والحركة.

طغيان الواقع الخارجي على الحركة ، وأثره في الاستجابة

الحركة نحو الآخر ، نحو انتقال القصيدة من الاحتمال الى الصيرورة ، تعيدنا بالضرورة الى كشف هوية اللغة وهوية الحلم ، وهوية العلاقة بينهما من خلال السؤالين التاليين : **كيف استطاع شعراء الحداثة ان يجعلوا الوجود الاحتمالي لحلمهم وجودا في حيز الفعل ؟ والى اي حد زادوا في فعالية توصيلهم وقدرته على الاستيعاب ؟**

حركة الحلم نحو الآخر ، لا تعني بالضرورة ان يملي **الآخر** شروط هذه الحركة · هذا الموت في التشخصن هو اختيار ذاتي وخاص لوجود لا صيغة له

في الماضي ، ذلك لان **الحركة** فرار مستمر من أي آن · على أن أي « آخـر » مفترض وذي وجود ، انما هو ماض ، أي انه جدار في وجه الحركة · والحلم يذعن للموت ، لا في الآخرين ، وانما في التشخصن ، باعتباره الاحتمال الاعلى لوجوده تجاه الآخرين ، ولذلك ينساق حرا تجاه موته ، من أجل هذا الاحتمال الاعلى ، ومن أجل أن يمنح الراحة القصوى للمبدع ، راحة القذف · وحرية الحركة شرط من شروط القذف المثالي ، انها استغراق في وجود مختار ، لا وجود واجب ، ولهذا كان تحققه وعيا ذاتيا ، وزمنا خاصا ، يختلف بالضرورة عن توقع الآخر ، وزمنه · انه كما يرفض التحقق في وجود الآخر وزمنه ، يرفض أيضا زمن الآخر ووجوده فيه · ومن هنا كانت علاقة الآخر بالحركـة ذات حساسية بالغة في فهم حرية الحركة من أجل التحقق في الاحتمال الاعلى ، بحيث يصبحان شيئا واحدا · على انه قد يتبادر الى الذهن ان نداء التحقق هـو « آخر » من نوع هلامي ، يقني الحركة في مقولات ندائه وصيغها ، أي انه صورة جديدة لمعوقات الحركة · ان هذا الوهم يتهافت بمجرد أن نعرف من ينـادي الذات الحقيقية للحلم الى التشخصن ، هذا المنادي الذي لا يصرح بمكانـه ولا هويته ، ويجعل كل تفسير لعملية الابداع خارج مقولات الحلم ضربا مـن الاستدلال الفاسد · أول ما يتبادر الى الذهن ان المنادي ليس « آخرا » موجودا في الخارج ، لانه من غير المعقول أن يكون الحلم طلبا · والامر الثاني ان هـذا النداء لا يرتبط بزمن لانه يصدر صعقا ، وربما يوحي للوهلة الاولى انه صراخ الدم · اننا اذا عرفنا ان حركة الجنس هي التي تنادي القذف أمكننا بشكـل تقريبي أن نقول ان حركة الحلم نفسها هي التي تنادي الحلم الى التشخصن ، وان هذا النداء من طبيعة الحركة لا من خارجها · وهو بالتالي لا يشكل طغيانا على حرية التوصيل · على ان كثيرا من شعرائنا الحديثين يستعيرون نداء من الخارج ، منهم من يسميه الجماهير مثل **نزار قباني** ومنهم من يسميه القضية مثل **عبدالوهاب البياتي**، ومنهم من يسميه الثورة مثل **احمد عبدالمعطي حجازي**· الا أن هذه التسميات البراقة للنداءات الخارجية لا تخفي حقيقة أنهم **يحلمون بالطلب** ، وفي وجود واجب ، خارجي ، يختاره المنادي ويحدد زمنه · انه المفهوم الذي شغل نشاط الشعر حقبة عصر الاستقلال والذي اصطلحوا على انه شعر قومي ، وشعر اجتماعي ، وشعر تحرير المرأة ، والذي مايزال يدرس فـي مختلف المراحل الاعدادية والثانوية والجامعية على انه شعر يرسخ في ذاكـرة الطالب معيارا لاستجابته لكل ابداع آخر · هنا يكمن الفرق بين شاعر مثـل **نزار** كتب عدة قصائد بنداء موت **عبد الناصر** وبين شاعر مثل **أدونيس** أهـدى **عبد الناصر** عملا ابداعيا لابنداء الموت وانما وفاء لدين شخصي بينهما، تماما كما لو اهداه اي عمل ابداعي **لمايكل انجلو** او غيره ، مع انه كتب القصيدة قبل وفاة **عبد الناصر** بزمن (١٢) · ان اية دراسة جادة لحركة الابتداع عند هؤلاء الشعراء الذين يحلمون بالطلب ، تفضح خواء جوانياتهم ، وطغيان الواقـع الخارجي عليهم ، بحيث يحيلون التشخصن من ولادة لاذة الى وجود مذنب ·

بالاضافة الى تحول النداء من حركة الحلم نفسها الى الآخر ، هنـاك

ضروب من المسرات الحسية تخدع الحركة أو تقطعها • انـه ذلك الشعور باحتضان متعة معينة ضمن العمل الابداعي ، ثم تنميتها • هذا الخطأ الحسي الذي تستجره المتعة حتى تأسر به الحركة ، فتفرغ عليها سائلا غريبا يطفو على سطحها أو يخنقها • وخطأ هذه المتعة الاساسي انها جاءت من الخارج كضوضاء عدوانية ضمن اللحن الاصلي • ان الرغبة في تقصي ما لا تتوقعه الحواس في بعض قصائد **انسي الحاج** باصطناع المفاجآت اللغوية ، او بقلب المواصفات الطبيعية للاشياء عمدا ، انما يخفي وراءه ذلك الخطأ الحسي الذي يستهلك عملية الابداع في **صدمات آنية** تتسرب شيئا فشيئا الى حركة التوصيل، وتستغلقها في تخطيط ذهني غايته اصطناع الدهشة• على ان هذا الخطأ الحسي يبدو واضحا اكثر في شعر **شوقي ابي شقرا** ان لم يشكل محور شعره كله • لقد وقع **ابي شقرا** ضحية الرغبة في اثارة الضحك ، بتكديس المتنافرات الحسية ، المشحونة بقوة فوق طبيعية ، والخارجة عن التعليل ، والتي غايتها اثارة الانتباه قسرا ، هذا الانتباه الذي صنفه التحليليون في المرتبة الحيوانية ، لانـه يثير بفعل خارج عنـه ، رغبة في توجيه الاهتمام الى معنى لم يكن يحمل اي معنى• وقد حاول **ابي شقرا** ربط اللامعنى بالمعنى عن طريق ادوات التشبيه ، «**الكاف**» **وملحقاتها** ، اي ذلـك الخطأ الحسي المضاعف • ولقد قلت : **ان التشبيه في الشعر خطأ حسي مضاعف** لانه ليس هناك ضمن عملية الابداع تمييز بين المشبه والمشبه به ، ولا بين الواحد والكثير ، ولا بين النوع ونقيضه ، ولا بين المادي والروحي (١٣) • ان التصور الابداعي لا يرى الواقعة المادية شيئين منفصلين في آن • فاما ان تكون «هي» او«هي المتصورة» او مزيجا من «**هي وتصورها**»• فالطاولة حين يراها المبدع قبرا ، لا يقول : رأيت طاولة كـ القبر ، وانما يقول : رأيت قبرا (١٤) • هذا الخطأ الحسي يتوضح اكثر اذا خرجنا من اللغة الى اللون • كيف يستعمل الرسام «كاف» التشبيه في المثل السابق ؟ انه بدون شك لن يرسم طاولة منفصلة ، ثم قبرا منفصلا ، ثم يربطهما بكلاب ، ولكنه سيرسم احدى حالات التصور الثلاث ، مما يثبت بطلان التشبيه ، وخطره على العملية الابداعية (١٥) ، **ويسقط بالتالي عمود البلاغة القديمة**• انني لا استطيع ان افهم البلاغة الا من خلال عملية الابداع نفسها • هذه البلاغة النابعة مـن حرية الحركة التي تستعصي على الامساك ، بحيث تكونان **ثابتا ابداعيـا** في مضادة **الثابت الصوري** الذي يأتي من الخارج على شكل صيرورات لوغاريتمية• لقـد عاشت البلاغة العربية طويلا وهي تخادع الابداع على التحقق فيها • انها بمجرد ان كانت **مناديا** ، **وآخر خارجيا** ، **وقوانين ماضوية** ، فضلا عن تفاهـة اكثر مقولاتها ، كمقولات اللعب باللغة طباقا وجناسا ، فقد شكلت (هذه البلاغة) طغيانا خارجيا جعل من الاخفاق حدا اخيرا ومحتوما للتوصيل (١٦) •

تدعوني مشكلة التوصيل الى دراسة **طغيان الواقع الخارجي على حرية حرية الحركة** ، ذلك لان الامكانات الانسانية لم تستطع الى الآن ان تحقق هذه الحركة خارج مفهوم العلاقة بين الفعل والاحتمال ، وخارج مفهوم **الترجمة** من اللون الى اللغة ، من المكان العائم الى الزمان العائم ، بحيث استقر في اذهان الشعراء

شبه قناعة بأنهم لا يستطيعون ان يكونوا ما يريدون تماما ، وانه لا بد من ان تنتصر عاطفة الليل على قانون النهار على حد تعبير **ياسبرز** · كانت الحركة تحس بالقهر تارة ، والمقاومة تارة · وكانت تنتهي في الحالين ، وهي تشعر انها لم تنته ، ذلك لان **الآخر** هو الذي يتجسدها ولان **الخارج** اعاقها عن ان **تكون وجسدها واحدا** · هناك **علاقة** تفترض وجود **الآخر** ، وهناك **ترجمة** تقتضي طغيان صيغ هذا الوجود الخارجي · ثم ان **هدم هذه العلاقة** لا يتم الا في مخاطرة مطلقة ، مخاطرة بقذف الاستجابة في الليل ، او تعليقها الى حين · وهنا تكمن اهمية المخاطرة الدائبة عند **ادونيس** وجده في دائرة الحداثة · لقد عرف ان ارادة التوصيل وحدها لا تحرر الحركة ، انما يحررها فعل الحركة نفسه باعتباره وعيا ابداعيا يكتنه حقيقتها بعد ان يتخلص **تدريجيا** من طغيان الواقع الخارجي ، ويحقق الاتحاد بين فعل الشعر واحتماله ·

ماذا فعل الآخرون ؟ ان حداثتنا الشعرية التي ارادت ان تقيم هذا الاتحاد النهائي بين فعل الشعر واحتماله ، انما ضيعت جهدها على مدى ربع قرن في الثورة على **سطحيات الواقع الخارجي** بحيث لم تستطع ابداعاتها ان تجيب عن تلك الاسئلة الكبيرة التي طرحتها · انها ما زالت الى الآن حبيسة **العلاقة** بين نقيضي الفعل والاحتمال ، ولم تتحرك تلك الحركة الدياليكتيكية التي بررت بها ثورتها على السفلية · (١٧)

الثورة على سطحيات الواقع الخارجي هي التي نظرت ذلك الجدل العقيم حول من اخترع الحداثة · فقد ظنت **نازك الملائكة** ان مجرد تبديل هندسة القصيدة يخولها حق امتياز هذا الاختراع ، كما ظن غيرها مثل **غالي شكري** ان التجربة المعاصرة والرؤيا المعاصرة هما ميزان هذا الاختراع (١٨) ·هكذا استقطبا الحداثة في مفهومي الاستهواء والاستهواء المعاكس · والحقيقة **ان بذور الحداثة نثرت كحقيقة تاريخية وفنية في الاسئلة التي طرحها بعض مؤسسي مجلة شعر في الخمسينات ، برغم فقدان توازن هذه المجلة بين اسئلتها التأسيسية وقدرة الشعراء على الاجابة عنها** · (١٩)

ان **ادونيس** برغم شراسته في الثورة على فعل الشعر ، وبرغم مخاطرته الدائبة بقذف « **الآخر** » في الليل ، لاستكناه حقيقة **الحركة** ، وجعل التشخصن اختيارا ذاتيا ابداعيا لوجود لا صيغة له في الماضي ، فانه ما يزال الى الآن **يسبح في رمل اللغة** (٢٠) · ومن ثم فان حداثته التشكيلية وازت ابداعاته بطريقة **الترابط الحر** الذي يستلهم من خلال اللغة نفسها مخبآت اللاشعور **احلاما ، ورموزا جنسية ، ووثنيات قديمة** ·

ورحلة **ادونيس** في اقانيمه الثلاثة ، كانت منذ البدء رحلة تأمل ، تأمل في «**نبع الأنا**» الخاصة ، والتحقق من افعالها ، بالكشف عما اذا كان **ادونيس** في هذا النبع فعلا ، وتأمل في **المجال** بنوعيه ، فعلا واحتمالا ، ليمنع « **اناه** » من الثبات في اي حال له صفة مكتسبة ونهائية · ولقد كان من المنتظر من هذا

التأمل ان يفضي **بأدونيس** الى مزج مطلق بين «اناه» و«مجاله» ، بين لا شعوره الفردي ولا شعوره الجمعي ، في حركة ربما تصل في النهاية الى استنبات **لغة الباطن** ووضع ذلك الاورغانون الذي يبحث عنه التوصيل • وكان من المنتظر ممن يضع كل شيء موضع التساؤل ، ويلقي بمقولات **الواقع الخارجي** في عتمة الليل ، في تلك المخاطرة المطلقة **بالآخر واستجابة الآخر** ، ممن تخلص من مشكلتي **نداء الحركة الخارجي ، والاخطاء الحسية** ان يلتقي **بالحركة الحرة** ويستجمع الفعل والاحتمال في وحدة نهائية •لكن **ادونيس** بعد «هذا هو اسمي » و «مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف» (٢١) **علق رحلته على شرط** ما يزال الى الآن شكليا • انهما بلا شك محاولتان **للثورة على هندسة المثل** الذي تختزنه الذاكرة • لكن **البديل** كان هندسة اكثر تعقيدا للأداء والتلقي • **الوعي بتحطيم** المثل الهندسي عند **ادونيس** استجره الى وعي مضاد ومخادع ، ذلك لانه غير موجود لذاته ، انما وراء ذلك الوعي الاول • وخطره هنا يكمن في اتجاهه ، اذ بينما كانت غايته الاولى هي الاقتراب من ذات **الحركة للتشخصن** ، استغرقته مراقبة معوقات الحركة عن التشخصن ، ولهذا سميته وعيا ، وعيا لم يختف ، انما تحول اتجاهه ، وتغيرت مبرراته ، مما جعل **الترابط الحر** الذي عرفناه عن شعره يتحول الى **نظام مقصورات** لها اطر خاصة تحيط بصوره ، ومما ادى به الى تقطيع تجربته الكبيرة من اجل ابراز **الشكل المضاد للشكل** •

ولا شك ان رحلته التي علقها على شرطين ، الاول : **اسقاط المثل الهندسي** ، والثاني **تفقد الحل لتناقضات الواقع الخارجي** اخرجا **ادونيس** من حيز استنبات **لغة الباطن** الى الولوج في عتمة **باطن اللغة** ، اي طغيان الواقع الخارجي فكرا ورمزا على حرية توصيله •

ولكن من يعرف المحاولة الثالثة ؟ **ادونيس** نفسه لا يعرف • لعل هذا الوعي المضاد للشكل يصبح عنده **تذكرا لا اراديا ولا واعيا** يعيده الى رحلته من جديد ، ولعله يصبح **ارادة تغصب** توصيله في متاهات اشكال مضادة للاشكال ، وتضع المتلقي امام اليأس من متابعته الا من خلال الذهن والذاكرة، ومن ثم تضع الاستجابة نفسها في اطار المقصورات ، على اعتبار ان **لكل مثير استجابة من نوعه** •

ومتلقي **ادونيس لم** يتقهقر تذوقه بعد • انه مازال ذلك المستجيب التأملي لابداعات تأملية • لكن الهندسة الصوتية للقصيدتين الاخيرتين اربكت مستجيب **ادونيس** ، واعاقت تواصله معهما • والاستجابة ليست علما ، كما تطالب به القصيدتان ، انها ابداع سالب • لكن **ادونيس** الذي بدأ بتثقيف الاستجابة في ابداعاته الاولى ، وطالب متلقيه بعتبة لا بد منها من الثقافة ، وصل هنا الى مرحلة طالبت مستجيبه بان يكون **الخليل بن احمد** نفسه •

انطلقت محاولتا **ادونيس** الاخيرتان من تطرف السلوكيين الذين اعتبروا الابداع يتجه بوظيفته نحو اغناء نشاط الجهاز العصبي باعتباره مركزا للعملية

العصبية التي تبدأ بالمنبه ، وتنتهي بالاستجابة · لكن المنبه **الادونيسي** في قصيدتيه الاخيرتين لم يحافظ على وحدته · فقد طغى المنبه الخارجي (الهندسة الصوتية) على توأمه الباطني (الحركة) غير واع للحقيقة التي تنفي الاستجابة عن بعض المثيرات الخارجية ، والتي برزت بشكل فاقع في الهندسة الصوتية للقصيدتين · لقد حاول **ادونيس** ان يخلخل مقاييس القارىء الغارق بطبيعته في الذاكرة على حساب حرية **الحركة** ، معتقدا ان **الشكل المضاد للشكل** هو الحرية التي تحقق التشخصن في الاحتمال الاعلى ، غير منتبه الى ان الشكل المضاد للشكل ربما يتحول الى **نداء خارجي** من نوع آخر مخادع ، وبالتالي يشكل طغيانا خارجيا على **حرية الحركة** ، اذ لا فرق في النهاية بين وجود ثابت، ووجود مفترض ، طالما انهما لا ينبعان من اختيار الحركة نفسها ·

ربما تنجح الهندسة الصوتية ، حينما تكون حدثا ذهنيا صرفا ، في تبرير وجودها جماليا ، لكنها ، وبالصورة المصاغة بها في القصيدتين ، تخفق في ايصال **أدونيس** الى متلقيه على الوجه الذي يريد · **هنا تبرز اهمية خالدة سعيد بالنسبة لشعر أدونيس ، انها حين تتقمصه في** دراسة شعره ، **انما تصبح لغته الباطنية التي يحتاج اليها حلمه ، انها ذلك «الآخر الانوي» الذي ينساق ضمن الحركة لا موازيا لها ولا خارجا عنها** · اي **ان خالدة سعيد بالنسبة لادونيس هي «الانا ــ المعطاة» التي تدرك نفسها لا في هوية منفصلة ، وانما في هوية تقمصية لا يختلف نظام حركتها عن نظام حركة الابداع** الادونيسية ذلك لان المنجزة المؤداة لا تقيم هنا علاقة **وانما تستكمل رحلتها في « الآخر الانوي »** · بذلك تهدي خالدة مفتاح الاستجابة لادونيس · **لقد بقيت « هذا هو اسمي »** قصيدة معلقة في « الليمبو » حتى تقمصتها **خالدة ومنحتها وجودا** (٢٢) · **ولو ان خالدة درست ادونيس بغير هذا التقمص ، اي بتفسير الرمز او الشيء ، واعادة صياغة القصيدة انشائيا ، لقتلت النقد والشعر · ولست ادري ما اذا كان نقد خالدة يمكن ان يعتبر لونا من الابداع الادونيسي السالب** ·

ولانسي الحاج تجربة مغايرة مع التوصيل ومع حركته ، لغة وشكلا ، فهو من اكثر **جماعة شعر** غارا في الاتجاه الانطوائي ، واستبطانا لاحتمال الشعر «**هناك حنو من ذاتي على نفسها ، حنان ذاتي ··· محوري شخصي ، واحتوي على تناقض طريف هو عبادتي لنفسي من جهة ، وحيائي الشديد تجاه هذه العبادة ، الى حد بذل الجهود لكبتها» (انسي الحاج ــ الوثائق الملحقة بالبحث)** (٢٣) · ولقد ساعده مزاجه السيكوباتي على تنمية ميله العدواني تجاه الشكل والذاكرة الشعرية · «**لست حياديا امام عالم الموضوعات ، لست موضوعيا · يجب ان اتحد بالموضوع ، ان يقرع اجراس انانيتي ، ان يحب حبي لنفسي · يجب ان لا تتصور الادوار مرسومة بشكل خالد · الادوار ليست اصناما · واذا كانت اصناما ، فماذا يعني ؟ لا شيء · تتحطم الاصنام ، ويأتي عصفور ، او غراب ، او ثلج ، من يهزأ بها ، حتى يجعلها تقهقه وتنسى دورها**» (٢٣) ·

ولعل **انسي** الوحيد بين جماعة شعر الذي يختزن استقلالا شكليا لكل اداء ٠ اننا بمتابعة شعره نلمح ذلك الحوار المستمر بين تعبيره وشكله ، ذلك الحوار الذي صار ماهية عملية الابداع لدى **انسي** ٠ وحين يسيطر شكل تذكري لديه على عنصر حسي جديد ، تجد ان الحوار قد جدد هذا الشكل نفسه من فعل التماس ، ودون ان يفقد بذلك خصائصه العدوانية تجاه الواقع الخارجي ، أو ان الحركة نفسها تدفع بذلك الشكل التذكري ليكون بعض مادتها ، لا فضولا يطفو على سطحها ٠

انك لن تجد في ديوانه الاخير «**ماذا صنعت بالذهب ، ماذا فعلت بالوردة**» (٢٤) قوانين شكلية محددة تحديدا كاملا، سواء بالتذكر اوبالافتراض، بحيث تستغرق جميع قصائد الديوان ٠ لقد افلتت **حركته** من تلك الشبكة الهندسية ذات الثقوب الواسعة التي يسقط من خلالها الشعر ، وتركلقصائده شكلا بسيطا ، ربما يخادع احيانا لشدة غياب الذهن عنه ٠ ان التوزيع التقليدي للشكل ينحل هنا تحت تأثير التعبير نفسه ، والذي تغفو فيه ملكة التشكيل الاميبية ٠

حقق الانطواء لانسي الحاج تكيفا متجددا مع اشكاله ، **تكيفا اصبح منظما** ، له طبيعة الحركة بحيث اعده لمواجهة كل تصور جديد بشكل اميبي يلائمه ٠ ومن العجيب ان الخطأ الحسي الذي يقطع حركته الداخلية احيانا ، كما اشرت الى ذلك سابقا ، يضعف هنا او يتلاشى من اشكاله ٠ ذلك لانه لا **يشعر بمتعة حسية في الشكل كما يشعر بمتعة حسية في اللغة** ٠

لكن للانطواء خطرا كبيرا على الحركة ، اذ يكمن هذا الخطر في التفريق بين سلب الانطواء وايجابه ٠ ان سلبه الذي يغوي بالثورة على المجال ، ولو بالتوهم ، ويرفض ان يكون في الذاكرة الشعرية اساس مقبول لابداع جديد ، هو الذي برر **لانسي** الحنق على تلك الذاكرة ، واسقاطها ، لكنه لم يمنع ابداعاته تلك الحرية المطلقة التي يتعشقها ٠ ان تحدي الذاكرة الشعرية ليس حرية ، بل ان اسقاطها ليس حرية ، كما ان اسقاط العالم باسره ليس الا توهما للحرية ٠ **ان حرية الحركة تكمن في ايجاب الانطواء** ، اي في البديل الابداعي الذي يخلق ذاكرة للآتين ، حين يكون التحدي والتمرد والهدم عتبات لعالم ابداعي افضل من العالم القديم ٠ لقد سبق للسورياليين ان اسقطوا العالم بالتوهم ٠ وحنقوا على الذاكرة الفنية ، والمثل الاعلى التشكيلي للفنون ، ورفضوا عبادة الواقع الخارجي ، ودفعوا بفنانهم الى الانطواء في الباطن ، في محاولة «لخلق توازن نفسي بين جوانب النفس الشعورية ، وجوانبها اللاشعورية» ، على حد تعبير **بريتون في المانيفستو** ٠ لكن السورياليين لم يحققوا سوى ذلك الجانب السالب من الانطواء ، الذي حققه **انسي الحاج** في ابداعاته (مع اختلاف زاوية التناول ومساحتها) ٠

ان ابداعات **انسي الحاج** ما تزال الى الآن احتجاجا على امراض اللوغوسية ، وطغيان الواقع الخارجي ، لا علاجا لهما ٠ فبالاضافة الى

المتعة الحسية التي تقطع حركته ، وتحيل عملية الابداع عنده الى **صدمات آنية،** تجد ان فعل الحرية ذاته ــ حين يخرج من الخطأ الحسي ــ مستغرق سلبا مع اللغة ، لا ايجابا مع الحلم ، مما يجعل توصيل القصيدة عنده يتحول بالتدريج الى تجربة لغوية تسوقها ايحاءات الالفاظ ، بحيث تأخذ اول مفردة تمتلكه ، لا بالامتاع الحسي كما حصل في السابق ، وانما **بفتح تيار وهمي من الانفعالات (٢٥)** يردف التجربة نفسها ، وينضم الى الحركة حلولا ، ودون ان يكون هناك انفصال بين تيار الايحاءات اللغوية والمصادر الاساسيةللتجربة ، على اعتبار **ان اللغة تشكل مصدرا هاما في التجربة الابداعية عند انسي الحاج·** بهذا نرى ان الحركة عند انسي لا تشكل دينامية كاملة ، قوامها الداخل الابداعي ، ذلك لان الداخل بحاجة الى عكاز ، وهذا هو السبب الذي يحدو به أحيانا الى عدم التشبث بانطوائه في ذاتيته الخاصة · **هناك نداء توجهه الحركة نفسها الى الخارج ، تستجير بآخر** أغنى منها ، لكنه قريب من تصورها ، بحيث تحله هي في نفسها **وتغصبه فيها ·**

ما هوية الآخر ؟ « الآخر الانوي » الذي حققته **خالدة سعيد لادونيس** في مجال الاستجابة للاقتراب من المتلقي تجده هنا عند أنسي **الحاج** متمثلا **بالملك سليمان ، لافي مجال الاستجابة ، وانما في داخل التجربة نفسها** · فحين تكون **خالدة سعيد** هناك «الانا ــ المعطاة» ، يكون **الملك سليمان** هنا « الانا ــ الحاجة» ، الانا التي يصبح **أنسي** بدونها فاقدا لقدرته الابداعية · نعم · نفى **أنسي الحاج** من ذاكرته **مجال الآخر الغريب** ، واعيا لهذا النفي ، لكنه لم يستطع ان يتخلص نهائيا من **مجال الذات المغتصبه** · انك تحس بان هذا المجال مغصوب **في حلم توراتي** يستهلك تجربته وحركتها · لقد أراد **أنسي**ان يكونقيامة **الملك سليمان**في **الشعر العربي** ، لكنه أضاع الخاتم (٢٦) و ٢٧) ·

وقع**انسي الحاج** كما وقعت **جماعة شعر** ، من خلال**التجربة الانجيلية للتوصيل** ، فيما يسمى **بتناقض العواطف تجاه الذاكرة الشعرية** · فلقد اعطى بعضهم للحركة معنى دينيا ، وزيف بذلك كثيرا من القيم الابداعية التي تفرضها **الحركة** · ولم يكن النقد الذي وجه الى **التوصيل القديم** ابداعيا محضا ، غايته **تحرير الحركة** بقدر ما كان يستهدف **اقتناصا لحركة** وزجها في متاهات أكثر تعقيدا مما كانت عليه · ولقد دفعها موقفها هذا الى تلفيق مفهومات متناقضة تجاه الذاكرةالشعرية · فبينما كانت نظريا تحنق على هذه الذاكرة بوجهها العربي القديم ، لانها تشكل طغيانا على الحركة ، وعقبة أمام التجربة الجديدة ، واللغة الجديدة ، والاسلوب الجديد ، كانت عمليا تغور في أبعد عمق لهذه الذاكرة عن طريق التجربة الانجيلية ، وتحقق بالتالي طغيانا خارجيا على الحركة أبشع مما كان يطمح اليه البلاغيون القدماء المتصلون بتيار الفكر اليوناني· اذ بينما كان ذلك **التيار النقلي القديم** يحاول اقتناصحركةالتوصيل من الخارج ، لادخالها في **الاسلوب اليوناني** ، راح **التيار النقلي الجديد** يحاول اقتناص حركة التوصيل من الداخل ، لتقريبها من **اسلوب الترجمة الانجيلية ،** هذا الاسلوب الذي لم يرتح بعد من تعاقب المترجمين ، واختلاف فهمهم ، وعقدهم

تجاه **المثل الاعلى للبلاغة العربية** • ولقد حفظت لنا كتب العقائد العربية نتفا من ترجمات قديمة للانجيل باسلوب ذلك العصر ، كما لا يزال في مكتبة **الفاتيكان** نسخة من ترجمة عربية للانجيل مزركشة ببلاغة القرن الخامس الهجري (٢٨) ، تبين كلها مدى عقد هؤلاء المترجمين من المثل الاعلى للبلاغة العربية ، ومدى عقم التيار النقلي جملة في فهم خصائص العربية وقدرتها على الحركة والتوصيل •

بينما كان هؤلاء **المترجمون** يبررون تلك الهوة بين المثل والفعل بان «الله لم يختر لتدوين الانجيل كتابا بارعين ، لان البراعة اللفظية عرض ، والجوهر هوالصدق والامانة» وبأن العرب اذا كانوا يحبون الكلام الفخم والانشاء العالي فان أسفار العهد الجديد والانجيل خاصة « مكتوبة بانشاء اكثره من الطبقة البسيطة ، ذلك بان يسوع الذي جاء يكشف للناس أسرار الله (يوحنا ١/ ١٨) كلم الناس بلغة الشعب » (٢٩) ، كان**أدباء** هذه الحركة ونقادها يرسخون حركة التوصيل الانجيلية على أربع مراحل ، أولا ، باستعارة الالفاظ الانجيلية ، ثانيا ، باستعارة اسلوب الترجمة الانجيلية ، ثالثا ، بافراغ اللغة من مدلولاتها القديمة وشحنها بمدلولات انجيلية ، رابعا ، باتهام كل ما يخالف هذه الحركة بالتقعر والحذلقة (٣٠) •

مرت التجربة الانجيلية للتوصيل قبل تبني **يوسف الخال** لها ، بجسر **العلمنة** ، وذلك عبر تجديد دم المعاجم ، بعد استغلاق مدلولات المعاجم القديمة ، وتعذر مراجعتها • ولقد خطا معجم **المنجد** مسافة طويلة في هذا الحقل (٣٢) مما اضاف على **حركة الاداء** طغيانا خارجيا آخر، استحدث لنفسه تبريرات بلاغية جديدة معتمدة من عقد الترجمة ، وعقد التاريخ ، أي انه أعتمد ما يمكن ان يسمى **ببلاغة الاسقاط** (٣٢) • ولولا دخول هذه التجربة الى ميدان التوصيل، **وطغيانها على الحركة** لبقيت قضية المنجد محصورة في ذلك الجدل اللغوي بين **الباقلانيين واليسوعيين** •

طرحت ولادة مجلة **شعر** على التوصيل أسئلة ذات خطورة تاريخية وفنية • لم يكتف **يوسف الخال** بنقل تجربة **اليوت** المسيحية الى الشعر العربي ، بل انه أراد أن ينقل صيغة **اليوت** المسيحية للتوصيل، **وكان قمة هذه الترجمة الانجيلية تاريخيا** ، **بالنسبة لحركة الحداثة** التي حددت بداياتها بولادة مجلة **شعر** ، مما اخرج تطور التوصيل لديه عن السير باتجاه الاستيعاب الى السير باتجاه **بلاغة الاسقاط** ، حتى صار المتلقي العربي بحاجة الى عملية تكييف ، تمكنه من الاستجابة ، ذلك لان **المثير هنا يسير في عكس قابلية الاستجابة العربية** • اي ذلك الاتجاه الاسقاطي الذي يتهم الاستجابة ، بالفساد الكامن فيه • ولقد تنبه **عز الدين اسماعيل** الى هذا التناقض في العواطف عند **يوسف الخال** ، لكنه أخطأ التعليل ، لانه جزأ تجربته ، ولم يرجع الى مصادرها الاساسية ، مما جعله يعتقد ان القضية هنا هي قضية أسطورة ، ورمز ، و ••• الخ ، لا قضية تصور كامل • وظن

عز الدين اسماعيل أن كثيرا ممن يتلقون الشعر المعاصر بحماسة قد صاروا يتأففون من استخدام هذه الشخوص الاسطورية لانه يرجع « الى سوء استخدام بعض الشعراء لهذه الرموز » (٣٣) غير منتبه الى أن يوسف الخال ليس من أكثر الشعراء المعاصرين ولوعا بهذه الرموز ، وغير واع الى ان الاستجابة لهذا الشعر تمر بعقبتي : التهيؤ لقبولها ، وتذوقها ، على اعتبار انه ليس في ما ضي المستجيب مثل لمثل هذه الاستثارة ، فضلا عن انها آخر بعيد جدا، ومعوق للحركة ٠

اخترق أدونيس العقبة الاولى للاستجابة الى التجربة الانجيلية في التوصيل عند يوسف الخال ، اذ قدم لمتلقي يوسف ما يشبه التهيؤ ، وذلك باختيارات من هذه التجربة ، ومقدمة تمهيدية لها (٣٤) ، لكن أدونيس لم يكن في تلك المرحلة التي كتب فيها المقدمة قد تخلص بعد ، مما أسميته بتناقض العواطف تجاه الذاكرة الشعرية ، لذلك تراه يميع الفروق بين الثورة والمسيحية ، وبين عقلانية الحدس وصوفيته ، وبين عربي التراث ، وانسانية ، بشكل يوحي بعدم الكلفة ، مع انه لو أراد اليوم أن يختار ، ويقدم ليوسف الخال لاختار وقدم شيئا آخر ، أو لعله امتنع ، لا سيما وانه تخلص من تناقض العواطف تجاه الذاكرة الشعرية والحضارية الذي لازمه مع « شعر » ٠

لقد أسقط أدونيس لمتلقي يوسف الخال عقبة التهيؤ ، وبرر له دور هذه التجربة توصيليا ، ولكن من يستطيع ان يمحو الفارق بينها وبين الحركة، وان يسقط عقبة التذوق ؟ ذلك الصراع الذي يعانيه القارىء العربي للتجربة المسيحية بين ماضي الانا ، وماضي الآخر ، اذ من المستحيل أن تقوم علاقة جدلية بين ماضيين ، ان نسقط دلالات اللغة في فصام حاد، تتخذ فيه كل حالة دلالية وضعا انتصابيا متصلبا ، ثم نطالبهما بالمصالحة والتذوق ٠ غير أن التجربة المسيحية للتوصيل لم تغفل جدلية الماضيين ، بل اتجهت الى ماضي الانا للمتلقي العربي، فدغدغته بذلك التراث الصوفي ذي النزعة الافلاطونية ، ثم استعارت صيغ المتصوفة ، وتجاربهم ، وطريقتهم في التوصيل ، كما نشرت لهذا المتلقي منجزات الفلاسفة المسلمين ذوي الاتجاه التومائي ، على اعتبار أن التصوف شعرا ، والتومائية فلسفة ، يصبان في دلتا التجربة المسيحية (٣٥) ويلغيان حالة الفصام في ذاكرة المتلقي ، ومع ذلك لم تجد هذه المحاولة ، ذلك لان ماضي الانا العربي ليس صندوقا لافلاطون أو توما الاكويني ، انهما يطفوان كخشبتين في مياه الذاكرة ، التي لا بد من الرجوع الى منبعها ، لاقامة حوار مجد معها ٠

لكننا نظلم يوسف الخال جدا اذا طالبناه باخضاع الحركة التي توصل ابداعاته الى منطق الاستجابة وحده ، ان نطالبه باستعادة ماضي الآخر ، وتصور الآخر ، وتوصيل الآخر ٠ ان « الانا » لا تستطيع نسيان حالاتها من أجل نشاط يعايش الاستجابة ٠ « الانا » ليست ظهورا واختفاء ، ولا تمتلك قدرة مزدوجة على الغياب والحضور في لحظة واحدة٠ نعم قد تغيب بمقدار تقدمها في الزمن ، اي بمقدار ما تلد وتتجدد في ولادتها، لكن منطق البقاء يتحكمها في الفعل

والتجدد والولادة ، ولا يمكنها ان تتخلى بارادتها للماضي والموت ، في ذلك الجزء الذي كتب عليه العقم الابدي • كانت التجربة المسيحية بالنسبة **ليوسف الخال** خالقة ومدمرة في آن • فبقدر ما حققت **الحركة** صيرورتها ضمن الديمومة الابداعية للتصور المسيحي الشرقي ، واكدت اتزانها في تجسيد ذاتها ضمن مجال عدواني ، نجد أنها كانت بالنسبة **للاستجابة** كسمكة خلقت وعاشت في صحراء ، واستهلكت ذاتها في حلم البحر ، ذلك لان الاستجابة العربية لا تحدد من خلال الصيغة الاجتماعية المريضة لبلد تحتضر كل مبررات وجوده مريضا ومنفصلا •

حين سألت **يوسف الخال** عن مآخذه على التوصيل القديم ، والحركة المستعارة من الذاكرة ، قال : « هناك عقبات ثلاث أمام تلك الحركة : التجربة ، واللغة ، والاسلوب • فالتجربة التي نمر بها هي غير التجربة القديمة ، واللغة التي استعملت في الشعر القديم لم تعد حية ، لا كتابة ولا مخاطبة ، أما الاسلوب فلأن الحياة الحاضرة لم تعد تقبل بالجمود والرتابة والقوالب الجاهزة، لذلك اقتضى للتوصيل اسلوب متحرك ، يقترب أكثر ما يكون من **التطور اللغوي** ، سواء الفصيح ام المحكي ، واستمداد الموسيقا منها » •

— وهل حققت ذلك في شعرك ؟

— « حاولت • بالنسبة للتجربة ، وضعت تجربة انسان ذي عقلية حديثة ، مستندة الى تجربة حديثة ، وذات علاقة بالعصر • من حيث اللغة ، حاولت أن استفيد أكثر ما يمكن من اللغة الدارجة على الالسن ، وارتكز عليها ، على أساس انها هي اللغة العربية الحديثة • واعترف بأنني في هذا المجال قد قصرت ، أي انني لم أخط الخطوة التي أحبها ، وقد لا يكون لي القدرة على ذلك ، وهي خطوة «**اختراق جدار اللغة**» كما ذكرت في مقدمة العدد الاخير من مجلة **شعر** حينما توقفت عن الصدور للمرة الاولى عام ١٩٦٤ • أما بالنسبة للاسلوب ، فمن الطبيعي أن ينجم مما تقدم ان هذا الاسلوب الذي استعملته ، كان أكثر ما يكون سهولة ، وذلك واضح من استعمالي لبعض البحور القليلة ، وترك البحور الاخرى ، اعتقادا مني أن هذه البحور القليلة هي اطوع لتوصيل المعنى الى القارىء الحديث » •

— والمجلة ؟

— « مع اختلاف المواهب ، عملت الشيء نفسه ، لقد كنا جماعة ، ونعمل معا » • (يوسف الخال — مقابلة خاصة) (٣٦)

لكن **يوسف الخال** ، اسلوبا ولغة وتجربة ، كما يحب أن يحدد ، كان اهم بكثير مما قاله عن نفسه في هذه المقابلة ، فهو ابداعيا ، اول من اقترب باسلوبه من اسلوب الترجمة الانجيلية بشكل حميم ومؤثر في الآخرين، واول من وضع تلك المفردات ذات المدلولات الانجيلية الصرف في الشعر العربي الحديث ، واول من دخل الى الانجيل من الشعراء المحدثين ، ولم يخرج منه (٣٧) • لقد كان

بحجمه الاليوتي يضيف للتوصيل العربي جماليات غربية، لم تجد مستقرا لها بعد في ذاكرة المتلقي العربي• اراد ان يضع **البديل النقلي** للبلاغة الباقلانية ، فنفى نفسه من المجال ، وأن حقق للشعر العربي أول توازن بين **حلم انجيلي وتوصيل من نوعه •**

ما معنى طغيان الواقع الخارجي على الحركة واثره في الاستجابة الذي تحدثت عنه عبر ثلاثة نماذج ؟ الواقع ان تشخيص التجربة الابداعية لايتحقق دون اصطدامات • فالانا الشعرية مطلقة تبحث عن هويتها في مجال مليء بالتناقض ، وساحق لحرية الحركة • وهي في بحثها عن الهوية لاتستغني عن الشكل ، أي مادة الآخر ، مادة المجال الذي يمتص باستمرار أي حركة حرة ، ويغلقها في هندسته • ولقد ميزت في البدء بين **شكل تمليه حركة الابداع** ، يكون من مادة الحركة نفسها ، ويضع وجودا ابداعيا بالنسبة للموجودات ، ويوحد بين الفعل والاحتمال ، بحيث يكون اختيارا ، وذاتيا ، وذا زمن خاص ، ويختلف بالضرورة عن توقع الآخر ، ووجوده وزمنه ، ويحقق بذلك : الاحتمال الاعلى للتشخصن ، وبين **شكل مفترض** ، يكون مضادا للشكل القديم ، يصدر عن وعي ابداعي ، ولكنه لا ينبع من الحركة نفسها ، وبين **نمط شكلي يكون** مثالا لوجود قبلي او تطويرا له ، وتعبيرا عن **الفعل الذي لا يبدع نفسه ، انما يبدع جانبا منه يصغر** ويكبر بحسب **طغيان الواقع الخارجي** • وهذا التفريق يرد الاشكال الثلاثة الى شكلين، **اما شكل من الابداع، واما ابداع في الشكل**، مما يؤدي بنا الى التفريق بين ديمومتين احداهما تولد من حركة الصيرورة للحلم ، وأخرى ، **يقيم بها الوعي صيرورته الداخلية** • لكن الحلم الذي يحيا في الديمومة الاولى **لا يغفل** اثناء التوصيل المراحل المبدعة لجذورة ، لان **التوصيل نفسه** يدخل في مادة حلمه ، ولانه لامعنى للشعر أخيرا خارج عملية توصيله ، طالما اننا لم نستطع ان نتقبل ، انسانيا ، شاعرا صامتا • ومن هنا كانت الحركة وصولا للمجال من جهة ، واشارات للافعال الحلمية التي أبدعته من جهة ثانية • وبقدر ما تتوحد تلك الحركة بافعالها ، وتحقق توازنا أكبر بين الفعل والاحتمال ، وتلغي طغيان الخارج ، تحقق الاحتمال الاعلى للتشخصن • واذا كان الحلم – حتى الان – باعتباره احتمالا ، مقولة عدمية بالنسبة للاخر ، فان الشكل لا يتواجد الا بمقدار تخلص ذلك الاحتمال من الآخر • بذلك تخاطر الديمومة الحلمية بالتجمد في المكان ، أو بالسيولة في صيرورة هلامية • ولقد جعل السلفيون الحالة الاولى (التجمد في المكان) تستغرقهم ، بتداول التحليل والتركيب في اشكالهم ، وتبعهم في ذلك كثير من المقلدين الجدد ، فلم يحرروا طاقات الصيرورة ، والديمومة الذاتية للحلم ، من قهر الوعي • بذلك **اقتصر الشعر على نسخ افعال العقل الاساسية التي يلخصها الماضي ، وعلى ذلك التذكر من الخارج للظواهر النفسية** • ولقد تلقى السلفيون الجدد هذا بالذاكرة، وحبسوه داخل مخططات مجردة• اما ما فعله المحدثون فارهب • لقد **استحال الشكل وعداء السلفية الى تفكيك تلك الذاكرة ، والانغلاق في تمزيقها ، اي بوضع طغيان عقلي مفكك بدلا من ذلك الطغيان السلفي المنظم •**

هذا التفكك ، الذي يحاور الجوانية ، باستخدام الوصل تارة ، والفصل تارة ، لم يستطع أن يقترب من ديمومة الحلم وذاتيتـــه إلا من خـــلال مفهوم **العلاقة** • فحين الغى السلفيون الصيرورة المبدعة للشكـــل بتحديده تحديـــدا مسبقا ، نجد ان المحدثين ، من خلال التشكيل البديل، قد استسلموا لصيرورة مغايرة للسلفية بالهندسة والمساحة ، ولكنها تحمل الصفات ذاتها ، وتتعثـــر بالطغيان الخارجي نفسه • أي انهم ثاروا على سطحيات الواقع الخارجي ولم يتركوا الصيرورة تنبع من حركة الحلم •

وهنا تكمن القيمة المحيـــرة لمحـــاولتي أدونيس ، في « هذا هو اسمي » و « مقدمة لتاريخ ملوك الطوائف » اذ بينما توهمـــان بخلـــق كلاسيكية أكثر تعقيدا ، تجدهما تقتربان في الوقت نفسه من صيرورة ابداعية خاصة ، ربما تكون ثورة على كل عرف قديم • انه القلق الدائم الذي يضع أدونيس وجهـــا لوجه امام الموت في التشخصن باعتباره مكونا لاحتماله، وشخصيته في صميمها•

هذا المعطى التجريبي الذي لم يزل سطحيا عند معظم شعرائنا الحديثين بالنسبة للشكل ، لا يغاير نفسه اذا ما انتقلنا الى حركته في الصوت ، عـــلى اعتبـــار ان الشروط التشخصنية للصوت لـــم تزل خاضعة ايضـــا للطغيان الخارجي •

منير العكش

اشارات

(١) المقصود بالتوصيل هنا ، القدرة على نضح الجوانية الشعرية بكل الوسائل الممكنة ، سواء أكانت لغة، ام حركة، ام لونا، ام نغما ، وذلك في محاولة لتمييع تلك الحدود القاسية التي اجترحتها نظرية الانواع الفنية • والتوصيل عندي قيمة ومعيار، وهو يختلف كثيرا عن التواصل ، ذلك لان التوصيل اداء ، والتواصل استجابة مع هـــذا الاداء •

(٢) ما نشر في هذا العدد ، هو جزء من بحث يكتب لمواقف ، وسيصدر مجموعا تحت عنوان « **في احتمال الشعر** » ولعله من المفيد لفهم هذا الجزء أن أبين الخطوط العامة لهذا البحث حتى تتساوق للقارىء فكرة تكاملية عنه • ما أريده من هذه الدراســـة هو استنقاذ الحداثة من ورطة الثبات ، والتشكيل ، وعقدة الذنب تجاه التـــراث، والعودة الى فهم خصائص العربية الاساسية وعلاقتها بالشعر ، ثم فتح احتمـــالات جديدة للتوصيل والتواصل ، بعد دراسة عقبات الاستجابة والهوة القائمة بين الوعي والابداع ، وذلك بدراسة الموضوعات التالية :

١ ـ مقدمة موجزة في المنهج النقدي والأصالة اللغوية •
٢ ـ التوصيل وطغيان الواقع الخارجي •

٣ ـ التوصيل والحلم ·
٤ ـ مصادر التجربة الابداعية ـ الأسر الاجتماعية للابداع ، مادة الابداع ·
٥ ـ الذاكرة الشعرية ·
٦ ـ التوصيل والمكان ـ في اللون
٧ ـ التوصيل والزمان ـ في اللغة
٨ ـ التوصيل والحركة ـ النغم
٩ ـ مساحة التوصيل ـ دراسة للتشكيل
١٠ ـ معنى الحـــداثة
١١ ـ جماليات المستقبل
١٢ ـ الاستجابة وعقدها ـ في الغرابة والغموض ·
١٣ ـ التعبير ومفهوم المشاركة مع الفنون ·
١٤ ـ احتمــال الشعــر ·

مازجا هذه الدراسة بحركة ميدانية ومقابـــلات مع اكبر عدد ممكـــن من الشعراء المشتغلين بالحداثة ·

(٣) الذاكرة الشعرية ، تشمل كل ما يختزن بالكسب من قيم ، او افكار ، او انمـاط تعبير ، سواء اكانت ماضية ، أو معاشة · والغاؤها معناه الثورة على كل جاهز ثابت ·

(٤) سركون بولص ، شاعر عراقي يعيش حاليا في اميركـــا · له قصـــائد منشورة في « مواقف » و « شعر » ، وله ديوان معد للطبع بعنوان « عاصمة آدم » ·

(٥) سمير الصايغ ، شاعر لبناني من مواليد ١٩٤٥ ، نشر للمرة الأولى في « مــواقف » العدد (٧) ، وفي العدد (١٣) · يعتبر شعره محاولة جديدة لتطوير قصيدة الموقف ·

(٦) أليس اتهام العرب للرسول بأنه شاعر دليلا على انهم عرفوا الشعر خارج مــوازين الخليل الايقاعية ، ان لم يكن لهم فعلا مثل ايقاعي مشابه ، وانهم ، عــلى الاقـل يستطيعون ان يقبلوا الشعر لا بشرط الايقاع ؟ ثم كيف يفسر النقاد ـ مثلا ـ خروج بعض أبيات عبيد بن الابرص على موازين الخليل ؟ ان الجهد المبذول لتصحيــح ايقاع هذه القصيدة لجعلها من مجزوء البسيط لا يخفى على من تتبع روايات هذه المعلقة · وسيجد القارىء دراسة لأمثلة جاهلية كثيرة اعتبرت شاذة على الموازين الخليلية وذلك في الفصل الخاص بالتوصيل والحركة ·

(٧) سيجد القارىء انني قد عدت اكثر من مرة الى العلاقة اليونانية العربية في هـــذا البحث ، ذلك لانني اعلق اهتماما كبيرا على تخليص العربية من الرواسب اليونانية في محاولة لتفجيرها من الداخل واستغلال خصائصها الاساسية ·

(٨) باستثناء نقدها التقمصي لشعر ادونيس الذي سيأتي الحديث عنه بعد قليل ·

(٩) لم يعد خافيا ان العرب لم يعرفوا اليونان مباشرة ، وان تأثرهم بالاسرةالاجتماعية اليونانية كان ممزوجا بفهم السريان لها ، وان معظم شراح ارسطو على جهل تـام

باليونانية . ان ابن رشد مثلا ، وهو الذي أدخل أرسطو الى الغرب وشغلهم به ثلاثة قرون ، كان جاهلا باليونانية . لقد اثبتت الترجمات الحديثة لأرسطو مدى الخلاف بين نصوص الترجمة العربية والنص الاصلي ، ذلك لان العرب انما كانوا يستبطنون انفسهم من خلال نصوص غامضة يقلبونها برشاقة واستشفاف ذكي، ويصيغون منها افكارا مزيجة من يونانية وسريانية وعربية .

(١٠) مقدمة عبد الرحمن بدوي لترجمة الشعر في « الشفاء » لابن سينا . ص ٠١١ القاهرة ١٩٦٦ .

(١١)المعلوم أنهم قسموا الفعل الى ثلاثة أزمنة تتعلق بالدلالة لا بالصيغة ، لكنهم لم يستطيعوا أن يحصروا الدلالة في هذه الازمنة باعتبار أن الطبيعة الزمنية للغةالعرب مشتبكة ، اذ كثيرا ما تحمل صيغة المضارع دلالة ماضية مثل « قد يعلم الله » أو يحمل الماضي دلالة الحاضر أو المستقبل مثل « اذا جاء نصر الله والفتح » ، مما أوقعهم في تأويلات سفسطائية ومضحكة .

(١٢) القصيدة منشورة في « مواقف » عدد ١١ ، وفي ديوانه الجديد « وقت بين الرماد والورد » منشورات « مواقف » وانظر مجلة « الحوادث » البيروتية في مقابلة مع أدونيس ، العدد ٧٤٤ ـ ١٢/٢/٩٧١ ـ نبيل فارس .

(١٣) سأتحدث عن هذا بتفصيل في الفصل الخاص بمادة الابداع ومصادره .

(١٤) السياق هنا هو الذي يوضح صلة التصور بالواقعة الحسية .

(١٥) من الشعراء من تتضخم عندهم هذه الظاهرة ، حين يعددون صيغ التشبيه ، كان يقولون : هذا الوجه كالقمر نورا ، وكالربيع نضارة ، وكالصباح اشراقا ...الخ، كانهم يدعون للملتقي فرصة الاختيار، وان كان التمييز هنا من انواع مختلفة، ويحدد العلاقة جزئيا ، الا أنه لايخفي ذلك الفصام الحاد بين التصور والواقعة الحسية.

(١٦) علما بأن معظم مقولات البلاغة القديمة جاءت من خارج عملية الابداع العربية، أو من خارج العقلية العربية ، بايحاء غير مباشر ، نمى بذورها في ذاكرتنا ، حتى ظننا انها صدرت عنا ، وتقدست فينا . ان مشكلة البلاغة العربية ستدرس بتفصيل في باب « الذاكرة الشعرية ».

(١٧) هنا أتحدث عن شيوخ الحداثة ، ولا أتحدث عن المقلدين الحديثين الذين استهوتهم الحداثة ، فحاكوها تخييليا ، وجعلوها تقليدا .

(١٨) الأحد البيروتية ـ العدد (١٠٠٣) ، ١/١١/١٩٧٠، مقابلة بين غالي شكري ورياض فاخوري .

(١٩) فقد كان بين أسرة تحريرها طفوليات غريبة عن الحداثة ، وحتى عن الشعر ، وانما عاشت على سمعة المجلة ، وعلى سمعة شعراء المجلة الكبار . ولذلك تجد هذه الطفوليات بعد توقف المجلة ، قد ماتت ، او تحولت الى المسرح ، أو استغرقتها الصحافة .

(٢٠) لم تقم أية محاولة في العالم لاختراق جدار نظرية الانواع الفنية ، ومزج وسـائل توصيلها في نوع فني واحد · وهذا يعني أن الشعر نفسه ما يزال يسبح في رمـل اللغة ، لا أدونيس وحده ، على انني سادرس هذه الظاهرة بتفصيل في باب «التعبير ومفهوم المشاركة مع الفنون» · وهنا أحب أن أوضح انني لا أدرس شعراء ، وان **الامثلة انما تتم في سياق الفكرة موضوع الفصل وهي هنا لا تتعدى مفهوم « الحركة وطغيـان الواقع الخـارجي عليها » فقط ·**

(٢١) العددان ٥ و ١١ من « مواقف » · انظر أيضـا : « وقت بين الرمـاد والورد » · أدونيس ـ منشورات « مواقف » ·

(٢٢) مواقف ـ العدد ٧ ·

(٢٣) الوثائق الملحقة بالبحث هي مقابلات مع عدة شعراء ، تنشر مع تتمة البحث ·

(٢٤) نشر في دار « النهار » ـ بيروت ١٩٦٩ ·

(٢٥) لعل هذا هو تفسير ظاهرة تكرار الصيغ التي تبدأ بمفردة واحدة وتستغرق القصيدة عند أنسي الحاج ·

(٢٦) يعتبر شعر أنسي الحاج عصرنة لنشيد الأناشيد الذي ترجمه ونشره في دار النهار ـ بيروت ·

(٢٧) للظاهرة النثرية عند أنسي الحاج طغيان كبير على حركته · تدرس في باب «التوصيل والزمان ـ من خلال اللغة » وملخصها أن النثر عند أنسي الحاج شكـل لا يختلف عن أي شكل مستعار من الذاكرة الشعرية ، خصوصـا وانـه يستعير لغة الملـك سليمان وصيغه التعبيرية ·

(٢٨) اذكر منها نتفة في « تجلي السيد المسيح على الجبل »: فلك واحدة · ولموسى أخرى · ولالياس ثالثة في وئام · وما درى ما قال · وانقضى منه الخطاب · فاظلت عليهـم غمام · وجزعوا اذ رأوا موسى والياس قد دخلاها في قوام · وكان منها صـوت يجهر باعلام ··· » انظر « تعريب الاناجيل واعمال الرسل » للأب يوسف قوشقجي ـ المطبعة الكاثوليكية · بيروت ص ١٨ ·

(٢٩) المصدر السابق ص ١٥ و ١٧ ·

(٣٠) ما زلت أذكر تلك اللهجة التي لا تخلو من التأثر لأحد الرهبان الذين درسوا ظاهرة العذاب عند بدر شاكر السياب ، اذ قال : « ويا ليته تبحر في معنى الصليب لهـان عليه الامر ، كما عند المسيحيين في ايمانهم بسر الفداء » أليس هو الذي يقول « انـا المسيح يجر في المنفى صليبه »· انظر مجلة المشرق البيروتية ص ٣٧٣ ج ٣، سنـة ١٩٦٩/٦٣

(٣١) علما بأن العلمنة في العالم العربي ظاهرة دينية اذا فهمنا العلمانية من خلال المفهوم الفلسفي المتعلق باستقلال العقل وقدرته واذا استطعنا أن نخرج من ذلك الخـلط السطحي بين مفهومي الالحاد والعلمنة ·

(٣١) للتيسير ، حذف المنجد في طبعته الاولى الشواهد الشعرية المعقدة ، وللعلمنة، حذف الشواهد القرآنية والحديثية . وبقيت مدلولات الالفاظ في معظم مواد المعجم، بطبعته الاولى ، محافظة على ذاكرتها الدلالية ، مع شيء من التيسير ، والاضافات . ثم جاءت طبعات المنجد المتوالية ، فهدمت جسر العلمنة ، وفتحت لمواد المعجم العربي، تلك الدلالات الانجيلية الصرف .

(٣٢) الاسقاط Projection هو اتهام الاخرين بعيب في النفس ، كأن أكون أعمى، واتهم المفتحين بالعمى .

(٣٣) عز الدين اسماعيل ــ الشعر العربي المعاصر ــ دار الكاتب العربي ــ القاهرة ، ص ٢١٣ ــ ٢١٤ .

(٣٤) « قصائد » يوسف الخال ، اختيار ادونيس ، دار مجلة شعر ــ بيروت .

(٣٥) راجع رسائل ماسينيون الى الأب لويس شيخو لترى كيف أن غاية ماسينيون من دراسة الحلاج كانت كما يقول الاب كميل حشمة «ابراز دور النصرانية بين العرب» ولاثبات « ان الحلاج كان مسيحيا بالشوق ، وانه من المحتمل انه لم يحرم عماد الشوق » . انظر مجلة المشرق البيروتية ، ص ٧٣٠ و ٧٣٣ ج ٦ السنة ٦٤/١٩٧٠.

(٣٦) مقابلة خاصة لا علاقة لها بالوثائق الملحقة بالبحث في الاشارة (٢٣).

(٣٧) التحديد هنا يرجع تاريخيا الى بداية الحركة الحديثة التي طرحت من خلال مجلة شعر . لذلك لم أشر الى الذين سبقوه ضمن حركات أخرى لا تهمني ، مثل: جبران، وفؤاد سليمان ، والياس أبو شبكة . أما بالنسبة لتوفيق صايغ فلم يكن له ذلك الدور المعدي . كانت تجربة خاصة ومغلقة على نفسها .

قضايا الثورة العربية

نديم البيطار

الحركة الثورية العربية : الفكرة والممارسة
(أسئلة واجوبة)*

* في اطار الواقع العربي ، بموروثة وحاضره المتحرك باتجاه الثورة ، كيف تحدد العربي الثوري ؟

— في اطار الواقع أو المجتمع العربي التقليدي ، يكون العربي الثوري من خرج من هذا المجتمع وعليه في جميع أصعدته ونظمه ، فرفض أن يكون جزءا منه · أما كيفية الخروج فهي تصور ايديولوجي انقلابي جديد للتاريخ يجدد ذاك المجتمع والانسان الذي يتفرع منه ، من الجذور ·

العربي الثوري هو ، بكلمة أخرى ، العربي الذي يتحرر من الوجود التقليدي ، يعتمد مفهوما ايديولوجيا انقلابيا يحدد له من جديد طبيعة التاريخ وحركته ، طبيعة علاقته مع التاريخ والحياة والاخرين ، يكشف له عن منطق الحركة التي تسود التاريخ والحياة في مرحلة معينة · فيعمل في ضوء ذلك على خلق مجتمع جديد يقوم في نظم اجتماعية واقتصادية وسياسية واخلاقية جديدة · انه انسان يتبلور في هذا المفهوم الجديد ويولد فيه ولادةجديدة ، أي انالاطارات العقلية والنفسية نفسها ، من اللاواعية منها ، تزول وتعطي مكانها لاطارات جديدة تنبثق من المفهوم الجديد · العربي الثوري هو اذن

---

* تم هذا اللقاء بين نديم البيطار وهيئة تحرير « مواقف » ، قبل وفاة الرئيس عبد الناصر · وقد اثرنا أن ننشر نص الحديث ، كما هو في الاصل ، دون تغيير أو تعديل ·

انسان يتمرد على الوجود التقليدي اولا ، بالمفهوم الايديولوجي الذي يعتمده قاعدة له ، أي المفهوم الديني فيعمل على تحرير العربي منه ومن الاطارات النفسية والعقلية التي تنبع منه ، وهو ، ثانيا ، الذي يتمرد على النظم الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعقلية ، الخ ٠٠ التي يتشكل منها ، والتي تتفرع مباشرة من الدين ، أو تجد بطريقة غير مباشرة تبريرها فيه ٠

ثم ان الثوري هو الذي يبني مواقفه الثورية في ضوء دراسة موضوعية للواقع الذي يحياه ، ويستطيع ان يكشف عن الاتجاهات او القوانين التي تسود هذا الواقع ٠ فيحدد سلوكه الثوري تبعا لها ٠ انه انسان لا يقع فريسة لرومانطقية صرفة ، ولا يجابه الواقع بالتبشير المحض بما يريده ، بل يستطيع ان يجعل ما يريده مرتبطا بامكانات الواقع وتحولاته ، ومنطق هذه الامكانات والتحولات الموضوعية ، فيعمل معها وليس ضدها ، ويحاول تغليب الايجابي على السلبي ، في ضوء مقاصده الثورية العليا ٠ هذا لا يعني دراسة علمية موضوعية للواقع الذي يحياه وحسب ، بل يعني كذلك وبشكل خاص دراسة موضوعية علمية للتاريخوتجاربه الثورية وتحولاتهالاجتماعية ،يحاولفيها عن طريق المقارنة ، أن يكشف عن الاتجاهات التي تعيد ذاتها في هذه التجارب، فيعتمدها في تحديد عمله في الواقع وفي دفع هذا الواقع نحو المجتمع الجديد ٠

أضيف الى هذا كله ان العربي الثوري هو انسان يحيا هذا المفهوم ويعيشه في حياته اليومية ذاتها ، أي انه انسان لا يقتصر تعبيره عن ذاته كثوري على صراعات سياسية واجتماعية وعقائدية ترمي الى بناء مجتمع أو انسان عربي جديد ، بل هو أيضا وقبل كل شيء يعبر في حياته اليومية نفسها عن الذات الجديدة فيحاول أن يحدد جميع علاقاته بها ٠ هنا تجد المقياس الاول للاصالة الثورية ، فالثوري هو الذي يسلك كثوري ليس فقط عندما يكون تحت الانظار ، بل بشكل خاص في عزلته ٠ الثوري هو قبل كل شيء ما يصنعه في عزلته ، فما يصنعه هنا وفي هذا الصعيد يدل أكثر من أي شيء آخر على ولادته الجديدة ودرجتها ، لانه يدل على وجود الذات الجديدة التي يجب أن يتميز بها والتي يجب أن تفرض نفسها بشكل لا واع على سلوكه ، فتكون جميع مقومات هذا السلوك امتدادا لها ٠

*** هل هذا يعني ان جميع هذه الميزات أو الشروط يجب أن تتحقق للعربي كي يكون ثوريا ؟**

ــ كلا ، هذا لا يعني ذلك ، لان ليس هناك أي مقياس معين يمكن عنده القول ان ذاك او هذا متكامل الثورية ٠ فالثورية لا تعني حالة ثابتة أو جوهرا معينا قد يتوفر أو لا يتوفر ، بل يعني حالة أو حركة مستمرة من الصراع ، والتجاوز الذاتي ٠ فهناك دائما درجات ومجالات من النمو مفتوحة أمام الثوري مهما بلغت درجة تطوره ونضوجه كثوري ٠ فالثوري هو من يحاول

باستمرار أن يتجاوز ذاته ، مصححا مكامن الضعف في سلوكه ٠

✻ من ضمن تحديدك هنا ، نرجو أن تحدد لنا المنجزات العربية التي تعتبرها ثورية حقا، سواء في الحقل الثقافي ، أو الاقتصادي ، أو حقل القيم ، أو غير ذلك ٠٠٠

ـ أهم المنجزات العربية في حقل الثقافة والقيم هي كما يتراءى لي « المناخ » الثقافي الجديد العام الذي أخذت الحركة العربية الثورية في توليده ، لا شك ان ميزات وعناصر هذا المناخ ما تزال الى حد كبير جانبية وسطحية ٠ لم تنزل بعد الى اعماق الذات الثورية ٠ ولكن المناخ الثقافي الذي أخذت الحركة العربية في بنائه ، واعية أو غير واعية ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، هو من النوع الجديد الذي يشكل نقيضا للمناخ الثقافي الذي يميز المجتمع العربي التقليدي ويسوده ٠ هذا التناقض بين الجديد والتقليدي هو الطريق الذي يحرر في المدى البعيد العربي ويكشف عن امكاناته وجميع ما يملكه من طاقات مجمدة في اطار المناخ التقليدي الثبوتي ٠ هذا التحرير هو حجر الزاوية في انطلاق الحركة العربية الثورية بفاعلية نحو مقاصدها القومية الاساسية ٠ أصبحت لغة المناخ العربي الثقافي لغة القرن العشرين ٠ أي لغة عقل جديد لا ينسجم بأي شكل مع العقل الذي يشكل لحمة الوجود التقليدي ٠ ان نمو هذا المناخ ـ ونموه قدر مفروض ـ سيفتت تدريجيا هذا العقل ، وبذلك يحقق المنطلق الاساسي الذي يسمح بانطلاق طاقات العربي وبناء ذاته من جديد ٠

ما قلته حول الحقل الثقافي العام ينطبق على الحقل الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ٠ فالمنجزات العربية الثورية في هذه الحقول أخذت تتكلم أيضا لغة القرن العشرين ، وبشكل ثوري ، كما انها أخذت تعتمد أدوات هذه اللغة وتحاول خلق النظم التي تحققها في الواقع ، وهذا يعني ـ رغم النقص الموجود ـ أن الواقع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي يتحول بشكل يلتئم مع المناخ الثقافي المحض الذي أخذ يسود الفكر العربي ٠

✻ من ضمن هذا التحديد كذلك ، ماهي مآخذك على الحركة الثورية العربية ؟

ـ قلت سابقا ان المنجزات الثورية العربية أخذت تخلق مناخا جديدا يتكلم لغة القرن العشرين ٠ ان المأخذ الاول الذي أود ايراده في ضوء التحديد الذي اعطيته هو أن الحركة الثورية العربية لا تنطلق من فلسفة حياة جديدة ، أو تصور انقلابي شامل للحياة والتاريخ ، ولذلك فهي تعتمد بسبب هذا الفراغ فلسفة الحياة التقليدية التي تقوم قاعدة للوجود العربي التقليدي ٠ هذا يعني ان المأخذ الاساسي ـ فى ضوء التحديد الذي أوردته للثوري ـ هو أن هذه الحركة تتكلم لغة القرن العشرين دون مضمونه النفسي العقلي ، وهي تجري التحولات الاقتصادية والعلمية والاجتماعية والسياسية دون عمل مباشر واع في بناء ذات جديدة تجاريها وتضفي عليها الفاعلية التي تحتاج اليها ٠ هنا

نجد أحد التناقضات الاساسية التي تعانيها الحركة العربية الثورية ، وهو ان الاطارات النفسية والعقلية الاساسية التي تعمل فيها لا تنسجم مع التحولات الثورية التي تنجزها • ان منجزاتها الثورية ما تزال أساسيا منجزات خارجية ، لان الابعاد النفسية والعقلية لم تتجدد تجديدا جذريا يجعلها جزءا من هذه المنجزات •

الحركة الثورية المتكاملة ، الناضجة والجذرية حقا ، لا تستطيع ان تشغل ذاتها فقط بالتحولات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وبالموانع المادية التي تقف أمامها ، بل يتحتم عليها ، اذا ارادت ممارسة الفاعلية الثورية ، ان تهتم بتلك التحولات النفسية والعقلية ، وتلك الموانع الشعورية الواعية واللاواعية حتى تنتج عن النظم والعادات التقليدية التي يحددها مفهوم ديني غيبي للحياة والتاريخ والانسان ، هذا يعني عملا ايديولوجيا تحريريا ثوريا مباشرا يعلمن الذات العربية من الجذور •

ان عدم توفر هذا التصور الايديولوجي الانقلابي للتاريخ أدى الى اضعاف الحركة الثورية العربية بشكل عام وفي جميع أصعدتها • وقد أضفى عليها اساسا موقفا براغماتيا جعلها تنتقل من مشكلة الى اخرى بدلا من النظرة الشمولية الجذرية ، وتخسر في اكثر حالاتها زمام المبادرة للتاريخ الذي يحيط بها • هذا ما جعلها تتخبط كثيرا وتفاجأ بالاحداث ، فكانت الاحداث تحدث لها بدلا من أن تجعل هي نفسها الاحداث تحدث •

هذا هو المأخذ الاساسي الذي أود تسجيله في ضوء ذلك التحديد ، ومنه تتفرع مآخذ اخرى عديدة • فالحركة الثورية العربية عجزت مثلا ، بسبب هذا الضعف الايديولوجي الاساسي ، عن ممارسة الصراع الطبقي الثوري ، ونحو ملء التناقض الاساسي بين الاقطاع والفلاحين ، وبين رأس المال والعمل • فهي وان حلت هذا الصراع ، وخصوصا في ثورة ٢٣ يوليو الرائدة ، لمصلحة الفلاحين والعمال ، فانها وصلت الى هذا الحل براغماتيا وما رسته بشكل أقرب الى الموقف الاصلاحي منه الى الموقف الثوري ، فعجزت بذلك عن احداث الهزة النفسية التي كان بامكان الحل الثوري أن يحدثها ، والتي تشكل ضرورة في تحرير الذات من ترسبات النظام الطبقي السابق • كان عليها منذ البداية ، لو صح تصورها الايديولوجي الثوري ، أن تمارس هذا الصراع عن طريق العنف الثوري ، فتزيل من الوجود السياسي الاجتماعي طبقة البورجوازية الكبيرة والاقطاعيين ، وخصوصا هؤلاء ، الذين كان عليها مصادرة أملاكهم كلها • ذلك كان ضروريا بشكل خاص في احداث تلك الهزة النفسية الجذرية لأنفس هؤلاء فتحررها بمقدار كبير من ترسبات الخنوع والاستكانة اللاواعية التي أنماها النظام السابق في هذه الأنفس عبر قرون عديدة من الاستثمار والاذلال والامتهان •

والحركة الثورية العربية عجزت أيضا وبسبب فقدان التصور الايديولوجي الانقلابي للتاريخ عن تحقيق نظام ثوري كلي يشمل كل مظاهر

الحياة ، ويحاول ان يحددها في صورة انسان عربي جديد ، فبدون ذلك التصور يستحيل ظهور هذا النظام ، وهذا كان يعني ، اولا ، العجز عن الكشف عن جميع الطاقات والامكانات العربية ، وثانيا ، بعثرة ما كشف منها وتشتتها الى حد كبير . هنا أود التنبيه أيضا الى ان هذا التصور الايديولوجي الانقلابي يضع العربي رأسا ، دفعة واحدة ، ووجها لوجه أمام ضرورة التحرر التام من الوجود التقليدي الذي يحدد ذاتيته في فلسفة حياة دينية . أي ان العربي يجد نفسه دفعة واحدة أمام ولادة جديدة جذرية .

أما المأخذ الاخير الذي أود تسجيله فهو عجز هذه الحركة عن تحقيق الدولة الواحدة ، أو أي شكل صحيح من أشكال الوحدة بين الاقطار التي يفترض فيها ان تكون ثورية ، فالدولة الواحدة يجب أن تكون القصد الاساسي لهذه الحركة . والمقياس الاول لثورية أي نظام يجب أن يكون درجة ما يعطيه في سبيل هذه الدولة ، فشل هذه الحركة حتى الان في العمل الوحدوي يعني عجزها امام أهم مقصد ثوري من مقاصدها ، ويحكم عليها بضرورة تجاوز ذاتها عن طريق حركات ونظم وطلائع أخرى .

※ من ضمن التحديد نفسه كيف تنظر الى فصائل اليسار العربي ، أو ماهي مآخذك على هذا اليسار ؟

ــ المأخذ الاول هو الموقف التبشيري والشعائري الذي يميز هذا اليسار . فالشعارات والمزايدات هي أساسيا سمته ، لا الفكر الموضوعي العلمي . واليسار الماركسي ، وهو يسار يفترض فيه أن يكون قادرا على ممارسة الموضوعية والعلمية اكثر من غيره ، يخضع ، ما عدا عدد قليل قد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة الى هذه السمة ، وبشكل آكثر بروزا . فالماركسية تحولت عنده الى عبارات وشعائر ومفاهيم سطحية يرددها بشكل رتيب ، والى موقف ديني ، بدلا من أن تكون أداة بحث واستقصاء ، مستقل خلاق للواقع العربي . ان برجسون كتب مرة ما معناه ، بأن المسيح قال ان من عنده ذرة ايمان يستطيع ان يقول للجبل أن ينتقل فينتقل الجبل . ولكن الامر على عكس ذلك ، اذ أن من عنده ذرة ايمان لا يستطيع رؤية الجبل . هذا ينطبق على هذا اليسار .

المأخذ الثاني هو انه يفترض في اليسار ، في مرحلة انتقالية جذرية كالتي نمر فيها ، أن لا يقتصر ــ حتى عندما يكون موضوعيا وعلميا ــ على دراسة تجريبية للواقع ، بل ان ينظر عن طريق مقارنة تاريخية عامة لتجارب ثورية أو تحولات اجتماعية مماثلة ، وهذا النوع من التنظير هو شبه مفقود في هذا اليسار .

أما المأخذ الثالث ، فهو تفتت هذا اليسار وتبعثره . وهذه ظاهرة يشارك فيها الفريق الماركسي بدرجة قد تكون اكبر وآكثر بروزا . هنا تجب الملاحظة

ان هذا التفتت لا يجد تفسيره ، فيما يتعلق بالفصائل الماركسية مثلا ، بالرجوع المحض الى ذلك التفسير الطبقي أو المادي الميكانيكي الذي ترجع اليه عادة هذه الفصائل ٠

والمأخذ الرابع الذي يجب الوقوف عنده هو تجاهل واهمال أو تنكر معظم هذا اليسار للدولة العربية الواحدة من ناحية عملية وموضوعية ، ان لم يكن من ناحية « تبشيرية » أو « لفظية » ٠ ان موقف الكثير من هذه الفصائل ، الموضوعي ، يوحي بأن محاربة هذا الهدف وليس الولاء له هو قصدها الاول ٠ هنا أرى نفسي مضطرا الى الملاحظة بأن معظم هذه الفصائل تشغل نفسها ، مع الاسف الكبير ، بمحاربة ومقاومة ثورة ٢٣ يوليو اكثر من انشغالها بمحاربة الامبريالية نفسها وقاعدتها اسرائيل ، هذا في وقت حملت ولاتزال تحمل فيه هذه الثورة اعباء العمل العربي الثوري والوحدوي الاساسية ٠ فهي تكرس جهدها في هذا السبيل بدلا من تكريسه في تحقيق المنجزات الثورية التي يجب أن تجد فيها تبريرها الاول ، وخصوصا ما كان منها وحدويا ٠ ليس هناك ما يدل على تهافت هذه الفصائل من هذا الموقف !

ان التجارب الوحدوية الثورية في التاريخ تدل على أن كل أمة مجزأة تحتاج الى قاعدة تتركز عليها الجهود في تحقيق وحدتها ٠ ومصر ، بامكاناتها الاقتصادية والبشرية والاجتماعية والعسكرية وموقعها الجغرافي الاستراتيجي، هي القاعدة الطبيعية للعمل الوحدوي العربي ٠ فدون مصر وقيادة مصر تستحيل الدولة الواحدة ٠ ولكن الدولة الثورية الواحدة هي الرد الطبيعي على الامبريالية واسرائيل ، وهي الطريق الاساسي الوحيد في التغلب على التخلف وتحقيق التنمية ودخول القرن العشرين ٠ لذلك كان كل عداء لمصر الثورة هو موضوعيا لقاء مع الامبريالية واسرائيل ٠ ومن المؤلم حقا أن نرى أن الامبريالية واسرائيل أدركت هذه الحقيقة بينما هذه الفصائل من اليسار العربي لم تدركها ، أو لم ترد أن تدركها ، أو أدركتها ولم ترد أن تعمل بوحيها ٠ فهي كالامبريالية واسرائيل تركز جهودها على محاربة ثورة ٢٣ يوليو ، ومثلهما تريد هذه الفصائل رأس عبد الناصر ٠وفي هذه الفترة بالذات، بينما مصر تحمل ثقل المعركة مع اسرائيل وتوجه جميع جهودها في هذا السبيل ،نرى هذه الفصائل التي لا تعطي شيئا لهذه المعركة ، تقف من مصر موقف المزايدة والعداء والسلبية والخصام ٠

* ماذا تعني لك المقاومة ؟٠ ما هو دورها : كيف تقيمه الآن ، وكيف يجب أن يكون ؟

— الاجابة عن هذا السؤال لا يفرض فقط افاضة لا يسمح بها حديث كهذا ، بل يفرض في الواقع كتابا مستقلا ٠ لذلك فانني أقتصر على بعض الملاحظات السريعة ٠

كان واجب الثوريين العرب هو ان يفيدوا من الاوضاع النفسية التي تركتها وخلقتها نكسة حزيران ، وان يستخدموا كل الامكانات والطاقات التي توفرها هذه في سبيل تحرير الارض المحتلة • الكفاح المسلح هو الاداة الفعالة التي يمكننا الافادة من هذه الامكانات والطاقات ، بتفجيرها وحشدها وتوجيهها نحو هذا التحرير • المقاومة تمارس هذا النوع ، وبذلك تكشف عن الامكانات والطاقات التي تترتب على النكسة • أهم شيء في المقاومة ليس الضربات التي يمكن ان توجهها الى العدو ، والنجاحات التي يمكنها أن تسجلها ضده ، ولكن التصميم الحازم النهائي ، الذي لا يعرف أو يتعرف على خط رجعة ، بمتابعة القتال حتى النهاية ، حتى تحرير فلسطين • هذا يعني أن على الثوريين العرب أن يقفوا وراء المقاومة المسلحة يسهمون فيها ويساندونها بكل وسيلة ممكنة •

ولكن هذا لا يعني تجميد كل نقد • ففي اطار الدعم والارتباط والمشاركة يجب أن يقوم النقد بدوره الخلاق لاماكن الضعف والنقص في المقاومة فلا نتردد في ممارسته ، بمسؤولية وموضوعية •

العمل الفدائي يعني قبل كل شيء شق الطريق أمام العربي في استرجاع كرامته ، في الكشف عن طاقاته ، وفي تجاوز ذاته عن طريق ممارسة الصراع الثوري في أنبل صوره ، في عملية تحرير الارض من الاحتلال ، والمقاومة المسلحة التي يمارسها هذا العمل تجد معناها في أنها من الممكن أن تدل على بداية عهد جديد ، عهد تنقية الذات وتحريرها ودفعها نحو مصير جديد ، وفي أنها تعين اداة تخرج فيها من المأزق الذي وجدنا أنفسنا فيه بعد الهزيمة ، ومن الحلقة المفرغة التي عطلت امكاناتنا الثورية وجمدتها • لذلك يجب على الفدائي أن يكون نموذجا أعلى للسلوك الثوري ، ومثالا يحتذى ، وقدوة توحي للعربي بالقدرة على تجاوز ذاته • هذا يعني ان العمل الفدائي يجب أن يضع مقاييس صارمة يحياها الفدائي كفدائي ، ليس فقط في التدريب وممارسة القتال بل في سلوكه اليومي وفي تعامله وعلاقاته مع الاخرين •

ولكن بعد هذا التأكيد على معنى المقاومة العام ، يجب التنبيه الى الامور التالية :

١ ــ كي تحقق المقاومة هذا المعنى يجب عليها تجاوز ذاتها ثوريا باستمرار ، كما يجب عليها ان تتجاوز التناقضات الاليمة التي تسودها • هذه التناقضات ظاهرة طبيعية في بداية عمل كبير كهذا العمل وفي اطواره الاولى ، ولكن استمرارها سوف يسيء كثيرا للمقاومة ، ويضعف ارتباط الجماهير والمثقفين بها ، وهذا أمر يجب أن لا يحدث • يجب على المقاومة أن لا تنسى دورها في تحرير العربي من ذاته ومن التناقضات وأماكن الضعف التي لازمت العمل الثوري حتى الان ، سواء في الاحزاب أو التنظيمات الثورية • من المؤلم أن التناقضات وأماكن الضعف التي لازمت العمل الثوري في الماضي لا تزال ملازمة للمقاومة • وهذه ناحية تجب معالجتها بحزم وسرعة • ثم ان المبالغات

الكبيرة في البلاغات العسكرية يجب أن تقف وأن يوضع لها حد ، لان ذلك يفقد الجماهير ثقتها بالمقاومة •

٢ ـ ان التأكيد على القتال والعنف الثوري طريقا للتحرير لا يعني ابدا أن المقاومة ، في ممارستها هذا الطريق ، يجب أن لا تعتمد وسائل ديبلوماسية ، أو ان لا تأخذ بعين الاعتبار والتقدير الرأي العام الدولي فتحاول كسبه بما تسمح به الاوضاع ، أو ان لا تناور العدو سياسيا الخ • فهذه وسائل لا مفر منها ، ولكن دائما في اطار يخدم استراتيجية القتال والعنف • لهذا يجب على المقاومة أن تحذر من الوقوع في لعبة المزايدات والشعارات التي الحقت من الان اضرارا جسيمة بالحركة الثورية العربية •

٣ ـ يجب ان لا نحمل المقاومة أكثر من طاقتها ، وان لا نعطيها دورا يزيد ويطغى على امكاناتها وذلك يكون بتحديد امكاناتها بشكل موضوعي يقوم في تحديد علمي صارم للواقع الذي تعمل فيه وامكاناته • لذلك ، أحذر بشدة من تضخيم دورها بشكل لا يسمح به الواقع الذي تعمل فيه •

أذكر على سبيل المثال الاثارة المريرة التي ترتبت على هذا الموقف في نظرتنا الى قيادة عبد الناصر ، فبعد الانتصارات الاولى التي سجلتها هذه القيادة ، حملناها اكثر بكثير من طاقتها ، وبتنا ننتظر منها ان تصنع المعجزات ، وان تحل كل مشكلة لصالح قضيتنا ، وان تتغلب على كل معضلة وصعوبة • لقد الغينا بولائنا لها الواقع الاجتماعي السياسي التاريخي ووجوده المستقل ، والقوى التي تسوده ، والامكانات التي يسمح بها وتلك التي لا يسمح بها ،ونظرنا اليهوكأنه عجينة في يد عبد الناصر ،فوصلنا الى الانفصال، والى حزيران ، والان نتخذ موقفا مماثلا من المقاومة حيث ننتظر منها ان تجترح المعجزات • هذا الموقف سوف يقود ، ان استمر ، الى موجة خيبة ويأس قد تكون أشد مرارة وخطرا من تلك التي حدثت لنا في أعقاب حزيران •

ان الاوضاع التي تحيط بالمقاومة تختلف جذريا عن الاوضاع التي تحيط مثلا بالمقاومة الفيتنامية حاليا ، وتلك التي احاطت بالمقاومة الصينية ، أو بالمقاومة الجزائرية • هذه الاوضاع لا تسمح بتحول المقاومة الفلسطينية الى حرب شعبيةعلى غرار ما حدث في الصين والفيتنام والجزائر ، وذلك لاسباب لاتحتاج في الواقع الى جهد كبير في الكشف عنها ، وهي :

١ ـ الرقعة الصغيرة جداجدا لارض فلسطين ، وخصوصا لرقعة اسرائيل في حدود احتلال ١٩٤٨ • فالمسافة من القاهرة الى تل ابيب هي فقط ٤٠٠ كيلو متر ، هذا يعني ان قوى الاحتلال لا تجد أمامها أكثر من بضع عشرات من الكيلومترات تفصلها عن أية نقطة قد يهاجم منها أو يتمركز فيها الفدائيون •

٢ ـ الارض المكشوفة التي لا تسمح للمقاومة بالتجمع أو بالضرب بأعداد وفيرة ثم الاختفاء •

٣ ـ عدد السكان العرب القليل الذي لا يسمح بتغطية كافية لاعداد وفيرة نسبية من المقاتلين تستطيع ان تضرب ثم أن تختفي بينهم ٠

٤ ـ هذا العدد القليل الذي لا يتجاوز الثلاثمائة الف في المناطق اليهودية ، معزول عن السكان اليهود في احياء خاصة ، مما يضيف كثيرا الى ضعفهم العددي في تغطية العمل الفدائي ٠

٥ ـ امكان عزل السكان العرب في مناطق خاصة كي يمكن تجريد المقاومة من الكثافة السكانية الطفيفة التي تتوفر لها ٠ هذا العزل الذي استحال على فرنسا في الجزائر ، ويستحيل حاليا على الولايات المتحدة في فيتنام ، لا يستحيل على اسرائيل لقلة عدد السكان العرب ٠ ثم ان هذا العزل موجود في الواقع ٠ ان تهديم اسرائيل لآلاف المنازل العربية ـ حسب تقدير «التايمس» اللندنية ـ يبلغ عدد هذه المنازل ما يقارب الستة آلاف ، وكان ذلك منذ عام تقريبا كرد على أعمال فدائية ، سياسة يمكن لاسرائيل متابعتها وتحويلها ، بسبب الاوضاع السابقة ، الى سياسة مناطق خالية من السكان العرب ، أو مناطق يحصر السكان العرب فيها ٠

٦ ـ الرقعة الصغيرة والارض المكشوفة وطبيعة الحدود تجعل من الممكن لاسرائيل ان تحصن هذه الحدود ـ وهذا ما ابتدأ بالفعل يؤكد وجوده ـ عن طريق المناطق الخالية ، والرادار ، والاسلحة الالكترونية ، الخ ٠٠ بشكل يجعل تسرب الفدائيين على الاقل باعداد كبيرة ، امرا صعبا يزداد صعوبة مع الوقت ٠

٧ ـ الاحتلال الاسرائيلي ليس احتلال استثمار واستغلال ، بل استيطان يزيل شعبا بكامله ، ويحل شعبا آخر مكانه ٠٠ هذا يعني امورا عديدة ، منها ، مثلا ، ان المقاومة ستجابه تصحيحا حازما اكثر بكثير مما واجهته حروب شعبية اخرى ، كما انها لا تستطيع ان تعتمد على اثارة رأي عام داخلي في صفوف العدو يوافق على اهدافها ، أي تحرير فلسطين ، وهذا عامل توفر للحروب الشعبية الاخرى ٠ فحرب الجزائر مثلا انتصرت في فرنسا كما انتصرت في الجزائر ، وحرب فيتنام انتصرت في فرنسا سابقا ، وهي الان تنتصر في الولايات المتحدة ، وذلك بالاضافة الى انتصارها في فيتنام ٠ وفي كوبا انتصرت المقاومة في داخل النظام القائم كما انتصرت خارجه ٠

٨ ـ الدعوة الى ضرب المصالح الصهيونية في العالم هي في الواقع اعتراف ضمني بأن الاوضاع الموضوعية في الارض المحتلة لا تناسب قيام حرب شعبية من النوع الذي ذكرناه ، وان هذه الاوضاع تضيق بالتالي عن ممارسة جميع امكانات وطاقات العمل الفدائي ٠

ان ما اريده في عرض هذه الاوضاع هو انه يجب أن لا تحمل المقاومة أكثر من طاقتها ، فتصارح الجماهير بالواقع ولا تشجعها وتدفعها الى ان

تنتظر من المقاومة اكثر مما يمكنها ، وان لا تطلب منها انجاز اكثر مما تسمح به أوضاعها ..

* هل هناك في أوضاع المقاومة نفسها ، ما يدل على النتيجة التي عينتها في الاوضاع التي تحيط بها ؟

ـ نعم هناك ما يؤكد هذه النتيجة ويدل عليها ، فالمقاومة لا تستطيع مثلا استخدام جميع امكاناتها او حتى جزء كبير منها ضد اسرائيل . فالمنظمات الفدائية استطاعت كما يقال ان تجند وتدرب ما يقارب الثلاثين الف مقاتل . لنفرض ان العدد هو أقل من ذلك بكثير ، فمن الواضح ان هذه الطاقات لا تستخدم كلها، بل هي مجمدة ، وذلك ليس لان المنظمات لا تريد استخدامها ، بل لان الاوضاع التي تحيط بها ، الاوضاع التي ذكرتها ، لاتسمح باستخدامها بهذا المقدار .

ثانيا ، يمكن ايراد دليل اخرفي العمليات العسكرية التي يشنها الفدائيون. فأهم هذه العمليات تحدث على الحدود ، او ضد مراكز ومستوطنات اسرائيلية قريبة من الحدود ، ممايعني ان الاوضاع التي ذكرتها تحول دون قيام هذه العمليات في الداخل .

ثالثا ، لو كان بامكان المقاومة استخدام جميع الامكانات التي يمكن ان تتوفر لها ، لبلغت المجابهة بينها وبين اسرائيل درجة واسعة حادة تسقط القتلى كل اسبوع من الجانبين بالعشرات والمئات .

رابعا ، ان غياب وحدة عسكرية ، ان لم نقل سياسية ، صحيحة بين منظمات المقاومة يدل في الوقت نفسه على غياب المجابهة العسكرية الشرسة الواسعة النطاق ، انمجابهة من هذا النوع كانت فرضته هذه الوحدة العسكرية منذ مدة طويلة .

هذا الاسترخاء في تحقيق وحدة منظمات المقاومة يعود اساسيا الى عامل موضوعي وهو فقدان المجابهة الكبيرة والحادة . فان كانت جبهة التحرير الوطنية في فيتنام تضم ما يزيد على ٢٤ منظمة في وحدة حاسمة ، فليس ذلك لان المقاتل الفيتنامي يتميز بطبيعة قتالية من طينة اخرى ، ذلك يعود بمقدار كبير الى سبب موضوعي وهو حدة المجابهة وحجمها الكبير ضد الاحتلال الخارجي .

خامسا ، قوة المقاومة زادت تدريبا وعددا وعدة أضعاف ما كانت عليه عام ١٩٦٧ ، ولكن فاعليتها العسكرية في الارض المحتلة لم تنم بشكل يجاري ذلك ، انها على العكس أصبحت حاليا أقل فاعلية عسكرية مما كانت عليه سابقا .

* لقد أكدت على ضرورة المقاومة وقدسيتها ، وضرورة دعمها غير المشروط ، فما هو اذن بالضبط الدور الذي تعطيه لها ، والذي باسمه ناديت بهذا النوع من الدعم لها أو المشاركة فيها ؟

ـ بكلمة مختصرة ، ان دور المقاومة ، بالاضافة الى ما ذكرته سابقا ، هو :

١ ـ ابراز ارادة الصراع حتى الموت في سبيل تحرير فلسطين وتعميق هذه الارادة ، وتغذيتها ، والتدليل عليها يوميا في فلسطين • فالمقاومة تجد اهميتها ليس في الصعيد العسكري فقط ، بل في هذا الصعيد النفسي ، لانها تغذي الجماهير بالثقة ، وتنزع عن الاحتلال القدرة على الايحاء بالرهبة والخوف •

٢ ـ ابراز القضية الفلسطينية كقضية شعب يسعى الى تحرير أرضه وليس كقضية لاجئين •

٣ ـ تدريب عرب فلسطين وتحويلهم ، عن طريق ممارسة القتال ، من لاجئين الى شعب من المقاتلين •

٤ ـ استنزاف مستمر لقوى العدو عن طريق الضغوط التي تفرضها عليه •

٥ ـ تخريب ما أمكن من المنشآت الاقتصادية والعسكرية وخطوط المواصلات والامكانات السياحية ، الخ • في الارض المحتلة •

٦ ـ استقطاب الجماهير وتركيز حماستها بشكل مستمر على قضية تحرير فلسطين •

٧ ـ توليد ضغوط مستمرة على النظم العربية « الثورية » تفرض عليها حشد جميع الامكانات الممكنة والتوجه المستمر نحو الغاية النهائية : تحرير فلسطين •

٨ ـ العمل على تثوير الاوضاع العربية عن طريق استقطاب الجماهير ، والعمل ما أمكن على تحرير الطاقات والامكانات العربية ، وخصوصا البترول العربي وتوحيدها في دولة واحدة ، فالطريق النهائي لتحرير فلسطين بشكل تام هو طريق غير مباشر ، يمر بالاقطار العربية ويحررها بشكل خاص من النظم الرجعية ، ومن كل نظام « ثوري » كان أم غير ثوري ، لايركز جهوده الرئيسية في هذه المعركة •• البترول هو أحد أسلحتنا الاولى والرئيسية في هذه المعركة ، وتحريره واستخدامه في هذه المعركة شرط أساسي ، ان نحن فهمنا ان المعركة تعني تحرير فلسطين كلها وارجاع شعبها العربي اليها •

هنا يمكن ان نحدد دورا خاصا يمكن ان يحول المقاومة ـ في أوضاعها الخاصة التي تفرض عليها خطا استراتيجيا خاصا ـ الى حرب شعبية من نوع

خاص ، تقوم في تثوير الجماهير واستقطابها في اقطار عربية اخرى ، ودفعها الى الثورة على النظم القائمة ، واقامة نظم ثورية جديدة يكون قصيدها الاول والاخير حشد جميع الامكانات الاقتصادية والبشرية ، عسكرتها وتسخيرها لمعركة التحرير ٠

ان ثورة ٢٣ يوليو تقوم بواجبها في الجبهة الغربية ، تحمي هذه الجبهة ، وهي تعمل جاهدة على حشد امكانات مصر والطاقات الشعبية في خدمة المعركة٠ لذلك يجب على المقاومة ان تعمل اولا في الجبهة الشرقية التي تحيط بالارض المحتلة فتحرر اقطارها من النظم القائمة وتمتد امتداد هذه الارض حتى الخليج العربي ، فتحاول ان تدمر الاوضاع والنظم السائدة بغية حشد طاقات الشعب والارض في معركة التحرير ٠ هذا الامتداد الثوري يسخر لها مجالا تستخدم فيه جميع امكاناتها ، والطريق الذي تستطيع فيه ان تجابه سلبيات واقع الارض المحتلة ٠ فالمقاومة يجب ان تكون مصدر تفجير للطاقات الثورية في الاقطار العربية الاخرى وليس في المخيمات فقط ٠ فالعمل الثوري في هذه الاقطار وخصوصا الاقطار البترولية ، وتلك التي تحيط مباشرة بالارض المحتلة من الشرق هو طريق تحرير فلسطين الاساسي ٠

٭ في ضوء ما ذكرت كيف تنظر الى الاطار الفلسطيني للمقاومة ؟٠٠

المقاومة تعتمد اساسيا ونهائيا على الاطار العربي القومي الثوري ، وديالكتيك ممارستها يدفعها الى استراتيجية وحدوية قومية ثورية ٠ لذلك يجب ان يجاري الاعلان عن الاطار الفلسطيني للمقاومة تأكيد مستمر ، بل تقديم مستمر للاطار العربي الذي يحيط به ، يغذيه ويقوم قاعدة له ٠ العمل الفدائي لا يقوم في اطار فلسطيني فقط ، بل أولا وبالدرجة الاولى في اطار عربي يرتبط مصيره به ، وهو لو جرد من هذا الاطار لما استطاع ان يعيش ٠ الاطار الفلسطيني يعني فقط توزيع مهمات الكفاح المسلح ٠ العربي الفلسطيني يتقدم كطليعة لانه كان الضحية الاولى وفي الخط الاول ، تأكيد الاطار الفلسطيني على حساب الاطار العربي القومي أو تقديمه عليه يعني في الواقع تجميد امكاناته والحد من قدرته على تفجير الطاقات الثورية العربية التي يحتاج اليها في انجاز مقاصده ٠ فالمقاومة الفلسطينية جزء لا يتجزأ من الحركة القومية العربية الثورية ، ويجب أن تمارس المهمات والواجبات والمسؤوليات والمقاصد نفسها وأي خط استراتيجي تتبعه يجب أن يكون جزءا من خط استراتيجي عربي قومي ثوري عام ٠

ان قضية فلسطين هي قضية كل عربي ،ولذلك لا يجوز القول بفصلها ٠ باستقلالها ٠ أو بأن حق تقرير مصيرها هو لعرب فلسطين وحدهم ٠ لا شك ان اعتماد عرب فلسطين على الاطار العربي لم يؤد حتى الان الى النتيجة التي نتوخاها ، ولكن هذا لا يعني انه لن يؤدي ابدا الى هذه النتيجة ، ثم ان

الاطار العربي كما يتمثل حاليا في مصر لا يزال الاطار الذي يحمل ثقل المعركة مع اسرائيل ·

والمقاومة عندما تطرح نفسها في هذا الصعيد ، تعلن في وقت واحد عن اطارها الفلسطيني · ولكنها من ناحية أخرى ترتبط كلها بالنظم العربية التي تتهمها ــ وبحق ــ بتقصيرها ، وبعجزها أو بخيانتها في حزيران · من متناقضات هذا الموقف ان اكثريتها الساحقة ترتبط بنظم لا تصنع شيئا يذكر في سبيل المعركة ، او تخون هذه المعركة ، وليس بثورة ٢٣ يوليو التي تحمل عبء المعركة كلها ·

الارتباط كان يجب ان يكون بهذه الاخيرة وليس بغيرها ، ليس فقط لانها تحمل ، على نقيض تلك النظم التي لا تصنع شيئا مهما في سبيل المعركة ، ثقل المعركة ، بل لانها كانت ولا تزال الثورة الرائدة عندنا ، ولانها في مصر ، ودون مصر تستحيل الدولة الواحدة ان تجمعنا كلنا من المحيط الى الخليج ، كما تستحيل ما درجنا على تسميته بدولة الطوق وهي الرد الحاسم الذي لا غنى عنه في تحرير فلسطين ، في التغلب على الامبريالية وفي التغلب على التخلف وفي دخول القرن العشرين ·

ان الوقت لم يفت بعد ، ولهذايجب على المقاومة الاتجاه هذه الوجهة ، فهي لا تستطيع ان تقدم نفسها بديلا عن مصر وثورتها ان لم تتجاوز متناقضاتها وتخلق لنا صعيدا ثوريا جديدا يتجاوزها ايديولوجيا وسياسيا واجتماعيا وعسكريا · ان الحركات الثورية الكبرى لا تدع نفسها تقع فريسة تخطيط استراتيجي موقت آني ، او موقف براغماتي ، بل تحدد موقفها من خلال نظرة شاملة الى التاريخ او الى الواقع الموضوعي الذي تحياه ، وامكانات ذلك التاريخ وهذا الواقع في المدى البعيد ·

من هذا نضطر الى الاستنتاج ان على المقاومة ان تنزع عنها اطارها الفلسطيني ، وتعتمد اطارا عربيا ، وان هذا الاطار يأخذ في الواقع اطار الارتباط بمصر الثورة كمنطلق ، فاطار الارتباط بمصر الثورة هو المنطلق وهو بداية الطريق التي يمكنها ان تحقق فعليا الاطار العربي ، فتكشف عن امكانات وطاقات هذا الاطار في خدمة معركة تحرير فلسطين ·

*** كيف ننظر الى علاقة المقاومة المسلحة بالجيوش العربية النظامية ؟·**

ــ الحوار الذي رافق ظهور المقاومة ، حول علاقتهابالجيوش النظامية ، وعلاقة الاثنين بتحرير فلسطين، كان في اكثر الاحيان حوارا ينمو نموا مجردا ، فالقضية ليست ايهما يجب ان يقوم بتحرير الارض المحتلة أو بممارسة المجابهة العسكرية ، الجيوش النظامية او المقاومة التي تتطور الى حرب شعبية ! طرح القضية بهذا الشكل هو طرح غير واقعي · فالمقاومة يجب أن لا تعني انها تطرح نفسها بديلا عن الجيوش النظامية ، أو أن تدعو الى اعتمادها وحدها دون هذه

الجيوش • ما يجب أن تعنيه هو أن تحرير الارض المحتلة او مقاومة الاحتلال أمران لا يتوفران حاليا عن طريق الجيوش النظامية وان مجابهة عسكرية ما مع العدو وممارسة العنف الثوري ضده وضد من يعثر المجابهة ، يشكلان ضرورة حتمية يجب ان تؤكدذاتها باستمرار ، ولذلك فهي تدعو الجماهير ، وكل عربي ثوري الى المشاركة فيها ، اما بشكل مباشر عن طريق حمل السلاح، واما بشكل غيرمباشر في حدود امكاناته وما يستطيعه في هذا الكفاح ، عندما تغيب الجيوش النظامية عن ساحة المعركة تفرض المقاومة الشعبية نفسها بشكل عفوي •

اما علاقة المقاومة بالجيوش النظامية في المستقبل ، فعلاقة يجب ان تترك لهذا المستقبل ، وأي خوض فيها الان هو موقف ميتافيزيقي ، لان هذه العلاقة ستحدد على ضوء الاوضاع التي تقوم في المستقبل ، او نوع المستقبل الذي تتحدد فيه هذه العلاقة ، وبما انه يستحيل الانباء بهذه الاوضاع ، لانها ستكون نتيجة لنوع التحول الذي يتخذه الواقع العربي الثوري ككل ، بما فيه المقاومة نفسها والجيوش النظامية والاطارات السياسية والقيادية والايديولوجية التي تعمل فيها ، والوضع الدولي الخ •• يصبح كل وقوف حالي محدد عندها وقوفا ميتافيزيقيا يعثر قضية المجابهة العسكرية مع العدو ، ويسيء الى ما تحتاج اليه من حشد للطاقات العربية المتوفرة في هذه المجابهة •

ولكن ما يمكن تأكيده حاليا ، ومن خلال الاوضاع القائمة ، وفي ضوء الامكانات التي يمكن لهذه الاوضاع ان تتكشف عنها هو ان الارض المكشوفة وصغر الرقعة وقلة عدد السكان •• الخ تجعل اية مجابهة واسعة مع العدو ، على طريقة ما يحدث في فيتنام مثلا تتخذ شكلا ما من اشكال الحرب التقليدية وليس الحرب ا لشعبية ، كما نعرفها على الاقل ، وذلك لان المقاومة لا تستطيع تحريك اعداد وافرة وكبيرة من المقاتلين ، على طريقة هذه الحرب ، أي عن طريق مفاجأة العدو ، التستر ، الضرب ، الاختفاء ، والمقدرة على تعيين مكان المعركة لصالح المقاومة •

هذا يعني مفهوما معينا للحرب الشعبية ، وهو ، ان ارادت المقاومة ان تتحول الى حرب من هذا النوع ، وجب عليها ان تمتد الى الاقطار العربية الاخرى (كيفية العمل على ذلك والوسائل التي يجب اعتمادها الخ •• موضوع لا يتسع المجال الى التطرق اليه هنا) ، تنزع الاطار الفلسطيني عنها ، وتتحول الى هذه الاقطار تعمل على تفجير طاقاتها الثورية في اطار ثوري كلي ، أي في اطار يعسكر المجتمع تماما بغية الكشف عن جميع امكانات وطاقات الشعب والارض ، تضبطها وتجندها كلها في سبيل المعركة ، ولكن النجاح في ذلك لا يلغي المشكلة الاساسية التي تفرضها اوضاع الارض المحتلة الجغرافية والبشرية ، أي ان تغيير الاوضاع في بعض الاقطار العربية وخصوصا الاقطار البترولية وتلك التي تحيط مباشرة بالارض المحتلة من الشرق ، لا يجعل الاوضاع مؤاتية ومناسبة اكثر ، لذلك كانت كل مجابهة على نطاق واسع

في الارض المحتلة ، أي المجابهة التي تستخدم وتحرك المئات والالوف من المقاتلين في حرب تعتمد المفاجأة والانسحاب ، الضرب ثم التخفي ، غير ممكنة.

يمكن القول ان الحرب الشعبية تعني أساسيا ، من حيث القصد تثوير الجماهير ، حشد جميع طاقاتها وامكاناتها وعسكرة حياتها وتكريس كل شيء فيها بمعركة التحرير . اما من حيث الكيفية ، أي كيفية الوصول الى هذا القصد ، فهي تعني خوض معركة استنزاف طويلة مع العدو ، قوامها مفاجأته في اوضاع تختارها زمانيا ومكانيا المقاومة ، ضربه ثم الانسحاب السريع في اوضاع تسمح بالتخفي .

الحرب الشعبية تتوفر للمقاومة من حيث القصد ، وذلك بغرض امتدادها الى الاقطار العربية الاخرى . اما من حيث الكيفية ، فانها لا تتوفر لها في الارض المحتلة ، وهذا يعني ان لا مفر لها من اعتماد شكل ما من اشكال الحرب التقليدية .

❋ **كيف تنظر اذن الى الموقف المنتشر حاليا بين بعض فصائل اليسار العربي ، والقائل بأن طريق التحرير هو طريق المقاومة الشعبية المسلحة وليس طريق الجيوش النظامية التي كشفت عن عجزها في حرب حزيران ؟ .**

ـ أقل ما يقال في هذا الموقف هو انه موقف غريب ، وخصوصا عندما يصدر عن مفكرين يزعمون انهم يفكرون تفكيرا علميا وديالكتيكيا . ذلك لان هذا التفكير هو في الواقع نقيض الفكر الديالكتيكي ، انه تفكير ميتافيزيقي لانه يعطي الاشياء ماهية ثابتة خالدة . فالجيوش العربية عجزت في حرب حزيران. فاذن العجز هو « طبيعتها » و « جوهرها » الثابت ، ولا يمكن لها ان تتجاوزه . هذا التفكير يعني بكلمة اخرى مفهوما ثابتا في الجيوش العربية يستثني علاقتها بالتاريخ . بالاوضاع التي تحيط بها ، بالهزيمة نفسها ، بتفاعلها مع التاريخ والاوضاع والهزيمة ، بامكانات التحول والنمو التي تكمن في هذا التفاعل ، الخ .. فان عجزت الجيوش العربية النظامية في حزيران ، ١٩٦٧ ، فذلك لا يعني انها ستعجز في حزيران عام ١٩٧٧ ، او حزيران عام ١٩٨٧ ، او حزيران ١٩٩٧ . الكلام على هذا العجز لا يجمد فقط الجيوش العربية في الحالة التي عرفتها في حزيران ، بل يجمد الاوضاع والتناقضات والصراعات الدولية ، والاميركية ، كما كانت في ذلك التاريخ ، ويتجاهل الاحتمالات المختلفة التي قد تتكشف عنها .

انني ، في سبيل التمثيل على ما اقول ، اذكرما يحدث في الجبهة الغربية على القنال ، فالقتال العنيف الذي يدور هناك ، والذي يقوم به جيش الجمهورية العربية المتحدة ضد العدو ، يدفع هذا الجيش في طريق تجاوز الوضع الذي كان يعانيه في حزيران ، وذلك عن طريق ممارسة القتال والحرب بشكل واسع وحاد .

كنت باستمرار انتقد الفكر العربي الثوري لانه في طابعه العام لا يزال فكرا ميتافيزيقيا ، وكيف ان هذا الطابع الميتافيزيقي يؤكد ذاته حتى عند الكثيرين من الذين يعلنون تنصلهم منه • هذا الموقف الذي اشرت اليه يوفر دليلا اخر على ذلك،فهو يعلن،ضمنيا على الاقل؛ اما الجيوش النظامية واما المقاومة الشعبية ، وهذه سمة الفكر الميتافيزيقي وليس الفكر السوسيولوجي او الديالكتيكي ، فعلاقة القوى الشعبية التي تعتمدها المقاومة بالجيوش النظامية هي علاقة مساندة وتعاون ، وليست علاقة تناقض وانفصام ، ذلك بارز في الحروب الشعبية التي نعرفها ، وفي طليعتها الحرب الحالية في فيتنام التي نعتبرها نموذجا للحرب الشعبية •

* هل تعتقد أن الحرب قدر مفروض على اسرائيل لكي تتمكن من البقاء ، كيف، ولماذا ؟••

— انني اعتقد ان الحرب قدر مفروض على اسرائيل ، وذلك لانها قامت على الحرب والتوسع ، لانها بالحرب والتوسع حفظت بقاءها حتى الان ، لانها بالحرب فقط تستطيع ان تحفظ بقاءها ، ولان الحرب هو طريقها في تحقيق دورها كاداة امبريالية : أي كأداة مهمتها ان تمنع العرب من الثورة الاجتماعية في اطار وحدوي او تحقيق الدولة الواحدة الثورة • والحرب قدر مفروض عليها لان الشعب العربي لن يقبل ابدا ببقائها في ارضه ، كما انه لن يسمح لاي نظام عربي بمصالحتها او القبول ببقائها • ثم ان الاوضاع الموضوعية التي تحيط بالشعب العربي ، والامكانات الهائلة التي تنطوي عليها هذه الاوضاع ستزيد من تصميمه على تحرير فلسطين •

* اذا كانت الحرب قدرا بالنسبة الى اسرائيل ، فهذا يعني انها كذلك قدر بالنسبة الى العرب •كيف تنظر من هذه الناحية الى المستقبل ؟••

— انني ، كما شرحت في كتاب « الفعالية الثورية في النكبة » ، وكتاب « من النكسة الى الثورة » ، متفائل جدا بالمستقبل واثق تماما ان هذا المستقبل لنا • فعناصر القوة الاساسية في هذا العصر هي الامكانات البشرية والاقتصادية والجغرافية ، وهي امكانات تتوفر بشكل كبير جدا لنا • ففي مقاييس هذا العصر لا يمكن لمجتمع ما ان يكون قويا ، ممتنع الجانب دون قدر هائل من هذه الامكانات • العناصر الاخرى وهي التكنولوجيا والعلم ، ونظام اجتماعي اقتصادي سياسي عصري تقدمي ، وتصور ايديولوجي حديث تتفرع منه عقلية حديثة ديناميكية ، فهي عناصر يمكن مع الوقت الحصول عليها وبسرعة ان توفر للمجتمع الذي لا تتوفر فيه حركة ثورية صحيحة • ولكن المجتمع الذي لا يملك تلك العناصر الاساسية لا يستطيع ابدا الحصول عليها ، وهو سيبقى ضعيفا في المدى البعيد ، لايستطيع مجابهة مجتمع اخر يمتلكها ، وكل ما يحتاج اليه هو الوقت كي يستغلها ويستخدمها •

* هل يمكنك على سبيل التمثيل ابراز مثل تاريخي على هذا المفهوم الذي قدمته ؟.

ـ هناك امثلة عديدة . خذ مثلا واقع الصين في القرن التاسع عشر او حتى في بداية القرن العشرين ، وواقعها اليوم بعد ان توفر لها نظام ثوري استطاع ان يستخدم ويكشف عن امكاناتها وطاقاتها الهائلة . فاللكسمبورغ نفسها مثلا كانت تستطيع ان ارادت في الماضي ان تتجه الى الصين ، تسلخ منها منطقة ما ، تحتلها وتبقى فيها رغم أنف الصين ، ذلك كان ممكنا لان اللكسمبورغ تملك أسباب القوة العرضية ، أي ما يمكن الحصول عليه مع الوقت ان لم يكن متوفرا ، وهي اسباب لم تكن تتوفر للصين .

هذا ما حدث فعلا للصين ، اذ كانت فريسة سهلة للدول الاوروبية التي كانت تمتلك هذه الاسباب ، ولكن الصين كانت تمتلك الاسباب الاساسية للقوة ، وهي امكانات بشرية وجغرافية واقتصادية هائلة ، وهي عندما ابتدأت باستخدامها ، انتهى عهد التدخل ، فلم يعد حاليا باستطاعة اية دولة على وجه الارض ان تتدخل في شؤونها أو أن تفرض ارادتها عليها ، وفي المستقبل يمكن الصين ـ بسبب هذه الامكانات وبوجود نظام ثوري قادر على استخدامها بفاعلية ـ ان تكون اقوى دولة في العالم .

ان قوة اسرائيل عرضية ، لانها تتفرع منضعف العرب ، ولكن ضعفنا ضعف عرضي ، ومع الوقت سنتغلب عليه ، وهـذا يعني الكشف عن ضعفها .

* هل يمكن ، في رأيك ، تثوير المقاومة في اتجاه اكثر جذرية مما هي عليه الآن ، وكيف ؟.

ـ تثوير المقاومة في اتجاه اكثر جذرية ممكن ، وكي يتحقق يجب عليها تجاوز متناقضاتها ، واعتماد تصور ايديولوجي ثوري تتجاوز فيه هذه المتناقضات ، واعتبار ذاتها اولا وبشكل اساسي جزءا من الحركة العربية القومية الثورية .

أما كيفية الوصول الى تحقيق هذا ، فلا ترتبط بارادة ذاتية ووعي ثوري لضرورته ، اذ يجب الى جانب ذلك ، قيام اوضاع تساعد وتدفع اليه ، أما هذه الاوضاع التي يمكن لها أن تدفع الى ذلك ، فهي :

١ ـ اشتداد حدة المجابهة العسكرية بينها وبين اسرائيل . فقيام أوضاع توسع من حدة هذه المجابهة ، تفرض على المقاومة الاندفاع في هذا السبيل .

٢ ـ اشتداد حدة التناقض بينها وبين النظم العربية أو بعضها ، الذي يدفع ، هو الاخر ، في الاتجاه نفسه . ان محاولات المقاومة في تحقيق وحدة ما بين منظماتها المختلفة ، كانت ، كما نعلم ، اثر ازمات جابهتها بشكل خاص مع بعض النظم العربية .

٣ ــ امتداد اسرائيل واحتلالها للاردن وقسم من لبنان وقسم اخـــر من سوريـا ٠

٤ ــ القبول بحل سلمي يعترف بوجود اسرائيل ، حتى وان كان هـذا القبول ــ وهذا بعيد الاحتمال جدا ان لم يكن مستحيلا ــ يرتبط بانسحاب اسرائيل انسحابا تاما من الارض المحتلة في حزيران وبتنفيذ قرارات هيئة الامم المتحدة فيما يتعلق بعرب فلسطين ، ان امرا كهذا يخلق فراغا هائـلا بالنسبة للشعب العربي الذي لن يقبل ابدا بشرعية وجود اسرائيل وتكـون المقاومة المرشح الوحيد لسد هذا الفراغ ، مما يفرض عليها تثوير ذاتها كي يمكنها ان تقوم بالدور الجديد ٠

٥ ــ ازدياد درجة وحدة ما يمكن تسميته بالتذرر الاجتماعي ، أي فقدان العربي علاقته العضوية مع التراكيب الاجتماعية والعقائدية التقليدية ، مـن عائلية وطائفية ، ودينية ، ومحلية ، وقطرية ، الخ ٠٠ مما يزيد من عزلته ، يخرجه من الوجود العربي القائم فيصبح غريبا فيه ويزداد شعوره بهـذه الغربة ٠ هذا يدفعه دفعا الى وحدات جديدة يقترن بها ويحاول تحقيق وحدته مع الحياة والاخرين عن طريقها وبشكل يوفر اوضاعـا يستطيع فيهاتجاوز ذاته ٠ هذايعني الاندفاع نحو المقاومة وتثويرها بشكل يستطيع التعبير عـن شعوره ومعالجة هذا الشعور بالخروج من الوضع القائم والغربة فيه ٠

﴿ هل تعتقد أن الدين يمكن أن يكون ، في الوضع العربي الراهن ، وسيلـة ثورية لمكافحة الصهيونية ؟ الن يؤدي استخدامه كوسيلة الى اثارة الطرف الاخر دينيا ، بحيث تأخذ الحرب العربية ــ الامبريالية طابعا دينيا يفقدها معناها الثوري ؟٠٠ كيف تنظر الى هذه المسألة ؟٠٠

ــ الدين لا يمكن له أن يكون وسيلة ثورية لمكافحة الصهيونيـة ، ليـس لانه يثير الطرف الاخر في الاتجاه نفسه ، بل لانـــه خسر القدرة على تفجير الطاقات والامكانات العربية ، حشدها وتوجيهها نحو معركة التحرير ٠ امـا تفسير هذا الواقع فامر يتطلب دراسات كبيرة لانه اساسيا يتعلق بدراسـة حركة التاريخ والحضارات نفسها ٠ انني لا اقول هذا تبشيرا أي كأمـر يجب ان يكون ، بل كاعتراف أو تنبيه الى واقع موجود ٠ فمكافحة الصهيونية تحدث فعلاباسم مواقف ايديولوجية غير دينية ٠ ثم ان كل الانتصارات التي سجلتها الحركة الثورية العربية كانت مثلا باسم القومية العربية والثورة الاجتماعية ، كما أن جميع الحركات والنظم والتجمعات التي عملت باسم الدين كانت فاشلة في تسجيل أي انتصار ، كما انها كانت عادة حليفة الاستعمار متآمرة معه ٠

﴿ هل تعتبر أن المجتمع العربي ككل لم يدخل بعد مرحلة التذرر التي تدفـع للقيام بالثورة ؟٠٠ وهل عوامل الوصول الى هذه المرحلة خارجية ، أم انها يمكن ان تكون داخلية كذلك ، وكيف ، وما هي عناصرها ؟

ـ المجتمع العربي لم يدخل بعد بمقدار يذكر ، مرحلة هذا التذرر ، لان العربي ، ما عدا قسم من المثقفين ، لا يزال يعيش في اطـــار وحدات اجتماعية وعقائدية تقليدية ويعطي هذه الوحدات ولاءه ٠

اما عوامل هذا التذرر العام ، فيمكن ان تكون من نوع خارجي او مـــن نوع داخلي ، فعندماتكون خارجية ، فهي تتفرع عادة عـن غزو او احتـــلال خارجي واسع النطاق او حرب ضد غزو من هذا النوع ٠ من أحسن الامثلة التي يمكن أن أسوقها في التمثيل على هذا نجد وضع روسيا الذي نتج عن الحرب العالمية الاولى ، وغزو اليابان للصين ، ففي كلا الحالين نتجت درجة حادة من التذرر كانت السبب الاساسي الدافع الى قيام ثورة جذرية شاملة ، اما عندما تكون داخلية ، فانها تنتج عادة عن تحولات في طريق التجارة ، او عن تحولات صناعية وتكنولوجية ٠ انأقربالامثلة اليناواهمها يوجد طبعا فيالثورة الصناعية التي خلقت درجة من التذرر لم يسبق لها مثيل في التاريخ ، فكانت اكبر عامل تفجير للثورات في العصر الحديث ٠

*** تهمل بعض فصائل اليسار العربي أهمية الوعي الايديولوجي وترى أن تغيير البنية التحتية الاقتصادية ، بخاصة ، كفيل بحل مسألة الوعي ٠ ما هو رأيك في هـــذا الصدد ؟٠**

ـ اولا ، وقبل كل شيء ، أريد أن أنبه الى أن العلاقة بين الاثنين هـي علاقة ديالكتيكية ، أي علاقة يتأثر فيها الواحد بالاخر ، فلا يحدد احدهما الاخر بشكل ميكانيكي ، والى ان المشكلة الفكرية العلمية في هذه العلاقة هي تحديد الاوضاع التي يمكن لاحدهما ان يلعب فيها الدور الاساسي ، والى أي حد ٠

ثانيا ، ان أية نظرة فاحصة موضوعية للتاريخ تكشف عـــن خطل هذا الموقف فهناك بنيات تحتية متماثلة ولكن تعبر عن ذاتها باشكال قومية ، مـــن الوعـــي ، مختلفة ، أقرب الامثلة الينا هو ما يحدث في العالم الشيوعي ، فعلى الرغم من تحتية اقتصادية متماثلة ، فان الوعي اتخذ اشكالا متناقضة ، وفي بعض الاحيان حاد التناقض ، كما حدث فعلا بين يوغوسلافيا وروسيا ، وكما حدث اخيرا بين الاخيرة والصين من ناحية ، وبينها وبين تشيكوسلوفاكيا ، من ناحية اخرى ٠ ثم ان التاريخ يفيض بالامثلة التي تدل على تغيير جذري في أشكال الوعي دون تغيير في التحتية الاقتصادية ٠٠ أكتفي هنا ، كاقـــرب الامثلة الينا ٠٠ بالرجوع الى تاريخنا ، فظهور الاسلام غير تصور العربـــي للعالم وعلاقته به ، وخلق وعيا جديـــدا للحياة ، ولكـــن دون تغيير فـــي التحتية الاقتصادية ٠

ثالثا ، ان اعظم الماركسيين ، ابتداء من ماركس وانجلز ، الى تروتسكي ولينين ، الى ماوتسي تونغ ، الى كاسترو وتشي غيفارا ، الخ ، أكدوا على أهمية العامل الايديولوجي ، أي على دور الوعي ٠

رابعا ، في جميع الانقلابات الكبرى نرى ان الحافز الاول للصراع والتضحية ونكران الذات وتجاوزها سعيا وراء التحول الثوري ، أي قوة الدفع الاساسية في تحقيق هذا التحول ، لا تتفرع من مفهوم صرف لتوزيع جديد للثروة ، أي لتغيير محض للتنمية الاقتصادية ، بل من صورة انسان أو مجتمع جديد تتفرع بدورها من فلسفة حياة جديدة في الانسان والتاريخ والحياة ٠

خامسا ، الاستثمار الاقتصادي والطبقي هو نفسه مفهوم ايديولوجي ، أي ان هذا الاستثمار يبرز عندما يتوفر عنصر ايديولوجي يخلق الوعي له كاستثمار ٠٠ استثمار « المنبوذين » في الهند مثلا كان دائما موجودا وبشكل قاس قل مثله في التاريخ ٠ ولكن هؤلاء كانوا راضخين له ، راضين به ، الى ان حدثت ظروف واوضاع جديدة ، ايديولوجية وسياسية ، خلقت وعيا له كاستثمار ٠ ثم ان التجربة التاريخية تدل بوضوح على ان الاستثمار لا يثير فقط ضحاياه ، بل من يعيه كاستثمار ، وان كان بعيدا عنه ، أي بكلمة أخرى ، ان رؤية الاستثمار قد تحفز على الثورة ضد النظام الاقتصادي الطبقي القائم كتحفيز الاستثمار لضحاياه ٠ أقرب الامثلة لنا هو ما نشاهده حاليا في الولايات المتحدة ٠ فالحركة الراديكالية الجديدة في الاوساط الجامعية تجد عمادها بين طلاب هم من ابناء الطبقة الوسطى العليا المترفة ، أي الطبقة التي تشارك بالاستثمار ٠

سادسا ، يمكن القول من ناحية عامة ، انه بعد حدوث درجة معينة من التحول في البنية التحتية ، يكون أهمه حدوث درجة كبيرة من التذرر الاجتماعي أو الايديولوجي . في المجتمع التقليدي ، يلعب العامل الايديولوجي ، أي الوعي ، الدور الاول ، وذلك لان الحركة الثورية تحتاج الى هذا العامل في تحديد هذا التحول ، في اعطائه معنى ، في تفسيره ، وفي ضبطه وتوجيهه ٠

✻ لماذا اذن في رأيك تهمل هذه الفصائل من اليسار أهمية الوعي أو العامل الايديولوجي ؟٠

ــ من اهم اسباب هذا الاهمال ما يلي :

١ ــ ان الاعتراف بدور العنصر الايديولوجي يعني ممارسة أداة هذا العنصر ، أي الوعي الفكري لتجارب التاريخ والاجتماع ، واستقصائها والتدقيق فيها بأكبر درجة ممكنة من الدقة العلمية والتجرد الموضوعي ، مما يعني جهدا فكريا يتركز عليه نشاط الفرد عبر سنوات عديدة طويلة ودون توقف قبل ان يتمكن من بلوغ حد ادنى من النضوج الفكري الضروري ، هذا امر لا يتوفر لكل من يشغل نفسه بالشؤون الفكرية للحركة الثورية ٠ ويقتصر على عدد محدود جدا ، لذلك فان الفكر يرتاح من العناء والجهد بالركون الى شعارات ومفاهيم شعائرية ترددها بشكل بسيط مبسط ودون أي رجوع

للتحليل الاجتماعي التاريخي • فعندما يغيب الجهـد الفكري الطويل ، يحل الارتباط بمواقف تبشيرية محل التنظير العلمي الموضوعي • الدليل على ذلك ان هؤلاء الذين يطرحون هذا المفهوم الاقتصادي « الميكانيكي » يقدمونه كشعار أو موقف ديني ، أي دون التحليل الاجتماعي التاريخي الموضوعي العلمي الذي يجب ان يرافقه •

٢ ـ الذين يتبنون مفهوما ايديولوجيا ثوريا جديدا لا يصلون اليه عادة عن طريق دراسة موضوعية لهذا المفهوم ، أي للكتب التي تقدمها ، يقتنعون به ثم يتبنونه ، بل هم يتبنون أقرب مفهوم ايديولوجي متوفر فـي التعبير عن المشاعر والمصالـح التي يريدون صوتا او تبريرا فكريا لها ، بكلمة أخرى ، هناك مراحل ثورية تحدث في حركة التاريخ والاجتماع ، وتكشف عن مصالح ومشاعر جديدة ، وهذه المصالح والمشاعر تتبنى أكثر المفاهيم الايديولوجيـة انسجاما معها ، لذلك يبسط المفهوم الايديولوجي ويحول الى شعارات وفكر شعائري ، لان القصد الاساسي هو التوفق الى تبرير وليس الادراك الموضوعي للتاريـخ •

٣ ـ المفهوم الايديولوجي الانقلابي يظهر عادة في مرحلة انتقالية يتفتت فيها المفهوم الايديولوجي التقليدي ويعجز عن ضبط علاقة الفرد بالحياة والتاريخ• الذين يتبنون المفهوم الجديد يحتاجون اساسيا الى مفهوم اخر يحدد لهم هذه العلاقة من جديد • هذا يعني أيضا تبسيط المفهوم الايديولوجي وتحويله الى شعارات وفكر شعائري لان القصد الاساسي هو تلبية هذه الحاجة النفسية وليس الوعي الموضوعي للتاريخ وحركته ، في تبسيط المفهوم الجديد وتحويله الى شعارات يجد الفرد حاجته فيستقر نفسيا فيه •

٤ ـ الاعتراف بدور العامل الايديولوجي يعني عملا مباشرا ضده عندما تأخذ التحتية الاقتصادية بالتحول • هذا يعني ، وخصوصا في مجتمع تقليدي كالمجتمع العربي مخاصمة مباشرة للدين ودعوة صريحة الى تحرير العقـل والمجتمع منه • لان الدين يتسرب عميقا الى جميع ابعادهما ، وهذا أمر فيه مـا فيه من المخاطر السياسية والمادية التي تمتد من الوظيفة الى الحياة نفسها •

كثيرون من المفكرين الماركسيين رأوا ان النقد الاساسي في الماركسية هو النقد الديني • ولذلك فان تفسير موقف هذه الفصائل يجب أن يجـد تفسيره في اسباب اخرى ،وليس في موقف ماركسي •

* لقد ذكرت انه لا يمكن ادراك التناقض او الخصام القائم بين الصين وروسيا حاليا دون الرجوع الى العامل الايديولوجي ، فماذا تعني بالضبط بهذا القول ؟•

ـ ما أعنيه هو ان هناك وراء هذا التناقض السياسي تناقضا في الصعيد الايديولوجي ، على الرغم من تفرع الثورتين ، في روسيا والصين ، من تصور ايديولوجي واحد هو الماركسية ، هذا التناقض يعود الى اختلاف أساسي فـي

الطور الذي يعيشه هذا التصور في الاتحاد السوفياتي والصين ٠ ففي الثانية لا يزال هذا التصور يعيش في طوره الديناميكي ، أي الطور الذي لا يزال فيه يخلق الانظمة ويجري التحولات والمنجزات التي تخلق مجتمعا جديدا على صورته ، بينما هو في الاتحاد السوفياتي قد تجاوز هذا الطور ، ودخل ما يمكن تسميته بالطور الاستقراري ، أي الطور الذي يخسر فيه ديناميكيته لانه خلق الانظمة واجرى التحولات والمنجزات التي تحمله في الحياة ٠ عندمايتم ذلك يخلق التصور الايديولوجي نفسية تريد ان تستمتع بالحياة وتقطف ثمار الجهود والتضحيات الطويلة السابقة ٠ وهذا ما نشاهده حاليا في روسيا ٠ أما في الصين فالامر على غير ذلك ، فهناك لا يزال هذا التصور يحاول أن يخلق العالم على صورته ، ولذلك فهو لا يريد الاستمتاع بالحياة والحاضر ، بل أن يعيش الحياة تقشفا وتضحية في سبيل المستقبل ، سبب هذا التناقض هو فرق ثلاثين عاما بين انتصار الثورة في روسيا وانتصارها في الصين ٠

هناك عامل ثان في الصين قد يضاف الى اطالة الطور الديناميكي لم يكن موجودا في الاتحاد السوفياتي وهو عدد السكان وزيادته زيادة كبيرة ، مما يؤكد ضغطا ديمغرافيا داخليا يزيد من قوة الدفع لهذا الطور ٠ ثم هناك عامل ثالث قد يساعد ايضا في اطالة هذا الطور بشكل لم يتحقق للاتحاد السوفياتي ، وهو ان الحصار الذي ضربه الغرب الامبريالي لا يزال قائما وهو اطول من الحصار الذي ضربه حول الاتحاد السوفياتي ٠

هذا لا يعني ان العامل الايديولوجي هو العامل الوحيد المسؤول عن هذا التناقض ٠ فهناك عوامل اخرى اذكر منها مثلا العامل القومي ٠

✻ هذا التناقض في العامل الايديولوجي بين الاتحاد السوفياتي والصين ، ما هي أهميته أو مضاعفاته بالنسبة لنا ، وبشكل أدق بالنسبة الى علاقتنا بها ؟ ٠

ـ انه يعني ان اوضاعنا تفرض علينا الاتجاه تدريجيا نحو الصين ، وهذا ينطبق بشكل خاص على المقاومة ، وذلك لان الطور الديناميكي الذي لا تزال الصين فيه يجعلها اقرب الى دعم صراعنا الثوري في جميع ابعاده ٠ أما الاتحاد السوفياتي وذلك بسبب الطور الايديولوجي الاستقراري الذي دخله ، فسوف يجد نفسه يزداد بعدا ، مع الوقت ، عن الدعم الضروري للحركات الثورية ٠ هذا الاتجاه قد يدفعه ليس فقط ، كما هو الوضع حاليا ، الى سياسة تعايش سلمي لها تسوياتها الخاصة على حساب الحركات الثورية ، بل الى تحالف مع الولايات المتحدة نفسها في مستقبل غير بعيد ، وقد يكون هذا التحالف موجها ضد الصين بشكل خاص ، ان هذا التحالف قد بدأ ضمنيا في الواقع والى حد أصبح فيه ملموسا في موقف الاتحاد السوفياتي من موقف الثورات في العالم الثالث ٠

✻ ألا ترى أن الماركسية لدى المفكرين العرب تدنت الى مستوى الحياة الثقافية

العربية ، اي انها أصبحت ماركسية متخلفة ، ان صح التعبير ، فكأنهم يتركون « دينا » لكي يدخلوا في دين جديد ، اي انهم يستمرون في جمود وانغلاق • لماذا تعزو هذه الظاهرة، وكيف تفسرها؟•

– انني اوافقك كل الموافقة في تقييمك للماركسية عندنا ، وهذا واضح فيما قلته سابقا • أما الاسباب التي يعود اليها ذلك فعديدة لا يمكن هنا الخوض فيها • ان ما اوردته في الاجابة عن سؤال سابق يعطي بعض هذه الاسباب ، لذلك أرجع من يريد جوابا شاملا حول هذه الناحية الى كتاب « الايديولوجية الانقلابية » ، وبشكل خاص الى فصول قسم « المضمون الديني في الايديولوجية الانقلابية » ، وفصول قسم « المضمون الكلي في الايديولوجية الانقلابية » ، الى فصل « الايديولوجية الانقلابية بين الفلسفة الاجتماعية واللاهوت » ، والى فصل « دور الشعارات والرموز في الايديولوجية الانقلابية » •

هنا أود فقط أن أشير الى أن هذه الظاهرة ، أي تحول الايديولوجية مهما أكدت على العقل والموضوعية والعلمية ، الى « دين »، هي ظاهرة حتمية ، و تمثل احد القوانين العامة التي تفرض ذاتها على جميع التجارب الايديولوجية •

* الحاحك على أهمية العامل الايديولوجي البارز في كتاباتك المختلفة يؤكد اهمية الثورة الثقافية العربية ، كيف تفهم هذه الثورة ، وكيف تحدد ملامحها ؟

– يستحيل في مكان كهذا اعطاء أية اجابة واضحة عن هذا السؤال ولذلك اقتصر على تعيين ما يلوح لي كمدار لهذه الثورة وملامحها • ان الثقافة العربية في مجملها وككل ، تجد قاعدتها ووحدتها في فلسفة حياة غيبية تحدد مباشرة او مداورة عناصرها ، وهي بذلك تبلور الذات العربية التقليدية في اطارات نفسية عقلية غيبية • الثورة الثقافية هي قبل كل شيء تحرير العربي من فلسفة الحياة الغيبية تلك ، واستبدالها بتصور ايديولوجي انقلابي يحدد من جديد طبيعة التاريخ والحياة ، الانسان العربي وعلاقته مع التاريخ والحياة والمجتمع ،هذا لا يعني ابدا نقض تراثنا الثقافي والغاءه ، كما قد يتراءى للبعض بل تحرير عناصر هذا التراث ، تأكيد تلك التي تنسجم مع التصور الايديولوجي الجديد ، واهمال تلك التي لا تنسجم معه ، على الاقل ، كعناصر نرجع اليها ونستخدمها قوة ونشاطا في بناء مستقبلنا الجديد •

* قلت ان الحركة العمالية الاميركية تقف في صف الرجعية ، وان الحركات التقدمية تكاد تنحصر في الحركات الطلابية ، وتلك ظاهرة لها أهميتها في الفكر الماركسي تدفعنا الى أن نطرح سؤالا هو ان البورجوازية الاميركية تنازلت عن الكثير من الارباح لصالح العمال لتربطهم بها ، من جهة ، وتمزق حركتهم من جهة ثانية ، وهذا يوجب على الفكر التقدمي في اميركا ان يطرح ابعادا ثورية جديدة لتغيير البنية الاجتماعية الاميركية • فما هي في رأيك هذه الابعاد خصوصا ان الطلاب لا يشكلون منطلقا طبقيا قادرا على ايجاد هذه البنية الجديدة ؟•

ـ ان الابعاد التي يمكنني أن افكر فيها حاليا هي مقاومة التفرقة العنصرية وتحقيق المساواة الاجتماعية والسياسية التامة بين البيض والزنوج، وهذا ما يصنعه فعلا الفكر التقدمي الاميركي حاليا في جميع فئاته ، انني أؤكد على هذه الناحية لانه من الممكن اجهاض أية حركة لاجراء تحول جذري في البيئة الاجتماعية بالرجوع الى التفرقة العنصرية واستغلالها بين البيض والزنوج مما يحول دون تضامن الطرفين في مقاصد واحدة • ولكن هنا يجب التنبيه الى أن المجتمع الاميركي الذيلم يتحول فيوجهة «ماركسية» حتى الان ،بل كان تطوره خارج هذه الوجهة ، لا ينتظر على الاقل في مستقبل معقول من ناحية علمية ان تحدث فيه اوضاع داخلية تبرهن على هذه الوجهة او حركة راديكالية تستطيع احداث ثورة اجتماعية باسم هذه الوجهة •

أما البعد الثاني الذي يمكن طرحه فهو مقاومة السياسة الخارجية ونوعية الشعب حول مقاصدها ومراميها وكيف انها تقف مع النظم الرجعية ضد الحركات الشعبية في العالم الثالث ، وهذا أيضا يقوم فيه ، في الواقع ، الفكر التقدمي هناك وخصوصا الفكر الجامعي •

*** ما هي أهم النتائج التي تتوقعها لحركة الطلاب في الولايات المتحدة وخاصة التي تدعو الى العنف ؟•**

ـ هناك احتمال قوي بأن هذه الحركة سوف تدفع بطريقة غير مباشرة الى قيام نظام فاشستي متطرف الفاشستية ، وذلك للاسباب التالية :

١ ـ ان الجماهير الاميركية وفي طليعتها العمال تمثل قوى رجعية ، واالعمال بشكل خاص قد يمثلون ، ليس في الولايات المتحدة فقط ، بل في العالم ، اكبر قوة رجعية منظمة • هذه الظاهرة لا تقتصر في الواقع على الولايات المتحدة فقط ، بل تعيد ذاتها الى حد ما في معظم البلدان الغربية ، أقرب الامثلة الينا نجدها في الانتخابات البريطانية الاخيرة حيث لاقى موقف بــاول E. Powell الرجعي صدى ايجابيا قويا جدا في اوساط العمال كان أحد اسباب انتصار المحافظين •

٢ ـ العمال الاميركيون هم من اقل عمال العالم ثقافة سياسية أو وعيا فكريا •

٣ ـ حركة الطلاب الراديكالية معزولة عن الجماهير دون قاعدة شعبية ، ودون قاعدة شعبية تستحيل الثورة الاجتماعية •

٤ ـ تقليد العنف في الحياة الاميركية ، تاريخيا وحاليا ، فالضعف واعتماد العنف كانا ولا يزالان جزءا أساسيا لا يتجزأ من هذه الحياة ،يسودها في كثير من مستوياتها •

أما العامل المباشر الذي يمكن ان يوجه هذه الاوضاع وجهة فاشستية فهو

حدوث ازمة اقتصادية كبيرة للنظام ، ولكن بشكل خاص حدوث هزيمة أو أكثر للسياسة الاميركية الخارجية • فان خرجت الولايات المتحدة من فيتنام مثلا بشكل يعلن عن هزيمة واضحة ، او ان قامت كوبا أخرى أو اكثر في اميركا الوسطى ، فمن المحتمل جدا انيؤدي ذلك الى قيام هذا النظام الفاشستي ، أما السبب فبسيط ، وهو انه في حالة كهذه ، فان الجماهير ، وذلك بسبب الاوضاع التي ذكرتها ، لن تفتش عن سبب الفشل أو الهزيمة في النظام الاميركي ، بل في « كبش محرقة » ، أي في فئات تتآمرعليه ، أي كنتيجة مؤامرة ، وليس نتيجة عطل أساسي فيه ، هذه الظاهرة ، أو « نفسية كبش المحرقة » لا تقتصر على الولايات المتحدة ، بل في ظاهرة تعيد ذاتها في مختلف المجتمعات في أوضاع مماثلة •

تباشير هذا الاتجاه ابتدأت في الواقع تبرز وتؤكد ذاتها يوميا في الولايات المتحدة ، فالراضون عن النظام الاميركي القائم يعيدون كل انحراف عنه أو نقد له ، كل فشل فيه وكل شيء لا يعجبهم الى مؤامرة شيوعية ، كمثل واضح على ذلك أذكر ان هؤلاء يفسرون مثلا انتشار المخدرات بين الشباب كتدبير من تدابير هذه المؤامرة تحاول فيه افساد المجتمع الاميركي بغية اضعافه ، أما الشيوعي فهو طبعا كل من ينحرف عن النظام ، يناقضه ، او ينتقده بأي شكل •

* كيف تنظر الى مستقبل الحركة الثورية العربية ؟••

ــ انني هنا اريد لاهمية الموضوع المصيرية والقصوى ، أن اقتصر على ناحية واحدة من نواحي هذا المستقبل ، وهي التأكيد من جديد على القول بأن هذا المستقبل يرتبط ارتباطا مصيريا بقيام الدولة العربية الواحدة التي تجمعنا من المحيط الى الخليج ، فنوع هذا المستقبل ، نوع المجتمع الذي يمكننا انشاؤه ونوع الانسان العربي ذاته ، امور ترتبط بهذه الدولة ، فهي كما قلت سابقا الرد الثوري الصحيح على الامبريالية ، وهي أداة تحرير فلسطين تحريرا تاما ، وهي مفتاح التغلب على التخلف ، وهي طريقنا الى القرن العشرين والعصر الحديث ، ولكن طريق الدولة الواحدة يمر بمصر ، ومصر تشكل المدخل اليها ، ومن دون مصر تستحيل هذه الدولة ، وبالتالي تلك المقاصد الثورية ، لذلك وجب الارتباط بمصر قاعدة للعمل الوحدوي ، اننا نحتاج الى امكانات الوطن العربي البشرية ، والجغرافية والاقتصادية كلها ، الى حشدها جميعها ان نحن اردنا تحقيق مقاصدنا ، والدولة الواحدة هي وسيلتنا ، ولذلك يجب تقديم العمل لها على كل شيء اخر •

* هذا الجواب ينقلنا الى سؤال آخر : كيف تفسر تغير موقف المفكرين عندنا وتحولهم أو سكوتهم من ناحية عامة عن الدعوة الى ما تدعو اليه من ارتباط بثورة ٢٣

يوليو ، بعد ان كانوا باستمرار يدعون الى ذلك ؟

ـ اسباب ذلك عديدة ، ولكن السبب الاساسي هو ، كما أراه ؟ الطبيعة التبشيرية الاساسية للفكر الثوري عندنا ، واطاراته التي لا تزال غيبية ، وان كان بشكل لا واع في كثير من الاحيان . فهذا الفكر لا تزال تنقصه أساسيا الرؤيا التنظيرية التاريخية الجامعة ، والشمولية الثورية الجذرية التي تتفرع من هذه الرؤيا ، كما ينقصه المنهج العلمي الموضوعي ، ذلك يعني أنه في معظمه فكر انفعالات او ردود فعل انفعالية ، يسوده الواقع ويتقدم عليه ، ويعجز عن سيادة هذا الواقع أو قيادته ، الدليل على ذلك فيمايتعلق بموضوعنا هو ان هؤلاء الذين يعلنون الان الخصام والعداء لثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبد الناصر كانوا حتى الامس القريب ، يحيطونها بالتهليل والتمجيد وبهالة من التقديس ، ثم ان الظواهر نفسها التي كانوا يعتبرونها حتى لشهور عديدة طويلة بعد هزيمة حزيران ، القيادة العظيمة والكبيرة ، حتى أن بعضهم أنكر أن تكون هذه القيادة قد هزمت أو أن تكون هناك هزيمة في حزيران . هذه القيادة اصبحت الان عرضة لكل اتهام ، هكذا بين ليلة وضحاها ، دون اية تحولات تبرر ذلك في الواقع العربي ، وبعصا سحرية ، تحول هؤلاء عن ثورة ٢٣ يوليو وقيادة عبد الناصر ، واصبحوا يناصبونهما العداء والحقد بعد ذلك التقديس لهما .

❊ هل تعتقد أن العنف ضروري في الحركة الثورية العربية ؟ (ضرب المصالح الاسرائيلية ونسفها خارج الارض المحتلة) ؟

ـ اكتفي بالقول انه عند تقييم الواحدة والاخرى ، أرى نفسي مضطرا الى الاستنتاج بأن النواحي السلبية تزيد على النواحي الايجابية ولذلك يجب التركيز على ضرب المصالح الاسرائيلية في الارض المحتلة ، على المعركة في هذه الارض ، وعلى تثوير الاوضاع وحشد الطاقات الشعبية وتجنيدها لاجل المعركة في كافة ارجاء الوطن العربي .

هنا اريد الوقوف عند نقطة مهمة في هذا الموضوع ، ان الموقف القائل بضرب هذه المصالح في الخارج ، يدل ، في الواقع ، بطريقة غير مباشرة ، على اعتراف ضمني بأن الاوضاع الموضوعية في الارض المحتلة لا تلائم بروز حرب شعبية على غرار فيتنام او الجزائر ، ويوفر دليلا اخر يمكن اضافته الى الادلة التي ذكرتها في مكان سابق على هذه الناحية ، والتي عينتها في ممارسة المقاومة نفسها ، فلو كانت الاوضاع الموضوعية في الارض المحتلة تلائم حربا شعبية من هذا النوع ، ولو كان بامكانها ان تنفتح لجميع امكانات المقاومة ، أو لو كان بامكانها ان تتيح مجابهة حادة واسعة النطاق على غرار ما حدث في حروب شعبية اخرى ، لما كانت طرحت كما اعتقد ، هذه القضية .

أما القول بأنه يجب أن لا نحذو حذو جبهة التحرير الوطنية في فيتنام

التي لا تضرب المصالح الاميركية خارج فيتنام ، وذلك لان الاحتلال الصهيوني يتميز في كونه يعتمد على قواعده في الخارج ، وأن هذه القواعد تمتد في العالم كله ، فقول مردود ، وذلك لان هذا القول ينطبق على الامبريالية الاميركية بشكل اكبر بكثير . ان جبهة التحرير الوطنية لا تلاحق مصالح الاحتلال الاميركي في الخارج لانها تدرك ان سلبيات هذه الملاحقة تفوق ايجابياتها ، وانها ستكسب او تخسر المعركة في ارض فيتنام نفسها وليس في الخارج . وهي تقول بذلك وتمارسه بفاعلية لان الاوضاع الموضوعية الجغرافية ، والبشرية ، والسياسية التي تحيط بها في فيتنام نفسها تنفتح ، على نقيض أوضاع ارضنا المحتلة ، الى استخدام جميع ما يمكنها حشده من طاقات .

ولكن من ناحية ثانية ، يمكن القول ان من يقول بهذا الموقف ، من افراد ومنظمات ، يدل ــ وقد يكون ذلك بطريقة غير واعية ــ على درجة اعلى من الوعي الثوري للواقع الموضوعي في الارض المحتلة . ولكن يجب على هؤلاء ، كما أرى ، التركيز على تثوير الاوضاع في الاقطار العربية الاخرى والعمل لقيام نظم يمكنها أن تحشد جميع امكانات الشعب في خدمة معركة التحرير .

نديم البيطار

عبدالله العروي

الترکة والاستئناف *

I

لقد انتهت حقبة الاحتلال الاستعماري : وهناك الان من يدافع عنهـــا

---

* منذ أربعة أشهر ، صدر للاستاذ عبد الله العروي ، كتاب جديد بعنـــوان : « تاريخ المغرب : محاولة تركيبية » . وهو دراسة نقدية للكتابات الاجنبيـــة الصادرة عن مؤرخين أجانب ، والمحملة بمفاهيم ايديولوجية استعمارية . وقد أراد العروي أن يسهم في عملية تصفية الاستعمار التاريخي ، عن طريق « قراءة » جديدة لتاريخ اقطار المغرب الثلاثة بالتوازي ، وعن طريق كشف القناع عن الاسباب التاريخية الكامنة وراء « التأخر التاريخي » لبلدان المغرب .

ويلاحظ العروي في مقدمة كتابه ، بان الشباب المغربي منجذب للحاضر ، ومهمـل للماضي ، لانهم يعتقدون أن لاجدوى من وراء تمحيص الماضي ومساءلتـــه .. فكان أن « استولى » المؤرخون الاجانب على ذلك التاريخ ليصبغوه بمفاهيمهـــم الاستعماريـــة أو الحضارية المتعالية . يقول في هذا الصدد :

« على أن التجربة السياسية نفسها تلفت أنظارنا ، بعد فتور الحماسة ، وبكيفية ملحة الى ثقل البنيات الموروثة ، والى ثقل الاجيال الغابرة : اننا نزداد شعورا كل يـــوم ، بضرورة مساءلة الماضي عن ظاهرتين تلاحقان حياتنا السياسية والثقافية بدون هوادة ، وهما : التأخر التاريخي ، والتعويض الواعي لهذا التأخر ، أي الثورة» (ص١١) .

ان العروي وفيّ ، في كتابه الثاني أيضا ، للرؤيا المترابطة : الماضي ـ الحاضر ـ المستقبل ، وللمنهج التحليلي العميق الذي تميز به كتابه الاول « الايديولوجية العربيـــة المعاصرة » وللجرأة في النقد ودحض الافكار المسبقة . وقد انتهى من رحلته التاريخيـة الطويلة الى الاطلال على الحاضر والمستقبل ليطرح الاشكاليات المكتنفة لانطلاقة بلـدان المغرب الكبير ... ونظرا لاهمية النتائج التي انتهى اليها ، فقد ارتأيت أن أترجم خاتمة الكتاب ليطلع المثقفون العرب على الملاحظات العميقة التي أوردها العروي ، ولتكون حافزا على النقاش والنقد .

م . ب .

L'histoire du Maghreb : un essai de synthèse (Ed. Maspéro)

جهارا أو همسا ، ومن يوجه اليها الاتهامات بمناسبة أو بغير مناسبة • وفي رأي البعض ان الاستعمار كان اثراء للطبيعة وللفرد ، بينما يرى آخرون انه كان « تجريحا » للمناظر وللأجسام • وما يزال « الاطراء » مستمرا ــ بالمعنى المزدوج للكلمة ــ لهذه الحقبة ، غالبا لان الفترة نفسها لم تنته بعد • على ان « المحاكمة » يجب أن تتم على صعيد آخر مخالف للاطار الذي اعتاد الناس أن يضعوها فيه •

ولا جدال أن فرضية « الاستعمار ــ الصدفة » المتولد عن العنف ، لا تخلو من صحة ، وكذلك الامر بالنسبة لفرضية الاستعمار ــ الرسالة ، الناجم عن نوع من الاختلال والفراغ التاريخي ، والا ما كان لاحدى الفرضيتين أن تنجح في اكتساب حد أدنى من المنطق القادر على اقناع العقول • ومن الصعب انكار كون استعمار المغرب الكبير كان مندرجا ضمن الحلول المزعومة المقدمة لمواجهة أزمة القرنين الرابع والخامس عشر • ويتعلق الامر بتوسع جاء نتيجة منطقية لتوسع آخر حدث من قبل في نفس المناطق • ربما كان ذلك التوسع غير حتمي بالضرورة ، ولكن تجنبه ، وهذا هو الشيء الاساسي في الموضوع ، كان متوقفا على « الآخر » • ومنذ تقرر التوسع ، لم يصبح من الممكن ايقافه الا عن طريق « الحساب الاقتصادي » الذي كان بدوره يشكل جزءا من النظام الآخذ بالتوسع •

ليست احداث الاستعمار هي التي تهمنا في هذا المجال ، بل شروطه • هل كانت فرصة ضائعة ؟ أم هزيمة لازمة ؟

يمكننا أن نناقش الى ما لا نهاية ، رد الفعل المغربي في القرن التاسع عشر • ولكنه في جميع الحالات ، لم يكن ردا ملائما • ذلك أن الشواطيء لم يكن من الممكن الدفاع عنها من مواقع أرضية وبمدافع عتيقة مشتراة من العدو • وكذلك ، فان السهول المحاذية للشواطيء والتي ظلت مخربة طيلة قرون ، لم يكن من المستطاع استرجاعها الا على يد سكان ملتحمين ، كثر ، وعن طريق استغلال متواصل للارض • ولعل الدفاع الحقيقي كان يتمثل في قبول أخطار « الانفتاح » ، أي تقبل ما كان يبدو بالضبط هزيمة وانحدارا • الا أن الطابع السلبي أو الناقص للنتائج المحصل عليها ، يجب ألا يحجب عن أعيننا وجود شيء هام ، وهو ارادة الاصلاح •

كانت ارادة عمياء ، سيئة التوجيه ، بل ومضللة ، ولكنها كانت حقيقية ومتوفرة • ولا يمكن ان ننكر هذه الجدارة لا في حق أصدقاء خير الدين التونسي ، ولا في حق عبد القادر الجزائري وضباطه ، ولا في حق الملوك العلويين • كذلك لا يمكن أن ننكر أن الارتكاز الاستراتيجي لكل اصلاح كان ينطلق من تحديث الجيش وتعصيره ، اذ لم يكن من الممكن الوصول الى أي

تحسن بدون جيش قوي ، مهيأ لا لمحاربة العدو ، بل للسيطرة على داخل البلاد ومراقبتها • وكانت المشكلة التي استعصت على الحل ، بعد محاولات عديدة ، هي استحالة القيام بتلك الاصلاحات في غيبة « رأس مال » قائم ، أو يمكن تجميعه بسهولة • وهنا أحس الجميع العجز الناجم عن غياب ارستقراطية حقيقية • فبينما لم يكن من الممكن في المغرب الكبير تجميع الفائض الاقتصادي الا بواسطة جيش يحتاج بدوره لان ينشأ ، كان المشكل في بلدان أخرى قد وجد حلولا تتيح تجميع الفائض الاقتصادي بواسطة أوالات : دينية ، أو اجتماعية ، أو سياسية ، وتساعد على انشاء جيش عصري يضمن نشر العلم ، وفرض الامتثال ، والتوسع ، والشروع في تحقيق تنمية متوالية •

ولا شك أن مجاورة المغرب الكبير لأوربا قد أثرت عليه تأثيرا سلبيا ، لانها منعت البنيات المتناقضة من أن تنحل مع الزمن وتتجه نحو تحقيق التجاوز ، ولكن ثقل الماضي ، أي سياسة الحاكمين وعمل الشعوب المغربية ، هو الذي لعب الدور الحاسم • ان الضغط الاوربي ، والرزانة الرتيبة ذات الغرض عند المغاربة ، قد تضافرا لتكييف الاحداث والعقول ، ما دامت السياسة الاستعمارية اعتمدت في تخطيطاتها على المعطيات التي استخلصت من دراسة الماضي المغربي • وفي النهاية نجد أن الاستعمار قد وضع حدا لذلك الماضي بتقديمه للمغرب ما حاول هذا الاخير الحصول عليه طيلة قرنين من الزمن بدون جدوى : قدم له جيشا ورأس مال مجمعا • ومنذ ذلك التاريخ ، أصبح كل ما تعاقب من أحداث ، ثمرة لمنطق على درجة من التمام بحيث أن الاحداث التالية ، الموضوعية منها والذاتية ، حققت انسجاما عجيبا • كان الجيش يقيم في كل منطقة يمر منها ادارة وعدالة • وكان القانون الرأسمالي ، والادارة اللافردية ، واللغة البورجوازية ، تفتح (وهذه هي الكلمة المخصصة) الطرق الكبيرة التي يندس منها التاجر ليفرض حضوره في كل مكان • وهذه الحقبة هي الحقبة المجردة ، غير الظاهرة (مما جعلها تثير معارضة بعد الاحتلال أقل بكثير مما أثارته قبله) ، والتي تتموضع بين فترتين ملموستين : الاحتلال ، والاستصلاح •

سنجد أيضا أن ما تلا ذلك ، وغير الطبيعة : أي الطرق ، والاستغلالات المعدنية ، والصناعات الخفيفة ، والتمدين ••• هو من صنع التاجر • (لقد قلنا من قبل ، ان الاستعمار الفلاحي يرجع الى تاريخ آخر ، ويكشف ، في المغرب الكبير ، عن تأخر في الوعي الاستعماري) ، وهذا ما جعل الاستعمار واستثماراته تصبح ، بعد أمد ، غير ملائمة • ذلك أن الطريقة التي استثمر بها الاستعمار المغرب الكبير ، جعلت تأثيراته تمتد الى مجموع مجال التبادل ، ولكي يتمكن الاستعمار من توسيع نطاقه ، أو على الاقل من أن يستمر ، لا بد أن يوجد دائما « بدائيون » ، فاذا نضب معينهم ، أو قل عددهم ، فان الاستعمار – الوساطة سينقلب ضد نفسه ، وسيهرب الى مجال المالية ، ثم التبادل في المرتبة الثانية ، مما يجعله أكثر فظاعة ، اذ انه يأخذ في استغلال قسط متزايد من المستعمرين أنفسهم ، بل سيصبح زائدا ما دام من الواضح أن الاستعمار ،

في مثل هذه الظروف ، سيمكنه من الاستغناء عن المستعمرة ، أي أنه لن يضطر الى الحضور الفعلي فوق أرض الاخرين . وقد ادرك الكثيرون عندئذ ، الى أي حد كان توسع القرن التاسع عشر ، خصوصا في المغرب الكبير ، محملا وقائما على ايديولوجيات عصر آخر .

ولكننا اذا استعملنا منظارا أعمق موضوعية ، سنجد أن الاسباب الدبلوماسية التي كانت في البداية غير واقعية اطلاقا ، هي التي أخذت شيئا فشيئا تشكل مضمون الاستعمار وأهدافه : فاخماد الفتن ، والانفتاح على « الحضارة » ، والامن ، وتوحيد المناطق ، وكل التبريرات المزيفة التي يتستر وراءها المشروع الاستعماري ، تكتسي بالنسبة للاراضي المغربية ، طابعا أكثر ديمومة من جميع التحسينات التقنية في مجال الزراعة أو الصناعة التقليدية . ولعل المغرب يجسم بصورة أدق وأكمل ، هذا التغير في الاسباب ، وذلك التحول الجديد الطارىء على « حيلة العقل » ، لان المغرب كان هو آخر بلدان المغرب الكبير ، الذي أجريت فيه التجربة بعد أن صفت الممارسة مفاهيم الاستعمار . غير أن هذه الملاحظة صحيحة أيضا بالنسبة لجزائر عبد القادر ، ولتونس خير الدين . وقد كانت الدلالة الحقيقية للعمل الاستعماري ، هي تعميم الوجود العسكري وجعل الضرائب والرسوم نافذة المفعول . على ان هذه الاهداف لم تكن واضحة لدى الجميع ، اذ بعد الحصول على هذه النتائج ، أوقفت كل الاجراءات ، في حين كان يجب أن يبدأ كل شيء : فالعمل الذي كان يتحتم انجازه في القرن التاسع عشر ، وقع تأخيره الى أبعد حد ، بل لم ينجز حتى في منتصف القرن العشرين . وكانت عاقبة ذلك ، الحفاظ على بنيات متجاوزة حتى في نظر المستفيدين أنفسهم من هذه الاوضاع ، واللجوء قسرا ، جغرافيا ، ونفسانيا ، واجتماعيا ، الى اشكال أكثر عتاقة تغمر بالفرح ، عندما تعود الى الظهور ، المستعمر المتظاهر بالبراءة .

وهنا يكمن الضرر الكبير لكل استعمار . ذلك أن اساءته لا تتمثل فقط في ايقاف التطور التاريخي ، بل أيضا في ارغام المستعمر على أن يمارس تطوره في اتجاه معاكس لسير التاريخ . وانطلاقا من هذا الفهم ، يصح القول بأن كل استعمار ، في جوهره ، يعتبر حكما بالموت التاريخي . ذلك أن البنيات العتيقة ، والعادات البالية ، والانانيات القديمة تغطي من جديد سطح العقول والمجتمعات . ونلاحظ للأسف ، أن الجميع يلتجيء الى الطفولة ، وعندئذ يصبح من السهل على الاستعمار أن ينهج سياسة المغالطة قائلا : « انظروا ، ان أي شيء لم يتغير منذ عشرين قرنا » ، ناسيا أن وجوده نفسه هو الذي أعاد ضحاياه الى الاحتماء بالماضي البعيد . صحيح ـ بعد ذلك ـ أن **يورغورتا** ، على المستوى الفردي ، يتطابق تماما مع عبد القادر الجزائري ، كما أن **تاكفاريناس** يتماثل مع **عبد الكريم الريفي** ، لان الانسان ، عبر الاجيال ، لا يتوفر الا على طفولة واحدة ، وملجأ واحد .

ان الاستعمار لا يترك الخيار الا بين أمرين : التمرد أو الموت ، والامثلة

على ذلك كثيرة لا تحصى • ففي الجزائر ، استؤنف عمل عبد القادر ، ولكن بفتور ، وبدون آفاق : أبقي على جمعيات البر والاحسان بعد أن حرفت عن مقصدها الاول ، وحوفظ على المشيخات ذات الارستقراطية المزعومة ، بدون حول ولا قوة ، وضيق الخناق على الاسرة حتى أصبحت سجنا للروح ، وبعد ذلك ، سمح للافراد بأن يلجوا ، كل على حدة ، « المدينة » الفرنسية بعدما جعلوهم يقرون كتابة ، أن المدينة القديمة قد طواها العدم •

بطبيعة الحال ، كان رد الفعل هو « العودة » الى الارض ، والى الدين ، باعتبارهما أساسين للرابطة الروحية القديمة ، بغض النظر عن الاشكال الاجتماعية المشيدة خلال عدة قرون ، والتي أصبحت منذ دخول الاستعمار ، مدانة ومحكوما عليها بالموت • ومثال تونس أكثر اقناعا : فاصلاحات خير الدين التي تبناها التونسيون ، رغم الشروط التي صاحبت تحديد شكلها ، لم يمكن تحقيقها الا بعد مرور قرن من الزمن ، مع اسقاط فترة الحماية التي كان همها الوحيد : معارضة تلك الاصلاحات ، والحيلولة دون انجازها •

أما في المغرب الذي استحال الى « منتزه وطني » شاسع الاطراف ، فقد وجدت التقاليد من يدافع عنها حتى ضد التقليديين أنفسهم ، ووجدت الملكية من يتحمس لها ضد الملكيين ، ووجد العرف من يدافع عنه ضد المستفيدين المفترضين • وبقدر ما يدوم الاستعمار ، ترتخي الارادة ويتدهور الذكاء ، ويقل التماسك والتلاحم عند الشعب المسيطر عليه • ان الذين يؤكدون بأن الاستعمار يحمل في ثناياه بذور هلاكه ، ينسون السنوات المهدرة ، والفرص الضائعة ، والطاقات المبذولة بدون طائل في عالم الظاهر ، ابتداء من الكفاح الوطني نفسه • من يستطيع أن يقيّم ، بالنسبة للحياة التونسية ، مردود أربعين سنة من النشاط العقيم الموجه ضد ادارة محافظة وعنيدة ؟ ان الاستعمار الحديث يترك لمن يخلفه ، مهمة اكثر حدة من تلك التي كان يتبجح بتحقيقها في نهاية القرن التاسع عشر : فبعيدا عن الطرقات والسدود ، هناك مهمة انتشال الانسان المغربي المحطم من وهدته ، وتعليمه التفاؤل من جديد •

قد يتساءل البعض : هل من الضروري أن نبرر الاستعمار أو أن نفضحه ؟ ربما كان الجواب : لا داعي لذلك • ولكن الكثيرين يحاولون ربح القضية في الاستئناف • ولهؤلاء يتحتم أن نقول بأن هذه المحاكمة لم تبدأ حتى الان بكيفية جدية ، ما دام الطرفان يعتبران أن التشويه الحقيقي ما يزال مرضا مخجلا •

II

ان الإوالة (La Mécanique) الاجتماعية قد توقفت عن السير مرات عديدة في تاريخ المغرب ، وكثيرا ما أبرم أشخاص أو جماعات اتفاقيات سلام منفصل مع القدر • ما العمل اذن ، لكي لا تتكرر هذه الظاهرة بعد أن أتاح لنا الاستعمار فرصة الاستعداد لانطلاقة جديدة ؟ ربما كان هذا سؤالا بعيدا

عن اختصاص المؤرخ ، ولكنه سؤال نابع من ذواتنا ، اذ ليس صدفة أن يهيم الشباب المغاربة بملحمة القرن التاسع عشر في أوربا ، وأن يرين على عيونهم النوم حينما يتحدث لهم عن المغرب القروسطوي ٠

أي أهمية للالفاظ : تخلف ، استعمار ، تطور موقوف ، نمو متفاوت ؟ وأي جدوى لتحديد على من تقع المسؤولية : الله ، أم الجغرافية ، أم البشر ؟ ذلك أنه بعيدا عن العتبات الاربع التي أبرزناها ، حيث تتحول المساحة الفاصلة بين البحر والرمل ، وبين المدن والقبائل ، الى عدم تاريخي ، وبعيدا عن نشوة النجاة من الموت ، بعيدا عن كل ذلك ، فان ما يريد أن يعرفه كل واحد منا ، هو : كيف يمكن الانفلات من الذات ، والتخلص من جبال وأكمات كل فرد ، لنستطيع ان نحدد هويتنا مقتصرين على أنفسنا وليس بالمقارنة مع الاخرين ؟ وبعبارة أخرى ، كيف نكف عن أن نكون منفيين بالفكر ؟ هذه الاسئلة وحدها هي التي تشكل جوهر الثورة ٠٠ وهي ثورة ما تزال تنتظر من يحققها ٠ كثيرا ما وردت في الصفحات السالفة ، كلمات : الحكم الثلاثي ، والحكم الازدواجي ٠ والتنوع يتباين في الشكل والمعنى من مرحلة لاخرى ، ولكنه لا يختفي قط ٠ وفي نهاية التحليل ، تستقر في أذهاننا الصورة العامة لمغرب كبير متعدد المستويات ٠ وهو تدرج لمستويات أنتربولوجية ، ولغوية ، واجتماعية واقتصادية ٠٠ وباختصار هو تدرج تاريخي ، كل مستوى من مستوياته راسب عن تناقض ظل بدون حل ٠ بالضرورة اذن ، فان كل ثورة حقيقية ستكون ، عن وعي ، شاملة ، والا فان راسبا آخر سينضاف الى الرواسب الاخرى بعد تدهور طويل الامد ٠ وفي انتظار تحقق هذه الثورة ، فان هناك شرطا اوليا لها ، وهو عدم فرض عقيدة الجار على الجار ، ذلك أن التدوين التاريخي الذي ما يزال ينتظر الانجاز ، يجب أن يكون محايدا ٠ والحياد الذي تعنيه سيكون مستمدا من حياد الدولة ، ولكن الى أن تتطابق الدولة مع هذا المبدأ ، لا بد اولا من أن نحقق الحياد داخل ضمائرنا وذلك بأن يقمع كل واحد منا جزءا من نفسه ٠ ومثل هذا العمل سيتطلب غير قليل من الوقت ، ولكن كل أمل في بلورة وعي سياسي بدون توفير هذا الوعي التاريخي سيظل مجرد وهم ٠

لقد مضى على استقلال بلدان المغرب أكثر من عشر سنوات ، ورغم جميع الافكار التي أشاعتها وبسطتها دعايات الدولة ، فان المشكلة القائمة ما تزال ذات طابع سياسي ــ ثقافي ٠ ذلك أن التخلف الاقتصادي لن يتغلب عليه قط اذا لم يشرع أولا في تشخيص ومحاربة التخلف الاجتماعي والثقافي ٠ وهذا العمل يستوجب مساءلة الماضي ٠ وفي هذا الصدد ، نسوق ثلاث ملاحظات :

١ ــ بالرغم من الخطب والمقالات التي دبجت بشأن الديموقراطية والعدالة الاسلاميتين ، والمبررة في بعض الجوانب ، فانه يتحتم علينا أن نعترف بأن البنية السياسية ــ للدولة ، المتولدة عنهما (أي عن الديموقراطية والعدالة الاسلاميتين) ، والتي عمل الضغط الاجنبي على تدعيمها ، بل تحجيرها ، لم تكن في مستوى الحاجيات العصرية ، ولن تصبح قط في هذا المستوى ٠

ان الاحتلال الاستعماري لم يمح هذه الحاجيات ، كما أن الدول الوطنية التي أعقبته لم تنجح حتى الان في تصور الوسائل الكفيلة بارضائها . وبالامكان تلخيص أزمة المغرب الكبير القديمة المنبت ، على الشكل التالي :

اننا لم نعرف : لا اقطاعية حقيقية كان بامكانها في شكلها السياسي أن تفرض معنى الامتثال والعمل المنظم ، ولا سيطرة بورجوازية حقيقية قادرة على توحيد المجتمع ثقافيا ، ولا ملكية مطلقة حقة كان بامكانها ، اذا حققت المشروعية ذاتيا وموضوعيا ، أن تسيطر على الطبقتين المتصارعتين ، وأن توجه تنافسهما لخدمة أمة تخطو نحو التقدم . وهذه المراحل التي ذكرناها هي الاسس الاجتماعية ــ السياسية للثورة الاقتصادية الحديثة ، ونحن لم نعرفها ، في أحسن الحالات ، الا في شكلها الجنيني . أما مسألة الاسباب الداخلية والخارجية التي أعاقت حدوث تطور مماثل عندنا ، فيمكن مناقشتها الى ما لا نهاية . ولكن الذي لا جدال فيه ، هو أن من واجب الدول المغربية الجديدة ، على ضوء النتائج الراجحة سلبيتها خلال العهدين السابقين : القومي والاجنبي ، أن تضطلع أحسن اضطلاع ، وفي الوقت ذاته بالمهام التي أنجزتها كل من الاقطاعية ، والثورة المدنية ، والملكية المطلقة ، في بلدان أخرى ، على نطاق واسع ، ومرحلة بعد مرحلة . والامر بعد ذلك لا يتعلق بالتأسف على ما لم يتم ، ولا بالاغتباط بهذه الحال ، بل بوعي الحقيقة التالية : ما دام المجتمع المغربي لم يتابع التطور حتى النهاية ، فان اعداده للعصرية وللحداثة ظل اعدادا هامشيا ، وبذلك فان تكميل أو تحسين هذا الاعداد ــ حسب الاوساط ــ يصبح هو الواجب الاساسي للقومية المعاصرة . ومنذ الان تصبح الاوامر المطلقة لكل سياسة قومية هي : التوحيد الثقافي ، وتسييس الجماعات ، واضفاء المشروعية على نظام الدولة .

باستمرار ، كان رد فعل السكان في الماضي يتخذ اما شكل الخضوع ، واما عدم الاعتراف . وهذا الشكل الثاني هو ما أطلق عليه الملاحظون الاجانب ، في تبسيط مبتذل ، اسم : القدرية ، واسم « السِّيبة » (١) . وبهذا المعنى فان الحركة الوطنية كانت « سيبة » عامة اعلنت ، منذ أزمة ١٩٣٤ ــ ١٩٣٧ ، لا شرعية النظام الاستعماري . وقد اعتبرت مواقف الرفض حينئذ بمثابة مزايا : فالانطواء على الحياة الخاصة ، وعدم التعاون ، والاستقلال الشخصي أو العائلي ، وعدم الامتثال ، وترك الحبل على الغارب ، واخيرا التمرد الفردي المحطم .. كلها مواقف اتخذت ، عن حق ، لتصبح الجواب الوحيد الملائم على التدخل الاجنبي . ولكن لا بد من الاعتراف بأن هذه الاجابات التي كانت مبررة ضد حكم جائر وغير كفء ــ قوميا كان أو أجنبيا ــ لم تكن صالحة الا لفترة محددة . ومن الواجب العمل على اقتلاع هذه العادات (التي أصبحت تقليدية في جميع فترات التاريخي) ، لا عن طريق العنف وانما بواسطة

١) كلمة بالدارجة المغربية تعني الفوضى والخروج عن القانون .

الاقناع ، اذ أن استخفاف الحاكمين يتغذى من يأس المحكومين .

٣ - وأخيرا ، فان أسوأ السياسات ، هي سياسة : التقليد القائمة على استئناف وتبني قواعد الحكم التي طبقتها الانظمة السابقة ، ذلك ان سياسة التقليد التي تتوخى الفعالية في أمد قصير عن طريق اضفاء المشروعية « بعديا » على عمل الدولة الاستعمارية سرعان ما تجد عند هذه الاخيرة المساعدة التي تتمناها ، وبذلك تصبح ، في الامد البعيد ، سياسة اجرامية حقيقية على اعتبار انها تحافظ وتحمي بنيات الانحطاط . وبطبيعة الحال، فان هذه البنيات المتأخرة ، بعد تدعيمها ، ستبيد حتى بذور التطور التي زرعها الاجنبي بالرغم منه .

ان الدفاع عن التقاليد في الجبال والسهول ، وايقاف التمدين ، وتشجيع الهجرة كصمّام للامان ، كل ذلك معناه في الواقع ، تزكية الحكم الذي أصدره الاستعمار في حقنا خلال كل الحقب والازمان .

لقد قصدنا من وراء ايراد هذه الملاحظات الثلاث ، الى تحديد الشروط (التاريخية) اللازمة لتحقيق عمل سياسي فعال . وهي تتلخص ، عند التحليل الاخير ، في المسألة التي كمنت وراء مجموع اجزاء هذه الدراسة ، ونقصد مسألة المشروعية .

ولا شك أن « للحكم الفردي » الذي يعرفه المغرب الكبير حاليا ، أسبابا موضوعية . وربما استطاع ، من بعض الوجوه ، ان يتشبه بـ « الاستبداد المتنور » ولكن هذا الحكم لا يستطيع ، في الامد البعيد ، أن يكتسب المشروعية الا اذا هيأ ، أو على الاقل ، سمح بالاعداد لتحوله . واذا انحصر نشاط هذا الحكم الفردي في افراغ المشاريع القليلة ، التي فرضتها عليه الضغوط الاجنبية أو حرصه على النفوذ ، من عواقبها العادية وان كانت لا تخلو من ثورية ، فانه أيضا يظل بالاساس ، حكما لا شرعيا ، مثله مثل النظام الاستعماري السابق له .

لقد قلنا سابقا ، بأن المعضلة الحقيقية ذات طابع ثقافي (توحيد البلاد انطلاقا من الشباب ، وعن طريق صهر التمايزات التاريخية ، التي كثيرا ما تنقلب الى اختلافات طائفية ، في اطار تنظيم واحد) ، وذات طابع سياسي ، (اشراك جميع الفئات في العمل السياسي بدءا من المستوى المحلي بقصد تذويب المواقف السلبية الموروثة عن الماضي ، ثم الوصول أخيرا الى تحقيق الانصهار بين الدولة والمجتمع ، ذلك الانصهار الذي تعطل أمدا طويلا) .

هل نحتاج الى التذكير بأن المستقبل مرتبط بالمدن : يتحتم تشجيع التمدين ، لا محاولة توقيفه تحاشيا لحل المشاكل المتولدة عنه ، ولكن بما ان التمدين سيظل أمدا طويلا ، متقدما على التصنيع ، سيكون من الضروري تنظيم الجماهير الجديدة من سكان المدن بكيفية أو بأخرى ، عن طريق توفير الشغل لهم ، لان الشغل ، ولو لم يكن ذا مردود اقتصادي ، فانه في جميع الحالات ، يضطلع بدور المربي اجتماعيا .

وعلى ما يظهر ، فان شعار جميع الانظمة المغربية اليوم ، هو : تسيير الامور ! الا ان هذا الشعار هو نفسه شعار الاستعمار الذي كان يعتمد على ضباط للشؤون « الاهلية » • ألا يتعلـق الامر ، علـى الاصح ، بتسييس المواطنين ، وبادماجهم في عشيرة واحدة ؟ اننا نسمع دائما عبارة : سياسة التنمية ! وهي تذكرنا كثيرا بسياسة التجهيز والاستصلاح للاستعمار ، والتي اتضح للجميع أن فشلها راجع الى عدم تعاون المعنيين بالامر • واذن ، فالشعار الذي يجب طرحه هو : المشركة (Socialisation) ، اذ بدونه ، لن يمكن لاي تصنيع أن يدوم •

على أن « الحكم الفردي » لم يستطع ، في أي مكان اخر ، أن يضطلع بهذه المهمة بقوة ، واستمرارية ، وايمان • ونتيجة لذلك ، فانه توجد ، وستوجد ، مناطق للصناعة منقولة عن الغير ، ولكنها « أجنبية » مثل المجتمع الذي شيده الاستعمار فوق الاراضي المغربية (وهي فـي نظر السواح : تلطيخ للمناظر الطبيعية) • بالتأكيد ، ليس الوضع متماثلا في الابعاد : فالنتائج الاكثـر قيمة ضمن الطريق المرسوم هنا هي ، رغم المظاهر ، من نصيب تونس ، وثمرة لتاريخها خلال القرن التاسع عشر ، كما أن توقعات عظيمة ما تزال معلقة على الجزائر بسبب الزعازع الناجمة عن حرب التحرير ، في حين أن اخطار التدهور الجسيم تلاحق المغرب بسبب انغماسه الطويل الامد في التقليد • الا أن مطلبا حيويا ما يزال ينتظر التحقيق في الاقطار الثلاثة ، وهو امتزاج الدولـــة بالمجتمع ، او بكلمة واحدة : اقامة ديموقراطية حـــق • ان مستقبلنا مرتبط بجدلية حرة تنتظم الفئات الاجتماعية • وقد يعترض البعض : لا بد من مراقبة التناقضات الاجتماعية • وفي نظرنا ، ان المراقبة الفعالة الوحيدة والدائمة ، ترتكز على مشروعية مكتسبة ، وليس على مجرد اعتراف شكلي • وبذلـــك تصبح المشاركة الديمقراطية في الوقت نفسه : شرطا اوليا لمشروعية الحكم ، ونتيجة عادية لهذه المشروعية •

وبعبارات اكثر وضوحـــا وتجسيما للاشياء ، فان المقتضى الضروري المتطلب للحل ، هو العمل على اقناع ضحايا جميع الانتكاسات والاضطهادات بالنزول من معاقلهم ، والعودة من منافيهم • فبعد قرون الانحطاط والاحتلال الاجنبي ، ورغم العمل التوحيدي للزوايا والجمعيات الخيرية ، ورغم التجديد الذي بدأته الاحزاب ، والاخوة المتجسدة خلال زمن العنف ، فان الثورة الكبرى لم تحدث بعد : انها ماثلة دوما في جدول الاعمال ، وهي ، أولا وقبل كـــل شيء ، ثورة ذات طابع سياسي • وبالاضافة الى ما تقدم ، فانها الوحيدة التي ستضمن العمق والدوام لكل تصنيع في المستقبل •

لا مناص ، لكي يتصالح المواطن المغربي مع زمانه وأرضه ، من أن يصالح أولا نفسه ، وخصوصا أخاه • والحكومة الشرعية الوحيدة ، حكومة المستقبل ، هي التي ستبذل كل طاقتها وسلطتها لتحقيق هذا الهدف •

عبدالله العروي

(جامعة الرباط)

(نقلها الى العربية **محمد براده** ، جامعة الرباط)

*** (٩ يونيو)

المقاومة والحل السلمي

نشرت «الاهرام» في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ نبأ يتعلق بموقف المقاومة الفلسطينية من مسألة الحل السلمي · وقد اثار النبأ ضجة واهتماما كبيرين وادى الى ايضاحات وردود قام بها عدد من فصائل المقاومة · وفي العدد ٩ (فبراير ، ١٩٧١) ، من مجلة «٩ يونيو» التي تصدرها الجبهة الشعبية لتحرير الخليج العربي المحتل ، كلمة حول موقف المقاومة من الحل السلمي ، نثبتها هنا لعمقها واهميتها ·

منذ انطلاقة العمل الفدائي في مطلع يناير ١٩٦٥ ، وايضا لدى اتساعه وامتداد تاثيره بعد هزيمة حزيران ١٩٦٧ اعلنت فصائل المقاومة الفلسطينية رفضها للحلول السلمية بكل اشكالها ومهما كانت مصادرها · واكدت قناعتها ان الكفاح المسلح الطويل الامد هو الطريق الوحيد لتحطيم الكيان الاسرائيلي وتحرير الارض المحتلة · ومن هنا فان بيان اللجنة المركزية يشير بوضوح الى انعطاف قائم فعلا في مسيرة المقاومة منذ مذبحة سبتمبر الماضي في الاردن · لقد اكدت فصائل المقاومة ان التطور حاصل في موقفها من القاهرة وسياستها فقط ، وليس في موقفها من حلول التصفية السلمية · وبررت ذلك ان الجمهورية العربية المتحدة تناضل لازالة العدوان ملتزمة الا تسبب اثناء سيرها اي ضرر بالقضية الفلسطينية ، كما انها تعتبر ازالة اثار العدوان خطوة اولى على طريق التحرير الطويلة ، والمتحدة هي القوة العربية الرئيسية في الصدام الراهن ، وقد أيدت المقاومة باستمرار ودعمتها سياسيا وماديا ، وهي الوحيدة القادرة ان تقف مع المقاومة في مجابهة مشروع «الدولة الفلسطينية» الامبريالي الذي تسعى له اطراف كثيرة (!) ، ولذلك فان الجمهورية العربية المتحدة ، هي حليف للمقاومة ضروري ، ولا يجوز لاي تناقض بينهما ان يتحول الى عداء · لذلك فان ما طرأ على موقف المقاومة هو مجرد تبدل تاكتيكي يهدف لقيام علاقة قوية من التفاهم المتبادل مع القاهرة كسند فعال معين للمقاومة ، ويحرر حركتها في صراعها السياسي مع اسرائيل في مسالة الانسحاب ·

لا يهتم هذا المقال بدراسة العلاقة بين المقاومة والدول العربية ، والمتحدة

في مقدمتها • لكنه ينصب حول طبيعة هذا الفصل المفتعل الذي تخلقه المقاومة بين موقفها من الحل السلمي وموقفها من الدول العربية •

تتمسك الدول العربية بقرار مجلس الامن الصادر في ٢٢-١١-١٩٦٧ كأساس للحل السلمي للمشكلة التي نشأت عن حرب ١٩٦٧ واثارها • وهذا القرار لا يشير بتاتا الى – اي لا يعترف بـ – المسألةالفلسطينية ولا يبالي بمشكلةالشعب العربي الفلسطيني الذي طرد من ارضه وارغم على التشرد والضياع ومعاناة البؤس • لكنه يشير الى موضوع ثانوي يرتبط بجملة موضوعات رئيسية ، هو «مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» ان المسألة الفلسطينية في نظر سياسة الحل السلمي تنحصر في التخفيف عن الام اللاجئين باعادة بعضهم وتوطين معظمهم في الدول العربية والتعويض عليهم • ويشمل قرار مجلس الامن مواضيع رئيسية (الانسحاب ، انهاء حالة الحرب بين الاطراف المتنازعة ، الحدود الامنة والمعترف بها ، والاعتراف بحق جميع دول المنطقة بالعيش بسلام ، تبادل الاتفاقيات باقرار وضمان الامم المتحدة والدول الكبرى • الخ •••) تؤثر مباشرة على الكفاح المسلح للشعب الفلسطيني، بل وتتعارض تماما – لدى تطبيقها مهما اختلفت صيغتها التفسيرية والجهات الصادرة عنها – تتعارض مع وجود المقاومةالفلسطينية، بعبارة اخرى، فانها لن تقوم الا على اشلاء المقاومة ذاتها • لقد مرت اكثر من ثلاث سنوات على صدور قرار مجلس الامن ، لكنه ما يزال – على الاقل – اساس الموقف العربي من الحل السلمي • ونظرة سريعة تلقى على المذكرات العربية الاخيرة ليارينغ تؤكد ذلك • مع ذلك فان الامبريالية تعلم ان اي حل لن تتوفر له اسس قوية تصمد على المدى البعيد اذا لم يعالج مسألة فلسطين بشكل مستقل نسبيا • ولذا بدأت تطرح بشكل مستقل ان هذا المشروع هو الاخر جزء متمم لمشروع التسوية الكاملة ، التصفية للنضال الفلسطيني ولوجود المقاومة •

اما التهديد باللجوء الى الحرب اذا فشلت المساعي السلمية ، فلا ينبغي ان يعني للمقاومة الا وسيلة من وسائل الضغط حتى لا تتعثر محادثات الحل السلمي • ذلك انه لا يتوفر دليل مادي على صعيد وضع البلاد في حالة اعداد لحرب طويلة الامد وتجنيد الطاقات الشعبية والاقتصادية والعسكرية للسير على هذا الطريق • ان المقاومة تعلم تماما ان الدول العربية ، بحكم طاقاتها واوضاعها ، وبحكم الظروف الدولية السائدة، لا تستطيع ان تخوض معارك حاسمة في الفترة القريبة •

والمقاومة الفلسطينية تشكل موضوعا في هذه المسيرة العربية ، اداة للضغط والمساومة السياسية لا غير ، ووسيلة لتضليل الجماهير العربية • امام معطيات الواقع هذا ، وباعتبار ضربات الرجعية الموجهة ضد المقاومة لشلها وسحقها ، ومواقف الدول العربية ذات الصوت العالي – على احسن تقدير – والتي تشجع بشكل غير مباشر الرجعية على المضي في مؤامرتها ، امام كل هذا يصبح قول المقاومة : «ان الكفاح المسلح لم يبدأ في حزيران ١٩٦٧ لينتهي عند التوصل الى حلول للمشكلات التي نشأت عن هذه الهزيمة ، وبالتالي فهو نضال مستقل بمسيرته ، وغير ملزم ان يلتفت الى غير خطه الاستراتيجي» يصبح مجرد جمل انشائية مقطوعة الجذور بالواقع الذي يعكس تشابكا عضويا قائما في كل لحظة وفي كل مسألة بين الكفاح الفلسطيني والسياسات العربية • ايضا ، فان

تصوير مسألة الحل السلمي مجرد موقف سياسي اختلف حوله الرأي الفلسطيني والرأي العربي او تعارضا ، وهذا التعارض مقبول ولو كان تعارضا مبدئيا ، ان هذا التصوير مضلل ومزيف لمعطيات الواقع وحقائقه البارزة ٠

ان الحل السلمي ، لكلا الطرفين الفلسطيني والعربي ، ليس موقفا سياسيا معزولا عن غيره وموقتا ، أي مرتبطا بمشكلة صغيرة ، وبالتالي فان اي صدام ينشأ عنه هو صدام محدود الاثار والنتائج ٠ الحل السلمي هو سياسة كاملة وتعبير قوي دقيق عن بنية مصالح طبقية وعن قاعدة فكرية معينة وعن نمط من التفكير ، وعن واقع محدد للقوى الاجتماعية واوضاعها الاقتصادية وتعبيراتها السياسية ، وعن طبيعة العلاقات السياسية والتنظيمية بين القيادات والجماهير الفقيرة ٠ وهو في النهاية محصلة التأثير المادي الضعيف للنظم القائمة وقياداتها المختلفة وقدراتها ٠

ان هذا الموقف الجديد من المقاومة يأتي بعد تصاعد عمليات التصفية الرجعية للمقاومة في الاردن ٠ اي بعد ان تعرض الفدائيون لضربات بالغة الشدة ادت الى تقليص قدراتهم الذاتية الى حد بعيد ، والى شل وجودهم المادي بربطه ببقاع ضيقة ومحاصرة وخاضعة لتهديدات الرجعية وسيطرتها الدائمة وتحركاتها ، ويأتي هذا الموقف بعد ان سلمت اللجنة المركزية بتجريد ميليشيا المقاومة من اسلحتها التي كانت تدافع بها عن نفسها ٠ ان المقاومة تنحدر بسرعة في المجرى الذي حفره لها النظام العميل في الاردن حتى تتحول الى ظاهرة شبه عسكرية مقطوعة الجذور ، ضعيفة ، معزولة عن تجمعات الجماهير في المدن والمخيمات والقرى ، فاقدة لتأثيرها السياسي وعاجزة عن التأثير في الوضع ، وغير قادرة على حماية ارائها ومواقفها وحماية افرادها وجماهير الشعب لا من مؤامرات التصفية السياسية فقط بل والارهاب والقمع والمطاردة الرجعية٠ ان هذا الموقف يأتي مع تفكك علاقات المقاومة بجماهيرها الناشئة عن السياسة الخاطئة التي مارستها قيادات المقاومة منذ مذبحة سبتمبر ١٩٧٠ ، وعن الطبيعة الماضية الضعيفة للعلاقات السياسية والتنظيمية التي سادت صفوف المقاومة وكانت عاجزة بالطبع ، وكما ثبت عمليا ، عن مجابهة مثل التحدي الكبير في سبتمبر الماضي ٠ ومع التهديدات اليومية التي تشكلها مواقف السلطة لحياة المواطنين ، والحالة النفسية اليائسة التي بدأت تخيم على اذهانهم اثر عجز المقاومة عن مجابهة التآمرات العالمية والرجعية ، لقد آلت المقاومة الى قناعة تبدو تامة ، عبر تكرار الصدام مع النظام الاردني ، وعبر تصريحات مسؤوليها اثناء وبعد هذه الصدامات ، بتخلي الدول العربية عنها وعجزها عن دفع الاخطار المحيطة بها ، وبسبب تركيب المقاومة واوضاعها فانها تدرك ان اقامة علاقة جيدة مع ج٠ع٠م٠ ما زالت الظروف مساعدة لها ، والتمسك بهذه العلاقة يمكن ان يوفر لها ولقياداتها اساسا حماية لتستمر في وجودها ونشاطها السياسي ٠

ان هذه العوامل يمكن ان تفسر خطوة المقاومة الاخيرة ٠

مع ذلك فان هذا البيان الذي يفصل بتعسف بين موقف المقاومة من الحل السلمي وموقفها من الدول العربية وسياساتها ، يعتمد ، في تبرير نفسه امام الجماهير ، على تحويرات لفظية فقط ، ويتجاهل كل الوقائع والحقائق التي اكدتها مسيرة المقاومة الفلسطينية ووعتها الجماهير ٠ ان المقاومة لا تستطيع ان تغمض عينيها عن تناقضاتها مع

الدول العربية ، ولا تستطيع ، في امتحان حقيقي للقوى ، ان تقاتل اعتمادا على تحالفات واهية • ببساطة فان طبيعة التحديات القائمة والصراعات العنيفة الناشئة عنها لا تقبل اي زيف • ولا تستطيع المقاومة ان تنسى أن الموقف الصارم من الحلول السياسية بادرت اليه الجماهير وعبرت عنه عمليا ودفعت اليه فصائل المقاومة •

وهذا موقف مستمد من طبيعة نضال الجماهير الطويل منذ نكبة ١٩٤٨ وطوال المراحل التي تلتها حتى الان ، ومن الحياة البائسة للجماهير • لقد دأبت المقاومة منذ الضربة القاصمة في سبتمبر ١٩٧٠ في الاردن على انتهاج طريق متصل من التراجعات السياسية والعسكرية ، حتى آلت الى مواقعها التي تقف فيها الان عاجزة مشلولة •

ان ما تمثله مواقف قيادات المقاومة الان في غاية الخطورة على مستقبل النضال الجماهيري ، تكتفي باصدار البيانات التي تشجب وتستنجد وتهدد احيانا ، والتي بدأت الان تتجاهل الحقائق وتتنصل من قناعاتها التي كرستها التجربة لتمارس عملية تضليل فكرية بدل ان تقوم بتوضيح شامل وصريح لطبيعة المرحلة الراهنة •

وهي في ذلك تكرر نفس الاساليب التي اتبعتها قبل هزيمة الاردن وحصدت نتائجها الجماهير وحركتها النضالية ، ولذلك فلا يبدو انها تعلمت منها •

ان المطلوب من المقاومة ان تدرك ان القتال الثوري لا يمكن ان يقوم الا علـى اسس صحيحة ، والا على علاقات ثورية فعـلا مع الجماهير • ان استمرار هـذا التخبط السياسي لن يؤدي الا الى حصاد الريح • اما استمرار الضيــاع في المتاهـات والصراعات التعصبية الصغيرة ، واظهار المسائل على غير حقيقتها فلن يجـدي حتى ولو كان تحت راية الكفاح المسلح •

وواجب القيادات اليسارية ، واجب القيادات الثورية ، ان تبادر بطرح حقيقة الواقع والقوى المختلفة ومواقفها امام الجماهير وان تندفع لتعميق دروس النضال واغنائهـا وبذرها في اذهان المواطنين لا تغطيتها •

قناع جليل حيدر

جبتُ بغداد كثيراً ولقد شاهدتموني في جميع الأمكنة
كان لي وجهٌ أليفٌ تعرفونه
وأنا أعبركم كالمزلق الآليّ ، أهوي ، ثم اعلوكم بقامة
جبتُ بغداد كثيراً ولقد شاهدتموني في جميع الأمكنة
مرةً : في الوحلِ ، في المخملِ ، في منظومة الثورة ، في الخوف من السلطة ،
في المبغى وبين الكهنة
مرةً : عبر قناع العري (منذوراً أنا للعري كنتُ)
وعلى كفيّ قناني الخمر تحمرُّ وعاري يتخطّى العاهرات...
وأنا أمسح وجهي براسيم الحكومة
مرةً : في جنح عصفورٍ مرقتُ
وقناعي الق العينين في غيمة أفيونٍ نقيّ
وأنا اسكب مسك الحلم شعراً في حقول الانخطاف
نفَسي يخرق ستر الخدَر المخبوء في الليل الصديق
وحديثي : لغة الضدّ التي يجهلها الشاعرُ نفسه !
جبت بغداد كثيراً
ولقد شاهدتموني في جميع الأمكنه
غير أني كنت كمّامةَ غاز حذره ،
إذ اخاف الكشف عن وجهي لكم
واصفيّ عبرها هذا الهواء البشريّ ،
ثمّ أسري مَلَكاً... في وجهِ ضفدعٍ !

وليد جمعه حميد (بغداد)

جليل حيدر

استحضار لأرواح الأسرى

١ - مدخنة سرية

خشيةَ قتل الأصنام انتخبوني سوقاً للثغور بمحنة عاهرْ
وبخوفي لم أخبر أحداً
فهنا تُستحضر أرواح الأسرى من شرك الحريه
بين سراطين تقرؤني في مدخنةٍ سريّه
أتحنّط ، أو أغزو قرية رأسي
والثورة فاجعة المطرق في تمثال زجاجٍ .
أعرف أني مجزومٌ بعواطف ممنوعه
بينا منبر خوفي يهوي من سقف الخطبه .

٢ - ذئب الصباح

صرخ ذئب الصباح بدهشته الفظّة في وجه الجسد المكوم بإهمال على السرير . كان جسداً طويلاً برأس منفتحٍ كمفكّرة مخيفة الجرأة . يخوض الأشياء دون أن يترك بصماته على السّطوح . وطيلة انسحاب الهواء حوله ، كان يزن رغباته بغربال . إنه يحيا على أشياء ماتت . كأنه لم يولد . لكنه ولد بأعضاء طويلة نحيلة ووجه مقفَل .

٣ - السيد قاف

يلبس السيد قاف قبعة من النوع الذي يلبسه السائقون . مرحٌ منذ أكثر من ألفي عام . إنه إبيقور المتّحد بمراهقة الحب . وفي الأيام الأخيرة أخذ السيد قاف يرتفع فوق هالات رسمية للمشاركة بالفرار . لكنه لن يصمد . إنه باق على حالة السكون المعذب ، وسيكون فراره النهائي بداية كافية لجنونه المستقبل .

(مرة عطس إبيقور العظيم ، وكان الوقت صباح صيف موشوم بالأزهار والفراشات . عطس وانبثق من رذاذه صنبور من الماء المثلج ، ظل يجري في بساتين الفلسفة حتى تمرد أحد الروافد ورفض أن يصب إلا حول نفسه ، وكان اسمه السريالية) .

حبلت السريالية بأبو لينير : وعند تعب أبو لينير من حياة باريس مات ، فولد ، في عام ١٩٦٨ ، السيد قاف . لم يكن يشبهه ، إلا أنه يحب أن يشبهه .

٤ - اللازمة المنفردة

إنه بالتدقيق كما يلي : مجنون، ملتاث بتعاويذه المنسية في الأوكار المشبوهة . يقال عنه عصي (لكنه طيب) .

هامش : ما يزال وحده يتمتم بهذه اللازمة المنفردة في العراق ..
« نجّني من تدبّق الخفاش بمرآة من الذهب ... لأن أبي مات ، عندما قاطعت شفرتيْ المقص .. أتى الليل ، قضمت أظفاري وبدأت أصفر .. لأنهم خوّفوني بالعاقبة ».

جليل حيدر
(بيروت)

مؤيد الراوي

طلقة للعراق ، أحبه كمقصلة

(ونياشين عديدة لرفاقي لأنهم لا يعرفون الفرح)

١ ـ اليوم السابع واليوم الثامن

أرض الأغذية
أرض الاستعارات
أرض ما يتيحـه الرأس المكرر
أرض الإشارات المعوّجة فوق الأبراج
أرض الموضوعات والازمنة
أرض الضرورة المتعالية
أرض أسفاري
أرض الكائنات الذهنية
أرض الجفاف في الهبوط والنوم
أرض الرأس
أرض الأقواس في سحاب الضمـير
أرض المسافات تناسبهـا الجريمة المتفتحة كزهرة
أرض المحاور تبحث عن معجزة
أرض الفرح
أرض السّعادة تمد في الاعتدالات لسانهـا الساخن
أرض المقـدرة وهي تركب القوارب أرض السيارات

أرض القناني والرائحة
أرض العناقيد المبعثرة في ورق الوجـه
أرض الحقيقة المكسورة من الذراع
أرض الملعقة
أرض النصائح تمشي سعيدة نحـو العلاقات
أرض الغسق حينما يطرد النهر من قاعه سهول الأحزان
أرض السجائر والملوك
أرض الصداقات المسجونة والقميص الملطخ جنوباً وغرباً
أرض المدار المقعي في صحف
أرض أسفار غائمة في السرير أرض المسافة
أرض الشكل
أرض الالوان الممنوحة للقادة والجنـود
أرض الجدران المرتوية بالبول
أرض الزهرة الكبـيرة للمرض
أرض الكهرباء النائية عن الفزع أرض التباعد أرض المغفرة
أرض القبعات والنجوم الساحل النوم الرأس الملصقات الشقق التي يسكنها صفار الدم
أرض السبب
أرض الفزع والمزارع النهرية
أرض القدرات تمد فمها للفأس
أرض العقـل
أرض الكنائس المفسرة باعشاب القسوة
أرض القرون الموضوعة في الجلد مثل ثلاث كرات
أرض المناضـد الحجرية
أرض عشـاء الليل والنهار والليل والنهار والليل والنهار الليل الليـل المغتصب بالحرس
أرض الأزمان المخدرة بالبئر والحشيش
أرض الأزمان المخدرة بالمرآة والحليب
أرض الأزمان المخدرة بالأواني

أرض الأزمان المخدرة بمقتضى الحساب وأبواب السلف .
أرض الشعوب الساكنة في فنادق دمي
أرض لا يمكن ان تحمل مقصلة السكان داخل البحر وخارج العنق .
أرض غزيرة في قراراتي أصوبها للقمع
أرض المشاجب واللؤلؤ والحزن والرمل والمغفرة
أرض البهجة ، حذاء البهجة بهجة العقل أرض عقـــل ملوك الكهرباء
وكهرباء السجائر وسجائر الغيم الثاني
أرض مرآة الريح في البحر تتسلق تنوعات موتي
أرض وعودي الحديثة ابلغ بها سلطة الوحدة
أرض الفصل
أرض المسافة (التي قلتها) مكررة تجاه أقاليم الطفل
أرض الدوار المبتدأ
أرض الكيلومترات في الرائحة والماء أرض التجرد من المشاركة
أرض التحول عن حقائق الفرح
أرض الدهشة
أرض النمو الطبيعي لارشادات النوم
أرض جسدي المميز لنظريات العشق
أرض امثلتي الصالحة للأقتراب من حالات الخيانة
أرضي : انشطر فوق اوهامها المحدودة تصنع لي سفينـــة تتغذى بالنوم بينما
اكتشف في دمي رواداً يصنعون لتحوّلي قامة الموت
هذهِ الأرض ، مميزة العطب ، ملائمة لقرارات الطغيان كا للوهم

أرضـــي
مسقّفـــة
بأعضـــائي
الفائضـــة

تستوعب الشرق والقطب الشمالي ، مثلما تأكل رأسي
الجزأ لدى الطيورِ والقادة .

٢ - استمرار

متقدماً نحو أطيافي الموضوعة في انتظار
مخيلة البحر تأتي الي المخيلة في كف
تفتح أجنحة البراءة ريفاً
أو لا تكون احتمالات الوهم غير مقصلة .

٣ - الاستمرار الثاني

بيضاء هي براءة الصَّدَف ، وفي تأملاتنا صحون النهار تنتزع
رقبـــة
أبيض هو الميل نحو الاشياء
الموضوعة في المسكن : بيت الرأس المغامر في الهواء .
أبيض هو الليل المحمول بالسفن
والموت اكثر بياضاً من
سحـــاب
أعيننـــا
أبيض هو المشي في النهر
وزهرة كبيرة للتعب في اليد (شظية البراءة)
تحدث في علاقة الاشياء .

٤ - اقتراب الوهم

ذات صباح كررت الأسماء ؛ لأنها محكمة ، تلتقط
الاشجار من ليلها . كل سلطة تهزم فرح علاقتي .
ذات صباح هيأت لبقائي قمر الأفواه الساخنة فوق
حقائب الساعـــات
ثمّ تنائيت في دفتر حلمي .
فوق منضـــدتي
نيّة مؤجلةٌ للخيانة

تبحث عن اتجاهات
يقتضيَ اذن أن تكون الجريمة مطابقة للاسم المنحوت في صورة الهواء والصوت
المنتصب كغابة
أيتها الاسماء المخترقــــة
بالصمت ، هويتي افتراض في الزمن الآتي .

٥ - نية للمغادرة

ألتقي مع من ، أيتها الاوطان النامية في
صحون الهـــواء
ألتقي مع الحقد . وقد امتلك صورتي المؤجلة
وتلطـــخ بمن يستحمون في المدن ؟
أســـافر ؟
سفناً ؟ قبطاناً ؟ مكتشفاً ؟ ترتعـــد
عظام الطيور بعد فضاء السّواحل ؟
ألتقي لابعثر موانىء الاسماك والتماسيح ؟
عقلي مـــاء
ومجاديفي مؤسســـات القرون
ألتقي مع من أيتها المرأة الشجرية ؟
فيما تتبعثر أسناني
داخل شبكة وريح
وحيداً مع القيـــد الغامض .

٦ - قرار

هـــذه الطلقة سيئة الادارة
سوف أضعهـــا في كل العواصم
وأخرب عاصمة قلبي .

مؤيد الراوي
(بيروت)

سمير الصايغ

اورغانون الرغبة والاتصال

I

هكذا انوجدت
مدهوشاً ومؤتمراً بها (الرغبة سؤال ونهر يجري) (الرغبة معنى) وامتـد الخيط ضوءاً وقفت في طرفه (الرغبة طرف الخيط) حيث اللذة خطف الرؤيا (الرغبة لحظة وقوع الثمرة عن الغصن)

هكـــذا
(الرغبة حدودي وسفينة للإبحار في الفيض)
هكذا انوجدت
أهديت المبدأ لأهدي التفسير (المبدأ سؤال والتفسير جواب والذات المسافة)
هكـــذا
(والتفسير ابحار المبدأ في ذاته)

II

الكلام سفري في الزمن خطواتي صوب السكون (اعرف ان ما ترسمه لي هو ماضيك وفي صمتك يختبىء الآتي) (اعرف انـــك تخبرني عن صفات سقطت عنك وفي صمتك صفاتك)

الكلام تجسد المائت فينا موتنا المتساقط مسافة العتمة بيننا الكلام حاجز

حاجز اقامته رغبتنا في التفرد
(الذات فلك الأنا الوحيد فلك هلامي تائه ...)

الكلام لذتنا في الفراق والعزلة نتلاصق ولا ننصهر ونغضي في نفق واحد .
(اننا نقيم في طرفي المسافة)

الجسد صديقي ظل الآخر الغائب دائماً اراقبه ينمو احنو عليه واحميه من اظنه عدواً او هاوية لئلا افقده واصبح وحيداً الجسد هاجسي عذابي قلقي اضمر له في السر اعجابي واسر لجنونه (عندما تملؤه الشراسة ويندفع خارج حدودي . يتمرد) وسروري أمل في عودته طائعاً وأمل لأنسى ماضيه . اقيمه في حاضري طيعاً (ازينه بأملي وامضي أحنو عليه واحميه)

يمثل
أفرح به طفلا سينمو ويكبر على نوايا رغبتي وأطمئن لانتصاري .

ثم
انزع عني خوفي اقسو عليه اوقظه اعذبه في يقظته . وكلما الف ذاته وركن إليها ادفعه عنها لئلا يسقط

(يتخمر امام نوايا الرغبة يدخل حركة الزمن يألف زمنه ويركن اليه)

انها المسافة : التوق الى الخروج من الوحدانية

(اقيم بيني وبينك المسافة .وأتوق ان اتوحد فيك . احن وادمن امل الوصول اليك)

ويملؤك الغم لأنك لست الوحيد في العالم متفرداً به ملكاً وسيداً على عطائه ولأنك لست القادر على محوه لكنك تبقى في المسافة وابقى على بعد منك ندور ونطوف حول الزمن . خطواتنا تاريخ لخط الدائرة في الطواف وشهادة للشوق في الانفلات .

III

سكون
اهبط فرحاً في الكلام
أجلسكَ حيث اراك عن قرب واتجه اليك

انتَ المقيم في ذاتي .

ثمرة وشجرة :
حنين الثمرة الى النوم القديم في احضان العصـــارة
وحنين الشجرة للفرار من احلام الجذور

ثمرة وشجرة سفر واحد في البذرة حيث السكون قبولي وقبولك المنتصران للكلام .

مـــاء ونهر :
الماء التائه عن المجرى نحو حريته الذاهب خارج حدوده التي يرسمهـــا في تدفقـــه
والنهر المسافر الى الداخل انتظاراً للدخـــول
ماء ونهر في النار طريقنـــا الى نهار الأرض

سكون
اكون فيكَ وتكون فيَّ كلاماً عن الانحناءات التي رسمناها في دوراننا حـــول النار جرمنا الخفي نصوغ في صمتنا شكل الانحناءات التالية

سكون
ونستيقظ لنروي الماضي :
أصل إليكَ في السير فيَّ . احضنك وأنت الفرار .

IV

أجيء بالماء والطين : أمزجها برؤاي ، اعجنها ، ثم أخبزهما لكِ (اليس جميلا ان اخبز لك حبي ؟) بعدها ارسم لكِ حدوده عندما لا ترينه في الطرق المرسومة له في الكتب والسير . واقول : انه غريب عما تخبّر عنه الآيات . وتقولين انه موج البحر يغمر . يغرق . وانه افق مفتوح . واقول : انه صخر محار مغلق . وانه طرف الخيـــط يذهب في استقامة الضوء وينحني كالدائرة . (تفرحين عندما ترينه ينساب بين يديك يلمع كلؤلؤة قذفت خـــارج الزمن الى التوحد في اللمعان) واقول : انه الفيض يحزن لأنه يجرف معه المـــدن والأماني الماضية ويكسر اعناق الازهار . وانه يضيء ... وتقولين : انه يغيّر وجـــه المسافات يروي الأرض ويشبـــع جوع المسام . واقول : انه عندما يغيب يقف في صمته ليروض جنونه لئلا يقتل نفسه . (تفرحين متى يعود هادئاً — تنسـين

حزنك وتاريخك – يجينك عابقاً كالصباح) واقول : انه عرفك قبل ان تكوني ونسي وجهك حين كنت وانه يرى في وجهك الجديد ظل وجهك القديم ...)

أهز جسدك – جسدك الجذع والجرة والريح خاضاً زبد الحزن الطائف فوق عينيك،أمسحه واهوي الى القاع.(يقيم بين الفخذين مقنعا يحجب الأسرار ويأسر اللغة عن الانطلاق خارج الغابة . اهوي لأنزع الأقنعة واصادق الغابات واحدث ... لكني اوثر الصمت من فرط الدهشة).

وأقول : ان زمنه جن . وتقولين : لنرسم لنا طريقاً طويلة ونرسم نقطة بعيدة جداً تكون حداً لنا نقف عندها ونموت . نتجه نحو الهدف تحت الظل ومع الماء والموسيقى . وفي الطريق نبذر في الحقول اطفالاً ينمون على خطواتنا ويتغذون من اصواتنا المحفورة على الصخور...وسأبقى لك . واقول : يا حبيبتي لقد وصلنا من زمن بعيد ، وها حبي يركض في الموت . الأطفال يزرعون الطرق واصواتنا رعد في المغاور وانت الباب يطل على الهاوية .

(ارسم الفرح على جسدي وادهش بالضوء المنبعث مني . يأسرني الرسم والجسد . أترقب الطوفان في قلق الذات المضيئة .

كنت امنح نفسي للماء وافتش عن المزبد مني لأرميه في نارها . لقد ابتعدت كثيراً عن الخطوة الاخيرة ولم اعد ارسم على الضفاف شكل الماء . صرت الماء يرسم خطاي على الضفاف).

V

هبط الطفل الى محور المسافة (رغبة في الرقص) يتحلق الناس حول الطفل ويطوقونه بالنظر (النظر جاذبية تشد المسافة والطفل) وفائدة الرقص هنا هي قدرة الجاذبية على الاحتمال .

رقص الطفل ، خاف الناس ان يتعب ،(تعب الطفل على خطوط النظر وانهارت الخطوط الاولى للجاذبية)

والطفل ما يزال يرقص في محور المسافة (انزلقت المسافة عن دائرة النظر وسبحت في فضاء الرقص) وبكى الناس على الطفل (لانه تعب ومات) لكن الطفل أفلت من الجاذبية الى الرقص في مطلق المسافة .

سمير الصايغ
(بيروت)

رياض فاخوري

ضمير الغائب

١ – السقوط

لأنني سأسقـــطُ :
أعيدُكُمْ تميمةً ونورساً ،
أزيحُ عن وجوهكم ما يمّحي ،
لأنني سأسقطُ ...

٢ – الاحجار

أحجـــارنا !
رأيتِها ، في اول الخريفْ
تبـكي وخلفَ ليلها يختبىءُ الرغيفْ
مرّت هنا .. احجـــارُنا
لم يبقَ في الرصيف
الا الخطى وموتنا وصفرة الخريفْ .

٣ – البحر

تركتُ هذا البحرْ

قلتُ له اراكْ
في قبريَ المغطّى
بشوكه ،
وهِمْتُ في جزيرتي ...

تركتُ هذا البحرْ
سوّيت من كنوزِهِ
قصائداً
صنعتُ من صلصالهِ
اصدافكِ الصديقهْ
كتبتُ فوق مائه :
« انتِ هنا الغريقهْ ... »

٤ – العبور

عبرتَ الفَ شاطىءْ
عبرتَ كلَّ شيءِ
وانتَ في غيابِ
عبرتَ حتى اللهْ ...

٥ – اغنية

جعلتِ لي من جسدي مغارةً
أضمّها ، واعجنُ الكلامْ
من أبدٍ يضيئني
من خالقٍ ينــامْ
في سُرّةٍ غريبةٍ
ليسَ لها مكانْ .
جعلتِ لي من كوكبي
معابراً ...

جعلتِ لي اشياءَ لا اريدُها
اريدُ ان اكونْ
كصرخةٍ طليقةٍ
تحيي بيَ الجنونْ .

٦ – سقوط الشاعر

يسقطُ خلفَ يأسهِ
(وانتِ خلفَ يأسهِ
أمـــيرةٌ تزيدُهُ محبةً
تضيئُهُ ...)
يسقطُ خلفَ يأسهِ
يمرُّ في الحروفْ
والليلُ في جفونهِ
ككوكبٍ ، يطوفْ
يسقطُ خلفَ يأسهِ .
تنطفىءُ الحروفْ .

٧ – بشارة الموت

الغيومُ استحالتْ حجارهْ
والنجومُ مرايا
ودمي صارَ آيهْ

إنني مقبلٌ بلونِ القبورِ – ابدأي يا نهايهْ !

رياض فاخوري
(بيروت)

آخرة الوحشة

« الى هـ »

أبني معكِ الليلة باباً
كي ندخله في آخرةِ الوَحشَه ؛
تمتدُّ به ظلتَينِ ، ونسمحُ للنور العابرِ ان يُوقِفنا ، نحن الإثنينْ
تتلمّسُ رعشتنا بأناة المخذولَتينْ ؛
وبقايانا ، ليبلَّ الواحدُ منا عطشَـه .
تتلمّس لائحة الموتى : هل نحنُ هنـا ؟
طرفُ السبّابةِ ضيّعنا .
نرتدُّ دوائرَ ، مأخوذَينِ بجاه الخوفْ ،
لا يجدُ المتعبُ منا متكأً إلا نعشَه .

واراكِ صدىً يتخبّط في احشـاءِ التّيهْ
« الطارقُ والبـابُ .. المطروقُ .. انا .. »
فأحنُّ الى بابِ ابنيهْ ،
كي ادخلـه ، في آخرةِ الوَحشَهْ .

فوزي كريم

فادي نون

الاتحاد الحر

البذار يموت تهجرُه رؤوسُنا
والمخابىء الثانوية التي تجابهنا
تُتلف المملكة المتحدة لعزلةٍ شاهقة .

انزلقُ باستطالةٍ من سماءٍ تحكمها الشمس ، في إثر قميصٍ مفتوح حيث
الماء الخفيف ، كورق الشجر
وعيناك تلامسانِ عيني ، ثم اعودُ إلى جسدي السعيد
هذه العودة المضنية الى الينابيع بعد ان عجزت يا سيدتي عن تصور
بيت دون إناء للجيرانيوم على النافذة ،
الجيرانيوم الاحمر ، بلون دمك ، حين يختم على حبنا بين النهار والليل .

*

النقص في هذا العالم يُحرّض الاغبياء لكنه لا يُوفّق في جعلهم سعداء ،
ان كنت تحدثينني عن العصافير ، استطيع ان اتعلّم الغناء دون ان
اضمن جودته ،
لكن بجهود البرْقِش الذي يكشف عن غصن المشاعر الممدود ،
الغصن البِكْر الذي يُعير اسمه لاتحادنا دون ان يمنحه ،
نحن صيفٌ بلا اغصان لوردة الرياح في هدأة الريح

*

بعد قليلٍ يصفر عامِلُ الحلمُ ويعلن تكراراً رحيل القطار ذاته ،
قطار الحب دائماً

بصافرةٍ فضيّة هي بـين ادوات الموسيقى
كالاقحوانة بين مملكة الزهر .

*

نصفر كالمختار في مفتاح الحقول
نتبادل الحب من وقتٍ طويل فغلائلكِ ، هذه اللحظة التي اتكلم فيها
اصبحت ابدية وبيضاء ،
وكيف احفظ وقاري بعصا السائح
لم اعد ارى خط الافق ، يا حبي الوعر .

*

« اين انا ؟ » صرخت الورقة دون ان تلقى جواباً
نافذة سماء تصدم الشجرة
بمحاذاة نهرٍ بلا فائدة بجانب القرميد الذي يستمر في سد مجراه خفية
دخلنا في ماء كحلم البقاء في اعماق البحر
حين نتعانق من اجل ان نولد في النهار الذي يرشح وراء الزجاج المعتم .

*

فرّي كالعصافير ايتها الابنية
الزمن الذي يتكلم فينا يرعبنا نحن المسافرين
يجعلنا نتلاشى كنجوم لا تحصى تتلاشى كل يوم .

*

الحياة متاهة من اجل ان نفتح عيون الارض حيث نقـذف ، طوال
الليالي شهباً مضيئة ،
نحمي من الاخطار الجديدة شعباً من الحمام يلبس اجسامنا
من اجل ان نجابه مليار السنوات التي تفصل بين الخطين الحديدين المتوازيين ،
اللذين يجب ان يلتقيا لـكي يحافظا على ما سيكون لنا من الاجدّ الاجدّ
كل ما يمضي من الشعر دون ان يرى بعد موتنا
مركز فرز لصرخات اللقاء بين رأسينا الذائبين في الليل الأزرق .

هادي نون
(بيروت)

(نقلها عن الفرنسية أدونيس)

سان - جون بيرس

أنا الحامل عبء الكتابة ، سأمجد الكتابة

I - وانت ، يا بحار ...

١

وانت ، **يا بحارا** كنت تقرأين اكثر الاحلام اتساعا ، هل ستتركينا ذات مساء الى منابر **المدينة** ، بين الساحة وقضبان النحاس ؟

اكثر بحبوحة ، أيها الحشد ، مجلسنا على هذا المنحدر من عصر لا زوال لـه : **البحر** ، هائلا وأخضر كفجر في شرق الناس ،

البحر المعيّد على حدوده كأنشودة حجر : بيرمون وعيد على تخومنا ، صخب وعيد بعلو الناس — **البحر** نفسه سهادنا ، كشهادة الهية ...

عبير الوردة المأتمي لن يحيط بعد ، بسياج القبر ، الساعة الحيّة في النخيل لن تُسكت بعد ، روحها الغريبة ...

في نيران المدى رأيت الشيء الكبير المعيّد : **البحر** المحتفل باحلامنا ، **كفصح** من العشب الأخضر وكعيد يعيّد ،

البحر كله في عيد التخوم ، تحت مُصْقَرته من الغيوم البيضاء الكثيفة ، كمنطقة عبور وكأرض موقوفة ، كاقليم عشب مجنون قومر به ...

أغمر ، ايها النسيم ، ولادتي ! ولتتجه رعايتي الى ملعب الحدقات الاكثر اتساعا ! حراب **الظهيرة** في تمايل عند ابواب الفرح • طبول العـــدم تنحنـي لمزامير الضوء • والمحيط ، من كل صوب ، وهو يطرح عبئه من الورود الميتة ،

يرفع فوق ارصفتنا الكلسية رأسه **الوالي** !

٢

« ... سأبكيكم ، فهذه بيننا نعمة فائضة .

« أبكيكم من النعمة ، لا من الخوف ، يقول **منشد** النشيـد الاجمل ،
ومن هذا الانفعال القلبي الخالص الذي اجهل ينبوعه ،
كما من هذه الهنيهة البحرية الصافية التي تتقدم النسيم ... »

هكذا كان يتكلم رجل بحر ، يتحدث عن رجل بحر .
هكذا كان يمدح ، وهو يمدح الحب وشهوة البحر .
ونحو **البحر** ، من كل صوب ، هذا التدفق من ينابيع اللذة .

« هذه حكاية سأقصها ، هذه حكاية ستسمع ،
هذه حكاية سأرويها كما يليق أن تروى ،
وسيكون سردها من اللطافة بحيث تفرض الاستمتاع بها .
يقينا ، هي حكاية يشتهى سماعها في غفلة الموت ،
وتبقى كما هي ، بطراوتها ، في قلب الانسان الذي لا ذاكرة له ،
كنعمة جديدة ونسيم من مصب نهري واسع لاجل مصابيح الارض .

ومن هؤلاء الذين سيسمعونها ، جالسين تحت شجرة الحزن الكبيرة ،
قليلون هم الذين لا ينهضون ، لا ينهضون معنا ويسيرون ، باسمين
في خنشار الطفولة وامتداد مراكز الموت . »

٣

شعر لكي يصاحب سير انشاد على شرف **البحر** .
شعر لكي يحضر نشيد مسيرة الى محيط **البحر** .
كما يقتحم برج مذبح وينجذب الكورس الى حركة الدور .

وهذا نشيد بحر كما لم ينشد أبداً ، **والبحر** فينا هو الذي سينشده :

البحر ، محمولا فينا ، حتى تخمة النفَس وحتى نهاية النفَس ،

البحر ، حاملا لنا من اللجّ هديرَه الحريري وطراوة كبيرة لحظ غير منتظر في العالم ٠

شعر لتهدئة حمّى سهر للطواف بالبحر ٠ شعر لكي نعيش بشكل افضل سهرنا في غبطة البحر ٠

وهذا حلم بالبحر كما لم يُحلم به أبداً ، **والبحر** فينا هو الذي سيحله :

البحر منسوجا فينا ، حتى أدغاله السحيقة ، **البحر** ، ناسجا لنا ساعاته الضوئية الكبيرة ، وميادينه الكبيرة المعتمة ـ

كل شذوذ ، كل ولادة وكل توبة ، **البحر** ! **البحر** ! في فيضه البحري ، في غزارة فقاقيعه وحكمة حليبه الفطرية ، آه ! في الغليـــان المقـدس لحروفه الصوتية ـ البنات القديسات ! البنات القديسات !

البحر ذاته زبد كله ، كسيبيل المتلألئة على كرسيها الحديدي ٠

٤

تقلّد هكذا ، يا **بحر** ، مديحا بلا اهانة ٠

كن الضيف الذي يليق به ان يخفي براعته ٠

ولن يكون سؤال عن **البحر** ذاته ، بل عن سيادته على قلب الانسان :

كم يحسُن ، في التماس **الأمير** ، أن نضع العاج او حجر اليشْب

بين الوجه الوالي ومديح الغانية ٠

أنا ، في انحنائي تمجيدا لك انحناءً لا ذلّ فيه ،

سوف أستنزف هيبة الجسم وتمايله ،

وسوف يُسكر دخان اللذة رأس المتعبّد ،

وسوف تلد غبطة القول الأجمل نعمة الابتسامة ٠

بمثل هذا السلام نحييك يا **بحر** ، ليبقى ذكره طويـلا كذكـرى خلـقٍ جديد للقلب ٠

٥

... اذن كنت من زمن طويل أتذوق طعم هذه القصيدة ، مازجا بأحاديثي اليومية هذا الاتحاد كله ، بعيدا ، بألق بحري كبير — كما في طرف غابة ، بين أوراق الصمغ الاسود ، الطبقة المفاجئة من الزرقة والسماء المتحجرة : قشر لامع ، بين عقد الشبكة ، لسمكة كبيرة مأخوذة بخياشيمها !

ومن اذن فاجأني في حديثي السري ؟ وكنت محروسا بالابتسامة واللطافة ، أتكلم ، أتكلم لغة غريب بين أقربائي — ربما في زاوية **حديقة عامة** ، او قرب سور حديدي ، **لدار ما** ، مطعّم بالذهب ، وجهي مائل ، ونظري **بعيد** ، بين عباراتي ، نحو عصفور يغنّي نشيده فوق **ادارة المرفأ** .

ذلك أنني منذ وقت طويل أتذوق طعم هذه القصيدة ، وكان من اليمن أن أنقطع لها : مغزوًا ، محاصرًا ، تهدّدني القصيدة الكبيرة ، كما يهدّد محلول اللؤلؤ ، وديعاً ، في تقاطرها وراء منتصف الليل ، في التموّج البطيء لامواج الحلم ، حينما تسحب اللجّة بليونة حبال المراكب .

وكيف خطر لنا ان نبتدىء هذه القصيدة ، هذا ما كان ينبغي قوله . لكن الا يكفي كوننا نرى فيها لذّتنا ؟ ولكم كان حسنًا ، أيتها الآلهة ،أنني تعهّدتها، قبل أن تسترد منها .. امض ، ايها الطفل وانظر ، في منعطف الشارع ، كيف أن **بنات هالتي** ، الزائرات السماويات الجميلات في ثياب **الكاهنات** ، تمسكهن في الليل صنارة الزجاج ، متحفزات للهرب عند المنعطف الاهليلجي .

الزوجة بعيدا متعة ، والزواج سرّي ! نشيد العرس سيكون لاجلك النشيد ، يا **بحر** : « نشيدي الاخير ! نشيدي الاخير الذي سيكون نشيد رجل البحر ... » وغير هذا النشيد ، أسألك ، من كان سيشهد **للبحر** — **البحر** بلا عمد ولا أروقة ، بلا طرق تحيطها القبور ودون قلاع مروّقة ، **البحر** دون تماثيل مجد في ارصفته الدائرية ، ودون صفّ من الحيوانات المجلّلة بالأجنحة في الشوارع المقوّسة ؟

أنا الحامل عبء الكتابة ، سأمجّد الكتابة . كمن قدّم نفسه ، عند القيام بعمل نذوري عظيم ، لتدوين النص واعلانه ، والتمسته **جمعية الناذرين** ، لانه الاخصائي الوحيد في ذلك . وما من احد عرف كيف ابتدأ العمل : في حي قصابين أو صهّاري معادن ، كما سيُحكى لكم ، — في فترة ثورة شعبية — بين أجراس المساء المنذر باطفاء النور وطبول فجر حربي .

وفي الصباح كان **البحر** الجديد ذو الأبّهة يبتسم له فوق الافاريز .

وها هي **الغريبة** تتمرأى في صفحته . ذلك أنه منذ وقت طويل يتذوق طعم هذه القصيدة ، وقد أولع بها الى هذا الحد . وكان عذبا الى هذه الدرجة ذات مساء أن أنقطع لها ، وأن أستسلم لها بمثل هذا الصبر النافذ . وكانت الابتسامة تمد لها يد المصاهرة ... « نشيدي الاخير ، نشيدي الاخير ! سيكون نشيد رجل البحر ... »

٦

والبحر هو الذي جاءنا على درجات المأساة ، الحجرية :

مع **أمرائه** ، **وأوصيائه** ، **ورسله** المتدثرين بالانتفاخ والمعدن ، **وممثليه** الكبار ذوي العيون المفقوءة **وأنبيائه** الاسرى ، **وساحراته** المدبدبات بقباقيبهن الخشبية ، المليئات الافواه بالخثارات السوداء ، وأسباط **عذاراه** الماشيات في أخاديد النشيد ،

معرعيانه ، مع **قرصانه ومرضعات** الاطفال ــ الملوك ، **ورحّله** القدامى في المنفى **وأميرات** الرثاء ، **وأرامله** الكبيرات الصامتات تحت رماد كريم ، **ومغتصبي** العروش الكبار **وبناة** المستعمرات البعيدة ، **وقساوسته وتجاره** ، **والوكلاء** الناهبين الكبار لاقاليم التصدير ، وكبار **حكمائه** السائحين فوق ظهور جواميس حقول الارز ،

مع مأجوريه كلهم من بشر وغيلان ، آه ! جميع نسل خرافاته الخالدة ، رابطا بهدير حشوده من عبيد وارقاء **لقطاءه** المقدسين الكبار وما عنده من بنات **الفحول** العظيمات ــ حشد معجّل ينتصب على درجات **التاريخ** ويتجه في كتل صوب المسرح ، في القشعريرة الاولى للمساء المشبع بعطر الفوقس ،

انشاد سائر صوب **الكاتب** وصوب شفتي قناعه المرقّشتين .

*

هكذا **البحر** جاءنا بعمره الكبير وأقدم تجعداته ــ البحر كله في هجومه البحري ، دفعة واحدة وقطعة واحدة . ووصل الينا مثل شعب جديد اللغة ، مثل لغة جديدة العبارة ، ناقلا الى موائده النحاسية أوامره السامية ، بتهيجات كبيرة وانتفاضات لغوية كبيرة ، برونق عظيم من الصور ومنحدرات الظلال المضيئة ، منطلقا الى مباهجه الهائلة باسلوب رائع مدور العبارة ، حتى أنه في نيرانه الشديدة من الحراشف والبروق ، وفي قلب العصابات البطولية ، ــ

حتى أن **البحر** المتحرك الذي يتبع انزلاق عضلاته الضخمة الشاردة ، **البحر** الدبق الذي يزلج كغشاء الرئة ، بفيضه البحري كله ، تقدم نحونا في خواتم عرّافه الاسود ،

كشيء هائل يتقدم صوب المساء وصوب الجموح الآلهي ٠٠٠

*

وكان الغروب ، في الارتعاشات الاولى للمساء المثقل بالاحشاء ، **حينما** ، على الهياكل المنقشة بالذهب وفي **المسارح** القديمة السبك المثقوبة بالضوء ، استيقظ الروح القدسي في اعشاش البوم ، وسط النمو المفاجيء للنباتات الجدارية الوفيرة ٠

واذ كنا نجري الى ميعاد احلامنا ، فوق منحدر عال من الارض الحمراء مشحون بالقرابين والماشية ، واذ كنا نسير فوق أرض التضحية الحمراء المزينة بالتوابل وأغصان الكرم ، كجبهة كبش تحت اهداب الذهب وتحت الاوشحة ، رأينا هذا الوجه الاخر لاحلامنا يعلو : الشيء المقدس في مستواه الادنى **البحر** ، الغريب ، هناك والساهر سهر **الغريب** — الذي لا يسالم ، والفريد الذي لا يتزاوج أبدا — **البحر** التائه الاسير في شرك تيهانه ٠

كان لنا ، ونحن نرفع اذرعنا لنسند « آهنا ٠٠٠ » ، كان لنا صرخة الانسان هذه على حدود الانساني ، كان لنا ، على جبهتنا ، خدمة القربان الملكية هذه ! **البحر** كله دخان من نذورنا مثل دنّ من المرارة السوداء ، ومثل قصعة كبيرة من الاحشاء والاكارع في ساحات **الكاهن** المرصوفة !

كان لنا ، كان لنا ... آه ، قولوا أيضاً ، هل كان حقاً كذلك ؟ كان لنا وكانت أيضا مثل هذه الابّهة من المرارة ومن الخمر السوداوين ! **البحر** أعلى من وجهنا ، في علو روحنا ، وفي فجاجته التي لا اسم لها والتي بعلو روحنا ، كل جثمانه النزق فوق طبل السماء ،كما فوق جدران الخزف المهجورة العالية،

فوق أربعة اوتاد خشبية ، يتمدد ! جلد جاموس مصلوب ٠

*

٠٠٠ ثم ألم نر الى أعلى وأعلى ، **البحر** أكثر علوا بمعرفتنا ،

وجها غسله النسيان في امحاء الاشارات ، حجرا تبرأ لاجلنا من نتوئه وهيجانه ؟ — والى أعلى وأبعد ، **البحر** أكثر علوا وأكثر بعدا ٠٠٠ الصفحة اللينة المضيئة اللا اشارية الخالصة من كل رقم قرب ليل الاشياء الذي لا يضيء؟

آه ! أية شجرة من الضوء كان نبع حليبها يتفجر هنا ٠٠٠ لم نرضع ذلك الحليب ! لم نكن مرشحين لتلك المرتبة ! وكانت رفيقاتنا اللواتي يشبهن سحابات الصيف بنات فانيات ، منخورات الجسد ٠٠٠ احلم عاليا ، ايها الحلم ،حلمك — حلم الفاني الخالد !٠٠٠ «آه ٠٠٠ : ليقترب **كاتب** وسأملي عليه ٠٠٠»

هل هناك **وال** أوكل اليه تنظيم اللعب والاعياد حلم مثل هذه الاحلام ، بالفضاء والراحة ؟ ومن بيننا كانت له مثل هذه الرغبة في أن يحيا بهذا العلو ،

اليس هنا ، ايتها الالهة ، ما كان يميزنا ؟ لا تنطبقي أبدا ، أيتها الاجفان ، ان لم تقبضي على لحظة عدالة كهذه ! « آه !ليقترب اخر وسأملي عليه ٠٠٠ »

السماء التي تصير بزرقة النورس تعيد لنا حضورنا ، وفي الخلجان المهاجَمة تمضي ملايين مصابيحنا من القرابين ، تائهة ــ كما حين يُرمى كبريت الزئبق في اللهيب لكي يمجد الرؤيا ٠

*

اذ انك ستعود الينا ، أيها الحضور ! في ريح المساء الاولى ، بجوهرك وجسدك وثقلك البحري ، يا صلصالا بلون الاصطبلات والموائد الحجرية ، ايها **البحر** ــ بين البشر المواليد واقطارهم من السنديان الضخم ، انت **بحر** القوة والكد ، **البحر** المعطر بعطر الفوسفور والاحشاء الانثوية ، في سياط الخطف الغليظة المتكبرة ! **البحر** الذي يمكن ان تأسره نار اجمل افعال الروح ! ٠٠٠ (حين يكون **البرابرة** في **القصر** لوقت اقامة قصير جدا ، هل يزيد الاتصال ببنات المماليك بمثل هذه الشدة صخبَ الدم ؟ ٠٠٠)

« اهديني ، ايتها اللذة ، صراط كل بحر ، في ارتعاش كل نسيم حيث تنشط اللحظة ، كعصفور يرتدي **ثياب اجنحته** ٠٠٠ أسلك ، أسلك طريقا من الاجنحة ، حيث الكآبة نفسها لم تعد الا جناحا ٠٠٠ الوطن الجميل دان ليفتتح ثانية ، وطن **الملك** ، الجميل الذي لم يره منذ الطفولة ، ودفاعه كامن في نشيدي ٠ مر ، أيها الزمار ، بالعمل ، وبهذه النعمة من الحب الذي لا يضع في ايدينا الا سيوف الفرح ! ٠٠٠ »

وانتم ، من انتم اذن ، ايها **الحكماء** ! ان كان غنى البحر ما يزال يغذي، في فصله ، قصيدة عظيمة خارج التصور ، فهل ستأبون علي بلوغها ؟ ارض سيادتي ، والتى ادخل اليها ، انا ! دون أي خجل من لذتي ٠٠٠ « اه ! ليقترب **كاتب** وسأملي عليه ٠٠٠ » ومن اذن ، من ابناء الانسان ، من يقف دون خطيئة الى جانب فرحي ؟

ــ أولئك الذين يعتبرون ، بالولادة ، خبرتهم فوق المعرفة ٠

II - من سيد النجوم والملاحة

من **سيد** النجوم والملاحة :

« سموني الغامض ، وكان حديثي عن البحر ٠

السنة التي اتحدث عنها هي **السنة العظمى** ، البحر حيث اسال هو **البحر** الاعظم ٠

انحناء على شاطئك ، جنون ، يا **بحر اللذة الاعظم** ٠٠٠

الوضع الارضي بائس ، لكن ملكي هائـــل على البحار ، وغنيمتي لا تحصى فوق موائد ما وراء البحر ٠

المساء المزروع بالنقود المضيئة

يبقينا في شاطىء المياه الكبيرة كما تبقينا **آكلة الخباز على طرف غارها** ،

تلك التي اعتاد **الربابنة** الشيوخ الذين يرتدون ثيابا من **الجلد الابيض** ، ورجالهم العظام المحظوظون حاملو الادوات الحربية والكتابات ، عندما يقتربون من الصخر الاسود المزين بالقباب ، ان يحيوها **بهتاف بار** ٠

أتبعكم ، أيها **المحاسبون** ، وانتم يا **اساتذة العدد** !

آلهة خفية مخادعة ، اكثر مما هي ، قبل الفجر ، **قرصنة البحر** ؟

تجار الاوراق المالية البحريون ينخرطون بغبطة

في التأملات البعيدة : المراكز تنفتـــح ، عديدة ، فـــي نار الخطوط العموديـــة ٠٠٠

اكثر من **السنة** الطالعة الفارية المفتوحة في آلافها ، يحيـــط بي **البحـــر** الشامل ٠ الهاوية المرذولة نعيم لي ، والانغماس فيها ، الهي ٠

والنجمة التي لا وطن لها تشق طريقها في مرتفعات **العصر الاخضر** ،

وامتيازي على البحار هو أن أحلم لكم هذا الحلم عن الواقع ٠٠٠سموني **الغامض** وكنت أسكن البرق ٠ »

❋

« تقدم ، يا سر العالم ٠ ولتات **اللحظة**

التي نقبض فيها أخيرا بأيدينا على الرتاج ٠٠٠ في الزيت المقدس رأيت النقود الكبيرة تنساب جارية من مصنع الساعات السماوي ،

والراحات الكبيرة الضاحكة تفتح لي دروب الحلم الذي لا يقنع ، ولـــم أخف من رؤياي ، بل طمأنتني الدهشة ، فأبقيت عيني مفتوحة لهذه الحظوة العظيمة ، في التملق ٠

يا عتبة المعرفة ! يا مدخل البرق ! أثر خمرة شهدت ولادتـــي ولـــم تعصر هنـــا ٠

البحر نفسه هتاف مفاجىء ! ايها **البحر** المصالح ، ايها الشفيع الوحيد !

صرخة عصفور على الصخور والنسيم يركض الى مقره ،

والظل يعبر من البرقع الى تخوم الحلم ...

أقول كوكب يقطع قيده في زرائب السماء . والنجمة التي لا وطن لها تشق طريقها في مرتفعات العصر الاخضر ... سموني الغامض وكان حديثي عن البحر . »

❋

التحية لكلامك ، ايها الربان . ليس هذا لعين الجسد ،

ولا للعين البيضاء المهدبة بلون أحمر يرسم على حاجز السفينة . حظي في تملق المساء وفي نشوة البصير الزرقاء حيث يدفق التنفّس النبوي ، كلهب نار خضراء في نباتات الصخر .

أيتها الآلهة ! لا حاجة للبخور ولا العطر فوق مواقد النار ، في اطراف القمم العالية ،

لنشهد الفجر الكبير الديلوسي ، يسير على المياه ، قبل النهار ، بخطى أنوثته ، وتحت براقعه الرقيقة ..

ـ الاشياء كلها قيلت في المساء وفي تملق المساء .

وانت الذي تعرف ، يا حلما لم يخلق ، وانا ، المخلوق ، الذي لا يعرف، ماذا نفعل على هذه الشواطىء غير ان ننصب لليل شباكنا ؟

واللائي يستحممن في الليل ، على طرف الجزر ذات القباب ، يطوقن جرارهن الكبيرة بأذرع عارية ، ماذا يفعلن ، غير ما نفعله نحن ؟ سموني الغامض ، وكنت أسكن البرق . »

III ـ جاءت النساء التراجيديات ...

جاءت النساء التراجيديات ، هابطات من الميادين .رفعن سواعدهن تمجيدا للبحر : « آه ! كان تدشيننا افضل بخطوة الرجل فوق الحجر !

أيها البحر الذي لا يمكن افساده ، يا بحرا يحاكمناه ! آه ! احسنا ظننا كثيرا في الرجل تحت القناع ! ونحن اللواتي نقلد الرجل بين التوابل الشعبية ، الم نكن نستطيع ان نتذكر على الرمال هذه اللغة العليا ؟

عباراتنا ديست على ابواب المدينة ـ باب الخمر ، باب البذار ـ .

البنات يجرن الى النبع شعرنا الاسود المستعار الطويل ، وريشنا الثقيل الممزق ، والاحصنة تشبك حوافرها باقنعة المسرح الكبيرة ·

ايتها الاشباح ، قيسي جباهك التي تشبه جباه القردة والايغوانا ، بالنقش البيضوي الكبير في أقنعتنا ، كالحيوان الطفيلي في جحر الاصداف ··· لبؤات كهلة في الصحراء ترهق الحلقات الحجرية على المسرح · والحذاء الذهبي **للتراجيديين** الكبار يلمع في حفر البول في الحلبة ·

مع النجمة الشريفة ومفاتيح **الغروب** الخضراء · »

❋

« لكننا نرفع سواعدنا تمجيدا للبحر · كل توابل الارض وملحها في الابط المزعفر ! ــ نقش بارز للجسد ، مكيف كالكاذة ، وهذا القربان من الصلصال الانساني حيث يلج وجه الله ، الذي لم يكتمل ·

في مجلس المدينة ، حيث البحر هو المسرح ، تبقينا قوس الجمهور الممدودة على خيطها · وأنت يا من ترقص رقص الجمهور ، يا كلام آبائنا السامي ، أيها البحر القبائلي على أرضك ، هل ستكون لنا بحرا بلا جواب وحلما اكثر بعدا من حلم سارمات* ؟

عجلة المأساة تدور على رحى **المياه** ، تسحق البنفسجة السوداء والخربق في اثلام المساء المدماة · كل موجة ترفع نحونا قناعها الذي يشبه قناع كاهن يضيء المذبح · ونحن نرفع سواعدنا الممجدة ونتجه صوب **البحر** ، نغذي أفواه المساء المدماة ،

بين الجمهور ، صوب **البحر** ، نتحرك في جمهور ، حركة واسعة تأخذها من كل تموج خواصرنا الريفية العريضة ــ آه ! اكثر تأرضا من السوقة ومن قمح **الملوك**

وكواحلنا مرسومة كذلك بالزعفران ، وراحاتنا بالارجوان احتفاء بالبحر ! »

❋

جاءت النساء التراجيديات ، يهبطن الازقة · اختلطن باشخاص المرفأ بثيابهن المسرحية · شققن طريقهن الى حافة البحر · وفي الجمهور تبرجت خواصرهن الريفية العريضة · « ها هي سواعدنا ، ها هي أيدينا ! راحاتنا

---

* السارماتيون شعب رحال من آسيا الوسطى ، هاجم الغرب ووصل حتى الدانوب في القرن الاول الميلادي

مرسومة كالافواه ، وجراحاتنا ملفقة لاجل المأساة ! »

كن يمزجن باحداث النهار أحداقهن الواسعة الممزوجة بالمـاء وأجفانهن الاسطورية التي تشبه حقة البخور • وفي مذراة الاصابع مدار فارغ لقناع ضخم تثقبه الظلال كشباك كاتب الحروف السرية • « آه ! احسنا ظننا كثيرا بالقناع والكتابة ! »

نزلن ، باصواتهن الشديدة البأس ، سلالم المرفأ المرتة • يأخذن الى حافة البحر انعكاساتهن الجدرانية العالية وثيابهن الاسبيداجية • ولكي يدسن الحجر المرصع بنجوم الارصفة والادراج ، ها هن يسرن بخطوات لبؤات عجائز مقوسات الظهور على باب العرين •••

« آه ! كان تيمننا أفضل بالانسان على الحجر • ونسير أخيرا نحوك ، يا بحر آبائنا الاسطوري ! ها هي أجسامنا ، ها هي افواهنا ، ها هي جباهـنا العريضة ذات الفلقة العجلية المزدوجة ، وركبنا المشكلة كالاوسمـة ، بقيـاس عريض جدا • هل ستقبل ، ايها البحر النموذجي ، أحضاننا التي شققها ايناع المأساة ؟ ها هي حناجرنا الغورغونية* ، وقلوبنا الشبيهة بقلوب الذئبات فـي جلودهن الصوفية ، وحلماتنا السوداء للجمهور ، مرضعات شعب من الاطفال ــ الملوك • هل ينبغي ، فيما نرفع الازار المسرحي ، على ترس البطن المقدس ، أن ننتج قناع الجنس ذا الشعر الطويل ، كما في قبضة البطل ، بخصـل شعـره الاسود على السيف الشرس ، يسقط الرأس المقطوع ــ رأس الغريبـة او رأس الساحرة ؟ »

*

« بلى ، كان وقتا طويلا من اليباس والصبر ، حيث ترصدنـا الموت فـي كل مساقط الكتابة • وكان الملل كبيرا ، بين أقمشتنا المرسومة ، وكان تقززنا من الاثر المجد ، كبيرا جدا ، وراء اقنعتنا !

ملاعبنا الحجرية رأت خطوة الرجل تتقلص على المسـرح • وأكيـد أن موائدنا الخشبية كانت مزينة بجميع فواكه العصر ، وأهراؤنا الامامية مليئة بخمور الذين يؤازرون الفنون • لكن الشفة الالهية كانت تشـرد على كؤوس أخرى ، والبحر يتراجع بلا انقطاع من بين أحلام الشاعر •

هل سينازعنا البحر ذو الملح البنفسجي على فتيات المجد الشامخات ؟ أين كتابتنا ، اين قاعدتنا وفي أي كتاب للطغاة يتوجب علينا البحث عـن ضمانـة

---

* الغورغون Gorgones مخلوقات اسطورية تحيط براسهن الافاعي ، وكن ثلاث اخوات اسماؤهن على التوالي : ميدوز ، اوريال ، ستينو •

لندمائنا الكبار ، لكي نتقي أعباء المسرح ؟

دائما كانت وراء الجمهور الشاطئي ، هذه الشكوى الصافية لحلم اخر — هذا الحلم الاعظم بفن اخر ، هذا الحلم الاعظم بأثر اخر ، وهذا الصعود الدائم للقناع الاكبر في أفق البشر ، ايها البحر الحي لاعظم كتابة ! كنت تحدثنا عن خمر أخرى للبشر ، ومرت فجأة على عباراتنا المرذولة سخرية الشفاه التي يولدها كل اشمئزاز ،

ونعرف الان ما كان يمنعنا من الحياة بين اشعارنا ٠ »

*

نناديك ، أيها الجزر ! سنرصد ، أيها التموج الغريب ، مجراك الشريد في العالم ٠ واذا توجب علينا ان نكون اكثر جدة بأكثر حرية ، لاستقبالك ، سنعري أمام البحر كل عتاد وكل ذاكرة ٠

يا بحر يا مرضع الفن الاعظم ، نقرب اليك أجسادنا المغسولة في الخمور القوية خمور المأساة والجماهير ٠ نقدم ، على مرأى من البحر ، كما عند الهياكل ، ثيابنا المسرحية الهزلية ، وازياء الحلبة ، الغريبة ٠ ومثل بنات النساجين في أعياد كبيرة تستمر ثلاث سنوات — او البنات اللائي يمزجن بالعصا اللون الام في المراكب الطويلة ، والحمراوات حتى الكاذة اللائي يعصرن، وهن عاريات ، العناقيد في الدنان — يعرضن في الشارع العام ادواتهن المطبخية المصنوعة من الخشب الفقير ، نحمل احتفاء ادوات مكتبنا القديمة ٠ نقدم أقنعتنا ورماحنا ، نقدم تيجاننا وصوالجنا ، ومزاميرنا الكبيرة من الخشب الاسود كمقارع الساحرات — نقدم أسلحتنا كذلك وكناناتنا وزرودنا ، قصاتنا وجزائز أدوارنا الكبيرة ، خوذنا الجميلة المثقلة بالريش الوردي وكسوة رأسنا من المعسكرات البربرية ذات القرن المعدني المزدوج ، تروسنا الضخمة بأعناقها التي تشبه أعناق الالهات ، نقدمها ، نقدمها ! ٠٠٠ لك ، ايها البحر الغريب ، امشاطنا الكبيرة ذات الابهة كانوال الحائكات ، ومرايانا الفضية المطرقة كافاعي المريدة ، لآلئنا الكبيرة التي تشبه قرون الايائل ، أبازيمنا الكبيرة المثقبة ودبابيسنا الزواجية ٠

كذلك نقدم براقعنا ، ألبستنا الصوفية الملونة بدم القتل ، ارديتنا الحريرية المصبوغة بخمر البلاط ، وعصينا التي تشبه عصي الشحاذات ، وعكاكيزنا التي تشبه عكاكيز المتوسلات — مع مصباح الارامل ومغزلهن ، وساعة حراسنا المائية ، وقنديل الراصد المقرّن ، والجمجمة المصنوعة مزهرا ،ونسورنا الكبيرة المصنوعة من الذهب وأسلاب اخرى من العرش والمخدع — مع الكاس وقارورة النذور ، الابريق وحوض النحاس لوضوء الضيف وانعاش الغريب ، آنية السم وقواريره ، الصناديق الملونة للساحرة وهدايا السفارة ، الاغماد الذهبية للرسالة وشهادات الامير المتنكر — مع مجذاف الغرق والحجاب الاسود

للفأل ومشاعل التضحية مع الشعار الملكي ايضا ، ومراوح النصر ، وأبواق **ميشراتنا** المصنوعة من الجلد الاحمر ... **الجهاز المتداعي للمأساة والاسطورة ، كله ... نقدمه ، نقدمه !**

لكن نحتفظ ، أيها **البحر** الموعود ، **مع قباقيبنا الخشبية الصلدة ، بحلقاتنا الذهبية الملفوفة على معاصمنا نحن العاشقات ، من أجل تفعيل القصائد المقبلة ، الآثار العظيمة الآتية ، في نبضها الجديد وتحريضها الآتي من مكان اخر .**

❋

« الفقر ! الفقر ! ... **نبتهل أن نعطى أمام البحر وعدا بالاثار الجديدة :** الاثار الخالدة الجميلة ، **التي لا تكون الا أثرا حيا والا أثرا جميلا — الاثار** العظيمة العاصية ، الاثار العظيمة الفاجرة ، **المفتوحة على قنص الانسان ، والتي** تخلق لنا طعم أن نحيا الانسان ، **في تفرده ، في خطوة الانسان الكبرى على الحجر .**

اثار عظيمة جدا لا يعرف ، داخل الحلبة ، **نوعها ولا أصلها ... آه !** ليفاجئنا كذلك اسلوب عظيم ، **في سنواتنا هذه ، سنوات البلى والابتذال ،** وليجيئنا من البحر ، ليجيئنا من أبعد أبعاده ، آه ! **وليربطنا ايقاع رحب بهذه** الرواية العظمى عن الاشياء في العالم ، **وراء كل شيء من هذا العالم ، ولتنهض** فينا نفحة فسيحة جدا ، **تكون لنا كالبحر ذاته وكنفحة الغريب !**

لم تعد على حدودنا ايقاعات كبرى . علمينا ، أيتها **القوة الشعر الاكبر** للنظام الاكبر ، علمنا نبرة الفن الاكبر ، **أيها البحر النموذجي عن الكتابة** العظمى ! علمنا الطريقة الكبرى ، **وامنحنا الايقاع الذي يفتح لنا ، فوق صوان** المأساة الاحمر ، **الساعة التي نولع بها ! ... من سيكتب لنا من جديد في** حركة المياه الاميرة ، **الجملة الكبيرة المأخوذة من الشعب ؟**

خواصرنا التي يعلمها كل تموج ، **تتحرك هذه الحركة البعيدة التي** يتحركها الجمهور وتتصاهر معها . **الا من ينادينا كذلك على الحجر مع خطواتنا** نحن النساء **التراجيديات** ! من يوجهنا كذلك صوب البحر ، **على القوس الحجرية** الكبيرة العارية التي يكون وترها هو المسرح ، **ألا من يضع في ايدينا ، من اجل** عظمة الانسان على المسرح ، هذه النصوص **العظيمة التي نقرؤها : مزروعة** بالبروق ، مؤنبة بالعواصف ، كأنها مشتعلة بسمك القراص البحري ، **برئات** البحر المثيرة ، حيث تجري مع نيران اللجة **اعترافات الحلم الكبيرة واغتصابات** الروح . هناك يصفر اخطبوط اللذة ، **هناك تلمع شرارة الشقاء كالملح البنفسجي** لبحر بلهب اخضر يصعد من نيران الحطام ... **أعطينا ان نقرأك ، ايتها** المواعيد ، فوق عتبات اكثر حرية تفاجئنا العبارات **الكبيرة للمأساوي ، في** ذهب المساء المقدس ، **فوق الجمهور ،**

كما عبر **حائط** الحجر ، على الصفحة العالية الممتدة من السماء والبحر ، هذه القوافل الطويلة من السفن المسافرة التي تجتاز فجاة الاطراف ، اثناء تطور المأساة على المسرح ٠٠٠ »

❋

« آه ! كان صراخنا صراخ **عاشقات** ! لكن نحن ، **الخادمات** ، من اذن سيزورنا في غرفنا الحجرية ، بين المصباح المستأجر والمشجب الحديدي لناتفة الشعر ؟ اين كتابتنا ؟ اين قاعدتنا ؟ ومن هو **السيد** الذي سيخلصنا من السقوط ؟ اين اذن هذا الذي ــ آه يبطيء علينا ! ــ يعرف ان يستولي علينا ويرفعنا ونحن نتهامس ، الى مفارق المأساة ، كأغصان شجرة عظيمة في أبواب المعابد ؟

آه ! ليات ، **الذي** ــ هل سيجيئنا من البحر أو من **الجزر** ؟ ــ سيبقينا تحت سلطانه ! ليسيطر علينا او لنسيطر عليه ! رجل جديد الطلعة ، لا يبالي بسلطته ، قليل الاهتمام بولادته : عيناه ما تزالان تشتعلان بمراكب ليله القرمزية ٠٠٠ ليجمع في أعنته هذا السباق العظيم المبعثر للاشياء التائهة في العصر !

في هذا التشنج الخفي لراية في خواصرنا ، نعرف الاقتراب المستبد ــ مثلما في تغضن النسم على المياه انقباض خفي لعبقري يشم في البعيد اثر آلهته ٠٠٠ البحر ، الحرفي ،

يتفتح جديدا على كتبه الحجرية الكبيرة ٠ ولم نتنبأ كثيرا بحظوظ الكتابة ! أصغ ، يا رجل الآلهة الى خطوة **العصر** يتقدم نحو الحلبة ٠ نحن ، الفتيات العاليات المزعفرات في مجالس الليل الدامية ، المصبوغات بنيران المساء حتى عروق اظافرنا ، سنرفع الى اعلى سواعدنا الكريمة صوب البحر !

سنلتمس نعمة جديدة لتجديد المأساة وعظمة الانسان على الحجر ٠ »

IV - النبيلات كذلك على الارصفة ...

النبيلات كذلك على الارصفة ، وأذرعهن مثقلات بالاقلام القصبية السوداء :

« كتبنا مقروءة ، أحلامنا مغلقة ٠٠٠ أهذا كل شيء ؟ اذن ، أين الحظ ، اين المخرج ، اذن ؟ اين ذهب الشيء لنفتقده ، وما هي العتبة التي لم نطأها ؟

كنت تكذبين ايتها النبالة ، كنت تخونين يا ولادة ! آه ، أيها الضحك ، يا صقرا ذهبيا في بساتيننا المحروقة ! ٠٠٠ الريح ترفع في حدائق الصيد ريشة ميتة لاسم كبير ٠

كانت الوردة ذات مساء بلا عطر ، والعربة مقروءة في مكاسر الحجر الطرية ، والكآبة تفتح فمها في فم الرخام ٠(آخر شاد في عريشنا الذهبي ، الظلام الذي ينحر أشبالنا وسيمنح هذا المساء الطيران لفراخ **آسيا**) ٠

لكن البحر كان هناك ، ولا شيء سمّاه لنا ٠ وما اكثر التموجات التي كانت تنام على رؤوس أرزنا ! ربما ، ربما – بعمر البحر كله في نظرات نسائنا ، بكوكب البحر كله في ألبسة المساء الحريرية

واعتراف البحر كله في أعمق سرائر اجسامنا – ربما ، آه يا بصيرة ! ظنوا اننا نمسك بمثل هذا الزمن الطويل وراء الشربين ومشاعل البلاط وهذه الالواح المنحوتة من الارز أو السندروس ، بين هذه الاوراق التي تحرق ؟

ذات مساء من الضجيج الغريب في تخومنا الاعيادية ، حين يهجر الشرف الجباه الاكثر حبا ، خرجنا وحيدات من هذه الجهة من المساء والارصفة حيث كنا نسمع البحر ينمو على تخومنا الحجرية ٠

وفيما نسير نحو هذا الحي الكبير للنسيان ، مثلما نسير في أسفل حدائقنا نحو الحوض الحجري والممرات المرصوفة بالبرك الراكدة حيث يستأجر سيد الزرائب ، بحثنا من جديد عن المخرج والمسالك ٠

وها نحن فجأة في هذه الجهة من المساء ومن الارض حيث نسمع البحر ينمو في تخومه البحرية ٠٠٠ »

*

« بحجارنا المتلألئة وجواهرنا الليلية ، وحيدات ونصف عاريات في ثيابنا الولائمية ، تقدمنا حتى ضفاف البحر البيضاء ٠ هناك ،

سحبنا الدالية القصوى لاحلامنا حتى نقطة الفسخ ، اتكأنا أرضيات على رخام البحر القاتم ، كما نجلس على موائد الحمم السوداء المرصعة بالنحاس حيث تتوجه الاشارات ،

على عتبة **النظام** الكبير حيث يحتفل **الاعمى** ، غطينا وجوهنا بحلم آبائنا ٠ وتذكرنا ، كما يمكن تذكر بلد مقبل ،

مسقط رأسنا حيث لا ولادة لنا ، وتذكرنا المكان الملكي حيث لا جلوس لنا ،

ومنذ هذا الوقت ندخل في الاعياد ، كأنما تتوج جباهنا أكواز الصنوبر الاسود ٠ »

*

« ارتعشي ، يا أم النبوءات ، حتى في غلالاتنا لليلة الزواج ! ايها البحر الحاقد تحت الحجاب ، يا بحرا تقلده النساء اثناء العمل ، فوق أسرتهن العالية

كعشيقات او كزوجات ! الالفة التي تنظم علاقاتنا لن تحول بيننا وبين الحب • فلتضع الماشية مسوخا على مرأى من قناعك ! نحن من طبقات اخـرى ، مـن الطبقات التي تتسامر مع حجر المأساة العالي : نستطيع أن نتأمل الرعب والعنف دون ان نضرج بناتنا بالقبح •

قلقات ، نحبك ان تكون **معسكر الملوك** هذا ، حيث تركض كلبات الشقاء البيض ، مزينات بالذهب • نهمات ، نحسدك على هذا الحقل مـن الخشخـاش الاسود حيث يرسي البرق • ونتحرك نحوك بهيام لا خجل فيه ، ونحبل ، في الحلم ، بآثارك •

ها لم تعد لنا صورة جدارية او تطريزهيكل ، بل صرت في جمهور ورقتك كما في جمهور شعبك ، وردة زواج كبيرة وشجرة مرتبية كبيرة جدا ــ كشجرة وفاء كبيرة في تقاطع طرق الغزو ،

حيث يتأرجح الطفل الميت مع القرع الذهبي ومـــزق السيـــوف او الصولجانات ، بين تماثيل الفخار الاسود ، والشعر مجدول ، بقش وأمشـاط كبيرة من المرجان الاحمر ، فيما يمزج القربان الضريبي بغنيمة العدو •

آخرون رأوا وجهك الظهري ، حيث لمعت فجأة **جلالة السلف** المخيفة • والمحارب الذي سيموت يتغطى ، في الحلم ، بأسلحتك ، وفمه ملـيء بالعنـب الاسود • وبريقك البحري في حرير السيف وعمى النهار ،

وطعمك البحري في خبز المسح ، وفي جسد النساء اللائـي يمسحـن • « ستفتح لي موائدك الملكية » ، يقول البطل الباحث عن الشرعية • والحزيـن الصاعد في البحر : « آخذ منه أوراق هويتي • »

طيب كذلك وجهك ــ وجه الغريبة ، في الحليب الاول للنهـار ــ صبـاح مثلج بعروق لؤلؤأخضر ــ حين يسلمنا مفترق التاريخ على الدروب الشطآنية التي يتبعها رحيل الملوك ، بين رأسين ، الى هذه المجابهة الخرساء للمياه الحرة•

(القطيعة ! قطيعة العين الارضية ، والكلمة المقولة ، بين **رأسين** ، على مكافأة الجواهر ، واسفارنا المأساوية بثياب مزينة بالفضة ••• مراكب تعبر ، في وسط السماء ، نخبة من الرخام الكبير ، بجناح عال وتوابعها من البرونز الاســـود ،

تعبر حمولتها من الانية الذهبية ، المنقوشة بمنقاش آبائنا ، وحصادها من الانواع القابلة للضرب ، تحت شارة الحوت او الحوذي •) »

*

« هكذا نستسلم أرضيات ، شاطئيات ، شريكات ••• واذا كـان علينـا ان

نقود هجوم كوننا ولدنا الى أبعد ، بغير الجمهور ، حتى المرفأ تنفتح لنا عتبات الدروب التي لم تروض .

سنعاشر هذا المساء ملح المأساة العتيق ، البحر الذي يغير لغته الدارجة عند ابواب **الامبراطوريات** ، وهذا البحر الذي يسهر على أبواب أخرى ، وذلك الذي يسهر فينا ويبقينا في الدهشة !

مجد وبحر ! انشقاق **العظماء** ! تمزق يسطع في اعوجاج العصر ... هل مخلبك ما يزال في خاصرتنا ؟ قرأناك يا رقم الالهة ! سنتبعـك ، أيها الاثـر الملكي ! يا رتبة مثلثة من الزبد المزهر ودخان المسح على المياه ،

كما على سطح **الملوك** ، وعلى المرتفعات الهلالية المرسومـة ، بخطـوط بيضاء كبيرة ، بعلامات سحر ، الرتبة المثلثة من الصبير المزهر وانفجار اعواد الرماح الالفية في احتفالات ما قبل **المساء** ! » .

V - لغة كانتها الشاعرة ...

لغة ، كانتها **الشاعرة** :

« يا مرارة ، ايتها النعمة ! أين يحترق العطر ؟ ... نتجه اليك أخيـرا ، بعد ان هربت بذرة الخشخاش ، يا بحر الحي الذي لا ينام ، وانت لنا شيء لا ينام ، خطر كالسفاح تحت الغطاء . ونقول ، رأيناه : **البحر** ذو النساء اكثـر جمالا من المصيبة . ولم نعد نعرف ما يعظم ويمدح الا انت

ايها **البحر** الذي يتكبر في احلامنا كاغتياب بلا نهاية وكشتيمة مقدسة ، انت يا من ترين على جدراننا الكبيرة الطفولية وسطوحنا كدمل فاحش وكشر الهـي !

القرح في خواصرنا كخاتم الصدق ، والحب في ضفاف الجرح كدم الآلهة . ايها الحب ، يا حب الآله الذي يشبه الشتيمة ، الاظافر الكبيرة تتنزه في جسدنا الانثوي ، وأسراب الفكر السريعة الزوال فوق تتابع المياه ... ستقضميـن ، ايتها العذوبة ،

حتى تزمت الروح التي تولد في انحناءات العنق وعلى قوس الفم المقلوبة — هذا الشر الذي يشتعل في قلوب النساء كنار الصبير ، او شبـح الغني بين رخامه ورياشه ..

تنهض فينا ساعة لم نتنبأ بها . ما اكثر ما انتظرنا فوق أسرتنا انقلاب المشاعل الاليفة . ولادتنا من هذا المساء ، ومن هذا المساء عقيدتنا . طعم الارز واللبان يبقي لنا مكاننا في نعمة **المدن** ، لكن طعم البحر على شفاهنا ،

ومن رائحة البحر في ثيابنا ، وفي أسرتنا ، في دخيلاء الليل ، يبدأ عندنا العتاب والشك اللذان يتدليان من كل عريش في الارض .

سفر ميمون لخطواتكن ، يا الاهات العتبة والمخدع ! ايتهـا الكاسيات المزينات ، الحارسات اللامرئيات ، يا من كنتن تجلسن وراءنا فـي الحفلات العامة ، ترفعن في نيران البحر مراياكن الكبيرة الملآنات بشبح المدينة ،

أين كنتن ، هذا المساء ، حين قطعنا صلاتنا مع زريبة السعادة ؟

لكن انتم الذين هناك ، يا ضيوف السقف والسطوح الالهيين ، يا أمراء ، يا أولياء ، يا سادة السوط ، يا سادة لرقص خطوة الرجال عند الكبار ، وسادة الانفعال في كل شيء — انتم الذين تبقون صرخة النساء عالية في الليل ،

اعملوا لكي يذكرنا مساء ما بهذا كله ، بكل شامخ وواقعـي كان يفنى هناك ، وكان لنا من البحر ، وكان لنا من مكان آخر ،

بين جميع الاشياء المحرمة والاشياء التي تتجاوز الفهم ...

سان - جون بيرس
(نقلها الى العربية أدونيس)

اشارات

* هذه القصيدة هي جزء اخر من كتاب Amers لسان - جون بيرس . وكان الجزء الاول قد نشر في مجلة « شعر » ، العدد ٤ سنة ١٩٥٧ بعنوان « ضيقة هي المراكب » .
* العنوان الرئيسي لهذا الجزء المنشور هنا ليس موجودا في الاصل ، بل هو ماخوذ من النص ذاته.
* الجزء الثالث الاخير ننشره في عدد مقبل من «مواقف» . ونامل ان نصدر القصيدة كلها في كتاب مستقـــل .

أندريه فوزنيسنسكو
(Andrei Vosnessenski)

بليستسكايا

أسمع في اسمها ضجيج التهليل ،

يتوافق مع الشريين الباكي ، مع "ليلَكفارس ، والشانزيليزي ، ومجيء المسيح .

ثمة أقطاب جغرافية ، وأقطاب حرارية ومغنطيسية ، بليسيتسكايا قطب السحر .

تسمّر القاعة في الدوامة الشيطانية لحــركة الرقص ، لاحتدام الحياة فيها ، وتسحر وتذهل : ولا ترخي قبضتها من بعد .

ثمة راقصات صمت ، وراقصات ــ ندائف ثلج : يذبن .
أما هي فشرارة جهنمية .
لتمت ، وحينذاك ستشعل النار في نصف الكوكب .
صمتها نفسه صارخٌ ، صمت انتظار ، صمت يتوتر بين البرق والرعد .
بليستسكايا هي تسفيتاييفا الباليه
وايقاعها انفجاري ، مفاجيء .

★

كانت يوما فتاة صغيرة ، مايا ، مارينــــا ــ هذا غير مهم . كـــانت وحشيتها منذ الطفولة قلقة ، وكانت تقلق . وكــــانت قوة المصير تنكشف . غذّيت بعصيدة السمك وحساء الشعيرية مع الحليب ، ولفّت بالانسجة لفـــاً حتى الوجع ، وحشروا الحروف الكبيرة في المربعات المفتولة ، وكانت قطعـــة النقد الفضية التي تلعب بها تلمع وتتدحرج تحت جوف الصوان المغمـــــور بالغبار .

غير انها كانت تعاني داء الموهبة ، بغموض لكن بصدق ٠

« ماذا سافعل ، انا الشاعر والبكر
في عالم حيث الاكثر سوادا يبدو رماديا !
وحيث يحفظ الالهام كما في ترمس !
انا الذي لا مقياس له في عالم المقاييس هذا ؟ » (١)

كل حركة من بليسيتسكايا ، عويـــل جنوني ، رقصة ، سؤال ، عتـاب غاضب : « **وماذا بعد ؟** »

ماذا نفعل « بانعدام الثقل في عالم الاوزان ؟ »
ولدت وكان وزنها منعدما ،
في عالم الاشياء الثقيلة الخامدة ،
انها الاكثر حيوية في عالم البلادة ٠

★

أظن أن ديكور باليه « ريموندا » وهذه الملحقات الخانقة اللزجة، وبلادة الاخراج ، تثير الغضب في نفس أي انسان ٠

هكذا رقصتها وحيد ويائس
ان حيرة العبقري بين التافهين هي مفتاح أدوارها
الدم الوعر يحركها
فهي ليست من الجنيات المألوفات ٠

« للآخرين عيون صافية ، وجه صاف
وانا في الليالي اتحدث مع الريح ،
لا ، ذلك النسيم الفتي ،
نسيم ايطاليا ،
بل مع الريح الطيبة ، العظيمة
ريح روسيا ، التي تشق الفضاء ! »

للمرة الاولى ، تكلم شيء في الراقصة ٠ لا من هذه الاشيــاء المتصنعة التي تسمع في الصالونات ، بل صرخة امرأة تنبجس من الاحشاء ٠

للمرة الاولى ، في « كارمن » تسير بحرية فوق المسرح ٠ لا على رؤوس أصابع قدميها ، بل بقوة ، مستندة الى الارض عالقة بها ، كما يفعل الانسان٠

« الكاس مليئة ٠ الكاس فارغة
صوت القيثارة ، قمر ووحل ،

---

(١) جميع الابيات المطبوعة بالاسود هي للشاعرة مارينا تسفيتاييفا (المترجم)٠

القد يتمايل يمنة ويسرة ...
الغجري ــ أمير ، الأمير غجري » !
وفي نصف هذا العالم تنقصها النار .
« علمتني أن أحيا في اللهب !
رميتني في سهوب الجليد
هذا ما فعلته لي ، يا حبيبي ، فيا حبي ، ماذا فعلت لك ؟ »

هكذا تحبّ !
انها تجهل أنصاف الحلول ، والهمس ، والترضيات .
ما أدهى جوابها لصحيفة أجنبية :
ــ ما هو الشيء الذي تكرهينه أكثر من غيره ؟
ــ الشعيرية !
هنا يكمن شيء آخر غير حقد الاطفال .

كل شيء عندها جدي ، أكيد ، شأن الفنانين . أكثر ما تقرف منه هو طبعا الشعيرية ، رمز النمطية والميوعة والخساسة والخنوع وعداء الروح .

أليست عن « الشعيرية » تتحدث في مذكراتها : « يجب على الناس أن يدافعوا عن قناعاتهم بقوة ذاتهم الروحية وحدها ».

ان مايا بليستسكايا لا تحب الشعيرية !
انها عاملة جيدة .
« أعرف أن الايدي صنعت فينوس ،
أنا الحر في أعرف مهنتي ! »

★

الرقص والطيران قافية واحدة . ثمة تحليقات تتجاوز الصوت. والطاقة التي تنفلت من الفنان تتجاوز حدود الجسم حين تتحول الحركة العضلية الى فكرة .

يذهب البعض الى الكلام على « التقنية » العالية جدا ، وعلى هربها « في الشكل » . الشكليون هم أولئك الذين لا يملكون شكلا . ولذا ، حين يفكرون في الشكل، يرتبكون ويحسدون الاخرين . انهم يلهثون في قافيتهم الوحيدة بكد أبدي وينضحون عرقا في دوامة الايقاع .

بليستسكايا ، شأن الشاعر ، سخية وفنها خصب غامر . انها ليست عبدة الشكل .

« لست من هؤلاء الذين يرون وراء أكاليل النجاح الكثيفة خمسةوتسعين بالمئة من العمل ، وخمسة بالمئة من الموهبة » .

هذا تحد .

أعرف صانع أشعار كان يؤكد أنه يصنع من أي انسان شاعرا ، في خمس سنوات ، وفي عشر سنوات — بوشكين ؟

وهو نفسه لم يصبح شاعرا .

نسينا كلمات « الموهبة » ، « العبقرية » ، « الالهام » ،

الفن دونها عدم .

الفن ، كما اوضحت تجارب كولموغوروف ، لا يتبرمج ،

فلا توجد معادلات لهاتين الخاصيتين الانسانيتين : الاحساس الديني ، والاحساس الشعري . المواهب لا تزرع بطريقة العش المربع ، بل تولد . انها ثروات وطنية كمناجم الراديوم ، وكأيلول في سيفولدا ، أو كنبع مياه معدنية.

طيف بليستيسكايا معجزة ، ثروة وطنية .

الفن هو دائما التغلب على العقبات .

الانسان يريد أن يعبر عن نفسه خلافا لما تريد الطبيعة .

لماذا ينطلق البشر لغزو الفضاء ؟

ترى ، هل الاعمال قليلة على الارض ؟

انهم يتجاوزون جدار الجاذبية . وهذا تجاوز طبيعي للطبيعة .

الطريق الروحي للانسان هو الصياغة ، خلق عضو جديد للحواس ، اكرر ، هو حس المعجزة . وهذا هو الفن .

الانتصار اولا على طرق التعبير المألوفة ،

الجميع يمشون عموديا ، لكن ثمة من يرغب في أن يطير أفقيا . القاعة تئن حين ينحني جذعها بزاوية من ثلاثين درجة .. **سترافنسكي** يوجع العيون بالوانه . كان **سكريابين** يجرب الوانه على الأذن . **ريختر** ، كالاعمى، بعينين مغلقتين وأنف مضموم ، يجس الالوان بملامس البيانو . الأذن تصير عضو البصر .

الرسم يبحث عن البعد الثالث والحركة في لوحاته الثابتة . ليس الرقص انتصارا وحسب على الجاذبية . الباليه ، هو اختراق لحاجز الصوت .

اللسان ، عضو الكلام ؟ الصوت ؟ كلا ، فالذراعان والكتفان هي التي تغني ، والاصابع هي التي تنغم ، ناقلة الينا شيئا في غاية الاهمية ، بسببه يخشوشن النغم . الجلد يفكر ويحظى بتعابيره . قصيدة بلا كلمات. موسيقى بلا انغام .

في « روميو » لحظة يتقدم فيها الصمت الملفوظ المتفلت من شفتي المراهق،

ككرة غير مرئية لكنها محسوسة ، تتقدم صوب أصابع جولييت ·
وهي تتناول هذا النغم المجسد ، كآنية ، براحتيها وتجسه بأصابعها ·
انغام تدرك باللمس ! في هذا يصبح الباليه شبيها بالحب ·

حين يتكلم الذراعان ، يفكر الفخذان ، تقول اليدان قولهما بلا وسيط. دولة الانغام تحتلها الحركة · نرى النغم · النغم خط · والاتصال حركة · المقارنة بينها وبين تسفيتاييفا ليست عرضية ·

ما اعظم احساس بليسيتسكايا بالشعر !

انكرها بالاسود ، فوق مقعد ، شبه منفصلة عن الجمهور · كانت تجلس جانبيا ، وقد انحنت كالمرأة ذات الجرة لتسارسكويه سيلو · عيناها مغمضتان · تصغي بعنقها الموديغلياني ، وبخط العمود الفقري ، وبالبشرة · واقراط الاذن ترتعش كما يرتعش الانف ·

انها تحب تولوز ــ لوتريك · في الصيف ، ترتاح في الانخسافات التوراتية في سيفان وارمينيا ، في نار الغابة ، ودخان اللحم المشوي ·

قفزت مرة اليها مندوبة مجلة أنيقة لكي تعرف نظام الراقصة الكبيرة · آه ، لهذه الحوريات ، الجنيات الموجودات في جميع العصور !

« قميصي في البيت قطرة من شانيل » ، و « وجبة الراقصة ورقة ورد » ·

جواب بليسيتسكايا صاعق ، هوميروسي ·

هكذا يجيب الفنانون والرائعون ·

« لا آكل شيئا ! »

قوة ماياكوفسكية · سخرية محرضة ·

★

تعرفت عليها في بيت حيث كان يتحدث كل شيء عن ماياكوفسكي · على الجدار صورة الشاعر التي رسمها بريشته على ورق مربع · كانت امرأة بثياب رمادية تجلس ، تصفق بيديها · كانت تتحدث عن الايدي في الرقص · لن اكرر كلامها · كان ذراعاها يتحركان ويتموجان تحت السقف ، ولا شيء غيرهما · ولم يكن الفخذان والجذع الا اناء لهذين الذراعين العاريين المتحركين ·

خطر هو المجيء الى هذا البيت · الحضور الابدي الآمر لماياكوفسكي يسحق الخمول · ليس كل واحد يتحمل مثل هذا الجوار · مايا تتحمله · انها

الاحدث بين راقصاتنا · لعصرنا شعره ، ورسمه ، وفيزياؤه ، لكن ليس لـــه رقصه · انها راقصة ايقاعات القرن العشرين · لا بين البجعـــات ينبغي أن ترقص ، بل في وسط السيارات ورافعات الاثقال ! أراها في خلفية من خطـــوط هنري مور النقية وكنيسة رونشامب ·

« عبقرية الجمال النقي » في عالم مجنون ، معجزة · الجمال يطهر العالم· من هنا عالمية مجدها · باريس ، لندن ، نيويورك ، تصطف منتظرة دورهـــا لرؤية الجمال ، لرؤية بليسيتسكايا · ودائما يأسر العالم الفنان الذي أســر بلاده · ولا يتعلق الأمر بالباليه وحده · الجمال ينقذ العالم · بالجميل الذي يخلقه الفنان يغير العالم خالقا الجمال المنقذ · وهو واضح بلحظة واحدة في كوبا وباريس ·

ان طيفها يذكر بالتخطيط الفضائي في التصوير المصري · نسميها بألفة، كفتاة من عمرنا ، ترقص ونسميها برهبة كالاهة أو كاهنة وثنية : مايا ·

أندريه فوزنيسنسكي

(موسكو ، ١٩٧٠)

«نقلها عن الروسية نقولا الطويل»

ازهار الخير والشر

١ – النبات الغريب

كان الرجل في مطلع عمره ، يعصف بالحياة عامرا بالثقة • وكان يضع، وهو الذي لم يعهد ترابه ،اصيصا للازهار مقابل سريره ، قريبـا الى بـاب الغرفة • ولما كانت الازهار تنتمي لبلاد اخرى ، فقد وجب عليه ان يبذل لها عناية خاصة، جاء بها وبراعمها دقيقة ، والاكمام غير ظاهرة بعد• بينما امل الرجل لم يكن ضئيلا في انبثاقها وتفتحها • ورغم انه كان يجهل العنايـة بالازهار ، فقد كفاه الاصغاء لملاحظات البائع العجوز • وطالما ظـل النبات اخضر نديا ، ظلت العاصفة : خضراء في نفسه تجاه الحياة • حتى اكتشف ان حرصه حيالها ينمو ويتصل بنفسه – وهو الذي عمله لا يتوقف ، يستحق من القلب انتباها لا يتوقف – ثم بدا قلق خافت يشيع في داخله • ولم يكن يرجو الا ، وبالازهار ذات اللون البنفسجي الهادىء الذي يفتنه •

وعندما يأخذ نومه خارج جدرانه ، ويكون في العمل معهم ، فانه يقبل على الغرفة لاهفا ، ويلقي على النبات الغريب عيون الحدب والرجاء ، قبل ان يمضي • وفي كل نهار اخر ، وقبل ان يرمي عليه نظره ، صار يرى وكأن احلاما قاتمة مرت بنومه في شان النبات – وذاكرته في العادة ، تلتقط عند الصباح اقل الاحلام • وفي ذلك الصباح المتأخر ، استيقظ متأخرا عـن العمل الذي ذهب اليه • وحين ادرك الوقت في الساعة ، شعر بالخجل منهم ، واصيب بالاسف والندامة • ان الاصيص في مكانه ، قريب من مرمى عينيه ، ورجع احلام الليل يطوف جدران رأسه • وقال في نفسـه وهو يشاهد الاصيص العزيز «لا بد انهم تأخروا لاجل النائم في اوقاتهم • لا بد انهم انتظروني وانتظروني »•

ثم انتشرت في جسده رجفة دفيئة ، وهو يتملى البنفسجي الهادىء الذي يفتنه • ودام يحدق اليه حتى لبثت فيه الرجفة ساكنة • بينما اتخذت الاشياء

وضوحا مغايرا ، لكنه حار ٠

وفيما هو يمضي اليهم ، لاهفا عامرا بالثقة ٠ كان يجهش في دخيلائه بالضحك العميق ٠

٢ ـ فلسطين

وصلني من الشيخ العريق ان الكلام لا يبلغ الجسد ٠ فمن منكم ، في هذه الاثناء ، يطأ جسد حبيبته بالكلام المباح ؟٠

الوقت في العشية ، بعد العشاء ، في مخيمنا ٠ كان الشيخ استراحتنا ، وتستريح معنا اسلحتنا المثلومة الباقية ٠ وواحدنا يفتش له في ليل الخطأ ، عن خيط ضوء وحق ٠

اربعتنا : فارس ، ابو الطيب ، جهاد ، طارق (انا) ٠ وثمة الشيخ ٠ كنا نتحلق حول الشاي الدافىء ٠ لم يشاركنا في الحديث الا ماندر ، ومن اول ما جلسنا وهو يجهد في الاقتراب ولا يفلح ٠ وجالد نفسه مرة او مرتين ، وشاركنا ٠ لا اذكر قوله ، بل اعرف انه جعلني مشدودا اليه ٠ كنت بينهم صاحب الرغبة في الاصغاء اليه ٠ على انه توقف ٠ ومع اني توقعت ان يعاود الحديث ، الا انه لم يفعل ٠ اخذ ينصت لوقع المطر ٠ اذ كانت تمطر حول البيت الصغير بانتظام انما بغزارة ، بعد ان كف نشيج الرصاص ٠

اذن ، لقد انكسر بين الشيخ واربعتنا ، أمر ٠ بادىء الامر ، لم اعرف كيف تولاه اختناق وكظم، واستحال الكلام في الفم٠٠ رمادا ٠ وعندما لحظت ذلك ، لحظت ايضا ان ايا منا في الحضرة ـ وهو ينسب الى فرقته ـ يستعمل رأسه بحرص كبير ، حتى عندما لا يكون الكلام محسوبا ٠ وطالما ارتج الشيخ ، اذ لا تملك يمينه ، تهدئة لنا ٠ ثم لفتني اليه شيخ مخيمنا ، الذي ما لبث ان انصرف عن الحلقة ، واقعى بعيدا في زاويته ٠ وحيدا ، لوحده ٠ صار الشيخ طاعنا في مشاعره ، وها غيمة حزن دامية في عينيه ، ودمعة محرورة معلقة يمنعها الكبرياء ٠

يا الهي اين كان الرجل وهو بيننا ٠ هل نكون جدفنا عليه ، ونحن تواضعنا على الكفاح الذي اثاره في شبابه ؟

لم يعد يسمعنا ٠ يستانف فارس الكلام بلهجته السورية ، فيقابله ابو الطيب ، ويهرول جهاد من جهته ٠. كل منا يتسلل الى سره ٠ كم ادرنا ظهورنا لبعضنا البعض، وكم تواربنا وتوارينا ٠٠ وكم ربما تلاقينا مرات في

حضرة شيخنا . صرت ـ خارج الدائرة ـ استرق اليه النظر . اطفال المخيم يتدفقون باحلامهم وامهاتهم (واي ذاكرة يحملونها معهم الى زمانهم ؟) .

صارت اصابعه المعروقة الناحلة ، تعبث بالعشب يعلو فمه . هل يكون له مسيس .. وانا من يأخذني ويرميني في الشيخ الطفل ؟.

(وانا في الصغر ، لم تبتدىء طفولتي . كانت بلادي هائمة مسبية ، وتخومها ما بعد الاراضي . لا انسى ذلك ، ولا اذكر مكانا قويا) .

لم التفت عندما نهرني فارس عن صمتي . ظل الاصدقاء الشجعان يتدفقون . لكن من ، في هذا الوقت الشديد : يلمس البحر السادر بهوله الازرق ، يقبض التراب بجماع اليد والقلب ، يصل الهواء الطائر المقصوف هناك ؟.

والقيت انتباهي على اصدقائي : وقع ابو الطيب في جراحه . وقف فارس على جسارته . ويسأل جهاد وهو معنى عن الاعداء ـ وكانت القبيلة خذلتنا ورأت في اولادها الاعداء . اما طارق (انا) فاعرب عن الفقدان ، وان ظل على كل ايمانه . وغرغرنا جميعا بالابتسام والاحزان والمصير المشترك .

وشاء الاصدقاء بعض الصمت . لم يكن الشيخ قد غفا . ثمة يقظة مريرة تبطل نعاسه . قلنا ندعوه الينا قبل ان نتفرق . يجيء الينا او نحن نذهب .

ـ «غضبت منا يا والدي .. مني ؟»

قال ابو الطيب بلهجته الاردنية . فرفع الشيخ الكبير ساعده ببطء عن الثوب على حضنه ، ومسح على عينيه .. وحار هنيهة اين تستقر الكف . ثم حك زاوية الرأس ، واطلق تنهيدة حرى «الله ..» .

ـ «ابدا . انتم كما يقولون في الكتب ، ملحها . لكن ليس بيدي» .

رسم بيده صلاة ، قبل ان يوافي .

ـ «ليس بيدي العيش هنا ولا الموت هناك . اتعرفون ؟»

ومرة اخرى اطلق «الله» وهو مطرق خواطر الرأس .

«انتم شباب ، ثوار . فهمتم من القراءة ، اما انا ؟».

ورأيته ، كانما يزجر الخارطة القديمة التي صلبوها في البيت .. ، من خلل غبش دموعه . بات خجلا منا ودموعه تدرذر .

(انه في «الذاكرة الثالثة» المشبوبة) . فهمت .

عندما كدت افقد ذاكرتي ، فاعتنقت سلاحي المثلوم بقوة ، وانا اريد ان اعثر على جسدي .

فقال جهاد مستأنفا كلام الليلة ، بلهجته اللبنانية :

ـ «يجب ان نحاكم التاريخ الذي صنعه اباؤنا من قبل ، بصرامة · كاد الحديث عن خصوصية قضيتنا ينسينا القوانين ، التي تنتظم ثورات العالم المتخلف»·

لكن الاصدقاء غمغموا ، متأهبين للخروج · اما الشيخ الاب فهو في هذا الوقت يقطر غيظا وحنانا · دعانا للبقاء ، فاستأذن كل منا ، وحيا ·

ـ « يجب ان تنام في هذا الوقت المتاخر ، والبرد ·· » ·

قلت له بعد ان رأيت في عينيه دعوة خاصة لي· فمنعني من ان اغادر· اقترب مني · مد يده الجافة الراعشة وهو يتمتم · تحسس وجهي وصدري بحنو واعتذار · وقلت في نفسي «لافتح له باب الكلام» · ففتحه :

ـ «انكم تسبقونني · فما الذي يقوله العجوز في بيته ؟» ·

ـ «رأيت ماءها ونساءها وقبورها في صورتكم» ·

ـ «ذهبت اليها وحدي ، كما تذهبون اليها كل يوم وحدكم» ·

ـ «لم تعد لي · صارت لكم ، وصرتم لي» ·

التصق بي وهو ينتحب · اخذ يتدفأ بي ، ويحيطني · ولما خرجت زحت اركض حاضنا سلاحي ، صوب طفولتي القادمة ·

٣ ـ فراشات البحر

«الى زبيدة ..»

جاءت في وقت متأخر ، بعد ان استبد به اليأس والرماد · فقال لها وهو يسائل نفسه : ماذا كان يفعل من قبل ·

ـ « كيف تاخذ الصدفة ، شكل الحتم هكذا ؟ » ·

وكأنها تتوقع منه هذا الكلام · فاسدلت اصابعها على شعرها المسدل ، واطلقت ضحكة بيضاء امارة عن فرح (ربما بدا سابقا) ، وتحدثت في موضوع اخر ، ولكنه غير مختلف ·

وبعد ان ســاد صمت قصير ، قالت :

ـ «البحر لا يكف عن اللعب · كل ما رأيته رأيت فيه بحراً اخر» ·

كان السيد الازرق في تلك الساعة ، يرتمي بنعاسه الجبار ، الى جانب الرجل والمرأة، وقد اتصل لونه بلون الافق· وكان هو يعزف عنه ، ويرى فيه

تحديا مبكرا وغير متكافىء (كأن تقول : رجل عنده نوايا البحر وهادىء مثل فراشة · يملأ غروره بيت شعر مثل : البحر غريق تحت فراشات بيضاء) · ولما لم يجد ما يضيفه ، باعتبار ان الموضوع لا يثير خواطره تلك اللحظة ، فقد فتح موضوعا اخر كان في ذهنه من قبل ، ولم يكن مختلفا · فقالت قبل ان يكمل حديثه ، وقد اوشكا الى خاصرة البحر ·

ــ «ومع ذلك اتمنى لو ارمي نفسي فيه · انه يثيرني» ·

ومرة اخرى لم يجد ما يضيفه · اضافة الى رغبته التي انقطعت في مواصلة الحديث فقال في نفسه : «لنبدأ من الصمت ··» ، فسارعت الى القول :

ــ «لم اعد اعرف من اين نبدأ ··»

فألم به شعور ضياع صلة الوصل ، وفداحة السر بينهما ، وهو اذ يتخيل البحر ، وقد ابتلع الفراشات البيضاء الصغيرة ·· ثم انقلب الى غول هائج ازرق ، يتهدده من كل الجهات ، وهو وحيد في رماده ·

٤ ــ امرأة في حياته

تطلعت اليه الممرضة الجميلة بحنان غامر وقالت «انت رائع · تشجع» · فتشجع الولد ورمقها بنظرة طويلة باتجاه واحد ، نسي فيها الوجع والأم . وبعدما خرج الولد من المستشفى وصار رجلا ، رأى في الشارع الرئيسي امرأة صغيرة السن وجميلة · فأصابه اهتزاز في الداخل ، واحبها · وبعد ايام قليلة ، ماتت المرأة فأجتاحه حزن قابض · (وفيما انا في الحزن ، تصاعد من اخر ذاكرتي وجه شفيف وشديد السرية وكان لتلك الممرضة · فادركت بحرقة ان المرأة التي غادرت «هي» · غير انه لم يكن هناك ما يدفعني للتساءل : ان كانت تلك الممرضة حية او ميتة ، هذه الاوقات) ·

محمود الريفاوي

جمعة اللامي

اليوم الاخير من زمن مدينة قديمة

ابتداء من نهاية الصحراء ، حيث تقع بناية بنك «اليشن» (١) ، ركض متعب المطرود في الشارع «كان هو الشارع الرئيسي الوحيد في المدينة» ، مارا بدكاكين الحلاقة والبقالة ، رافعا دشداشته حتى صدره ، بينما كان الاطفال الصغار يركضون خلفه ، مهللين وصارخين ، وقاذفين على اليته صغار الحصى والحجر .

وامام بوابة المسجد وقف متعب المطرود ، رافعا دشداشته حتى صدره ، وهم بدخول المسجد ، غير ان احد الشحاذين صرخ في وجهه :

ـ يا مجنون .. لا تدخل .

توقف متعب المطرود قليلا ثم نظر الى الشحاذ ، ونظر الى نفسه ايضا ، ونظر كذلك الى بوابة المسجد ، واغمض عينيه ، ثم اطلق صوتا ذبيحا .

---

(١) «اليشن» : مدينة موجودة في خرائطي الشخصية فقط . مع قناعتي انكم ، في خرائطكم الشخصية قد تمتلكون مثل هذه المدينة . ولكن اذا اردنا تقريب الموضوع الى الذهن العادي ، فاني ساضع امامكم المعلومات التفصيلية الكاملة عن هذه المدينة والتي استقيتها من الاضابير والوثائق والمستندات التي وجدتها في مخبأ الرجل ـ جواد الاجداد ، وبالاضافة الى المعلومات التي جمعتها من طبيعة المدينة اثناء زياراتي المتكررة لها قبل سنين . اذن اسمحوا لي ان اضع المدينة امامكم :

■ الموقع : تقع مدينة «اليشن» شرق مركز محافظة «ميسان» في وسط البادية تماما . ارضها صخرية . الزراعة فيها قليلة ، اهلها حرفيون .

←

قال الشحاذ لزميل له : يا الله ٠٠ استرنا ٠٠ متعب اليوم على غير عادته ٠

قال زميله : مد يدك ٠٠ لقد تجمع الناس ٠

تجمع الناس على صراخ متعب المطرود ٠ تجمع الصغار ايضا ٠ الكبار تحلقوا حوله ٠ الصغار ظلوا يقذفونه بصغار الحصى ، ظل متعب المطرود يصرخ ٠

احد الكبار تقدم منه وامسك برقبته :

ـ متعب المطرود ٠٠ لم تصرخ ؟

وظل متعب يواصل صراخه ٠

لقد تعود الناس عواء متعب المطرود ، حتى ان بعضهم اعتبره شيئا عاديا في حياة المدينة ، تماما كما هو شيء عادي وطبيعي ان يذهب الرجال الى مسجد المدينة كل يوم جمعة ٠

وظل متعب المطرود يواصل صراخه :

قيل وقتها ان ذلك الصراخ تحول الى خوار ، وقيل ايضا ان متعب المطرود دخل باحة المسجد صارخا ورافعا دشداشته حتى صدره ، وقيل كذلك ان امام المسجد استقبله هذه المرة بكل ود وحنان ٠

ووضع متعب المطرود رأسه على فخذ الامام ، فيما ظلت يداه تمسكان دشداشته بكل قوة ٠ وكان بالامكان رؤية جلد بطنه الاسود يحتك بارضية الباحة الوسخة ، كما ظهر في هذه الاثناء ايضا راعي الجواد ـ فالتفت اليه الجمع ـ وتقدم الى حيث ينوح متعب المطرود

اقترب الراعي من متعب المطرود ٠ مس اضلاعه باصابعه مسا خفيفا ٠ ارتفع رأس متعب بشيء من التوتر ونشر يديه في الهواء واحاط بهما جسد الراعي وصرخ كالمستغيث هذه المرة

كان راعي الجواد يبكي وهو يحتضن جسد متعب المطرود ٠ ثم اخذ امام المسجد يبكي ايضا ٠ كان الامام يبكي بصوت مسعور ٠ قذف نفسه على الباحة ٠ مرغ جسده بالتراب ٠ قام متهالكا وصرخ :

■ الناس : يبلغ سكان الذين نجوا من الغزو البربري (١١١) نسمة فقط ، منهم ٥٩ رجلا و٥٢ امرأة ٠

■ الوضع الاجتماعي :الناس متدينون ، اي انهم يؤدون فرائض العبادة كما توارثوها ٠ توجد خمارة واحدة ٠ مسجد واحد ، مبغى واحد ٠ الا ان هناك خمس عاهرات بقيادة رمزية يقفن على رصيف الشارع الوحيد في المدينة مع بداية المساء ٠

المجانين : واحد فقط هو متعب المطرود حسب اتفاق راي سكان المدينة ٠

التجار : لا يوجد ٠

الادباء : لا يوجد ٠

الفنانون : لا يوجد ٠

←

قصد المنبر المجلل بالسواد ، والقى عمامته السوداء على الارض فتوجس الحاضرون شرا مستطيرا ·

تجمعوا حول المنبر · كانوا صفر الوجوه ، تشابكت ايديهم بصورة لا ارادية · فكوا اياديهم · مزقوا قمصانهم ، واخذوا يلطمون صدورهم ·

من على منبره المجلل بالسواد صاح الامام باكيا :

ـ يا ابناء «اليشن» · احزموا حقائب الهجرة الى مدن اخرى ·· لقد كان معنا الرجل الذي حدثنا عنه الاجداد ولم نعرفه · مات هذا اليوم ـ جواد الاجداد ـ (٢) ·

قالت رمزية (٣) : ولد العاهرات ·· منعونا من الاشتراك في تشييعه ايضا · لماذا لا يتكلم احد ؟ لقد كان يقف عند بابي مرات عديدة ، ورافقته مشيا على الرصيف مرتين ، ومرة واحدة وضع فمه قرب عنقي ·

ابناء العاهرات ·· منعونا من رؤيته للمرة الاخيرة !

---

(٢) «جواد الاجداد ، او الرجل ـ جواد الاجداد » :

استطعت ان اتوصل الى اكتشاف رأيين حول هذا الجواد ، وان بدا ذلك غير قابل للتصديق · على اية حال فليس هذا ذنبي · ذلك لانني في هذه القصة اساسا ارصد مدينة قديمة هي مدينة «اليشن» كما تعلمون ، وفقا لما اراه واكتشفه من خلال نشاطاتي فيها ·

مع هذا الجواد ، صدقوني ، حرت كثيرا · وامام الاوراق والالواح والحكايات عشت سنين كاملة وانا امضي كل وقتي لمعرفة هويته الاصلية · اذ اني بواسطتها ـ بواسطة هويته الاصلية كما تعلمون ـ استطيع تحديد سلالته بالضبط ، كما اتوصل الى تحديد عصره ايضا · وبذلك يتسنى لي معرفة مدينة «اليشن» بصورة مكشوفة ·

حسنا ، لنبدأ تقريب الموضوع كثيرا : انني لو عرفت هوية الجواد لتمكنت من معرفة سلالته ، وبالتالي عصره ، واخيرا سمات ذلك العصر · وعندما اتوصل الى هذا كله استطيع ان «اتصور» الجواد واضحا وبدقة : اي انني ساكون واحدا من ابناء المدينة ·

لكنني ، مع اسفي الشديد ، لم احصل على «كل» ما اريده ·

بدأت اعتقد ، الان ، ان بعضكم اخذ يلومني · حسنا ، ايها القراء الاعزاء ، كفوا عن غلوائكم بعض الشيء ، ولكن قبل انتقرعوا انفسكم ، اغمضوا اعينكم قليلا وحاولوا مثلي تصور الجواد :

■ الوصف :

غرته بيضاء على جبهته يهتدي بسناها المسافرون في ليالي البرد ·

قوادمه الاربعة سود • صـدره ابيض ويمتـد هـذا البياض صـاعدا حتى شفتـه السفلى • وابتداء من نهاية الغرة البيضاء ، التي على جبهته يسيح لون بنفسجي هادىء لينتشر على ظهره وبطنه واوائل فخذيه وذيله ، مع بعض البقع السوداء الداكنة في خاصرتيه ، حيث تميل هذه البقع الى السواد الحالك عندما تتكاثر في اعرافه النافـرات دومـا •

اما عيناه فكانتا سوداوين ، ويقال انهما كانتا واسعتين مع حور واضح •

■ المنشـأ :

(١) ذهب الشيخ حامد الفرهاد للقنص في بادية المدينة ذات سنة ، فصاحبته زوجته «مضرية» ووزيره «هامل المعيوب» مع عدد من الحاشية والاتباع •

قال الراوي : ولما قنص القوم كثيرا من الغزلان عادوا الى معسكرهم فامر الشيخ حامد الفرهاد بالنار ان تضرم ، وبجو القصف الحلال ان يهيأ ، كما طلب ان يرعى (جواده) رعاية طيبة •

في الليل جلس الشيخ وعلى يمينه زوجته ، بينما جلس وزيره الى يساره مبتعدا عنه قليلا • ثم بدأ الغناء والشراب فدبت الخمرة في الرؤوس وبانت واضحة الاثار علـى وجه «مضرية» التي بدت كما العروس •

بعد سويعات تثاقلت عينا الشيخ ، وبدأت ساقاه بالفتور والعياء ، فيما كان وزيره هامل المعيوب ينظر اليه بكل غبطة ، ويرسل طرفه الى مضرية بكل حيطة •

سكـر الشيـخ ••

سكر كل المرافقين •• الا مضرية وهامل المعيوب وجواد الشيخ •

اخذت مضرية تنظر الى وزير زوجها بمعنى تعارف عليه منذ سنوات ، فاستل هامل المعيوب مديته باليمنى واحتوى باليسرى رأس الشيخ وذبحه ، بينما كانت مضرية تسكب خمرا قانيا على الرقبة المقطوعة وتصيح منتشية : «صار الملك لي •• الملك لي» تقدمت مضرية الى وزير زوجها وقبلته من فمه ، ثم سحبت جسدها منه بعد لحظات وسارت الى خيمتها فتبعها الوزير القاتل •

في صباح اليوم التالي ، سمع مرافقو الشيخ صرخة عالية صادرة من خيمـة مضريـة :

واعزيزاه ••

فهـم الناس الامر • حزنوا ثم ارتحلوا

غير انهم لم يجدوا جواد الشيخ ،

فقط •• شاهدوا اثار اقدامه تتجه الى عمق الصحراء •

(من « ما فاتك من دهاء النساء »
مخطوطة موجودة في مدينة اليشن)

(٢) : «في عام من اعوام القحط اغارت احدى القبائل البربرية على مدينة «اليشن» فقتلت من الناس كثيرا ورمتهم في مياه الاهوار المحاذية لطرف الصحراء الجنوبي • ورغم ان بعض القصص والحكايات كثيرة حول تلك الغارة ، الا ان واحدة منها تتصل بنبوءة يعرفها مجلس العلماء جيدا ذات اهمية خاصة •

تقول النبوءة : سيهاجم البرابرة مدينتنا من كل الجهات • سيقطعون الحرث • يخصون الذكور • يقطعون ارحام النساء •

وفي يوم آت «من سنوات قادمة» سيدخل جواد الى مدينتنا • سيظل بيننا فترة من الزمن • سيحبه الرجال والنساء والصغار والكبار • لكنه سيذهب يوما الى الصحراء ويموت في طرف من اطراف المدينة •

هذا الجواد اصله من ضحايا البرابرة • انه ذلك الرجل المعروف في المدينة الذي طعن في قلبه كثيرا لكنه لم يستسلم للموت • وعندما ياخذه الجلاد ليدفن مع ابناء المدينة في البادية يقوم من موته راكضا بجبروت غريب ، فيصاب الجلاد بمرض خبيث ويهيم في الصحراء على وجهه ويبدأ جسده في التحجر ابتداء من اخمص قدميه •

وطوال مدة تحجر الجلاد يتحول الرجل المعروف المطعون في قلبه الى جواد بصورة تدريجية ويطوف في البادية دهورا طويلة ثم يعود الى مدينته القديمة • فاذا عاد ورأى الناس وقد تغيروا فانه سيذهب الى الصحراء ليموت هناك •

يا ابناء ـ اليشن ـ احذروا موت الجواد» •

(من رسالة خطية وجدتها في دار الامام
لم تكن مؤرخة وبدون اي توقيع)

(٣) ـ رمزية :

كبرى العاهرات الخمس • وفدت الى المدينة بصورة خفية • قال الناس عنها اول الامر انها وفدت من الصحراء • ولدتها الصحراء بهذا الشكل الدامي الذي يعكسه حديثها • ويقول تقرير وجد لدى مجلس العلماء عنها ما يلي :

«يعتقد مجلس العلماء ان رمزية ـ التي لا نعرف اسم ابيها ـ جاءت من الصحراء • تتحدث بشكل دام • رهيبة في سلوكها • لا تعرف الرحمة • اتصلت بنساء المدينة في اوقات متفاوتة وعرضت عليهن تنظيم انفسهن في منظمة خاصة بهن برنامجها الاساسي يتلخص في اتاحة الحرية للمراة في مدينتنا ، في الحب طبعا ، دون الاهتمام الى ما يقوله علماء الدين •

ويعتقد مجلس العلماء ايضا ان رمزية (مجهولة اسم الاب) استطاعت ان توقع في حبائلها اربعا من نساء المدينة ، غير ان الهمس الذي نسمعه يؤكد ان نسوة المدينة برمتهن يتعاطفن مع افكارها •• لذلك نؤيد ، وبكل قسوة ، تدمير قواها الشخصية بالوسائل التي ••• الخ •»

واعتقد ان هذا كاف لتتعرف الى رمزية •

جمعة اللامي

وثائق

صبري جريس

الحريات الشخصية في اسرائيل *

احتوت التركة القانونية التي ورثتها السلطة الاسرائيلية عن سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين — بين ما احتوت عليه — على انظمة الدفاع (حالة الطوارىء) ١٩٤٥ وهي لا تترك مجالا من مجالات الحياة العامة الا وتتدخل به — فالانظمة تحتوي، مثلا ، على تعليمات لفرض الرقابة على الرسائل والطرود والصحف ، تقيد الحركة والرأي والنشاط السياسي ، مراقبة وسائل المواصلات والاعتقال والنفي ومصادرة الاملاك وهدم البيوت وطرد السكان من اسرائيل الى خارجها . كذلك اقيمت بموجب هذه الأنظمة شبكة من المحاكم العسكرية الخاصة ، لمحاكمة الذين يخالفون نصوصها . ان ما يهمنا هنا من هذه الأنظمة هو تلك البنود، التي تتعلق بالحريات الشخصية وحرية الرأي والصحافة والتنظيم والعمل السياسي فقط .

ان انظمة الدفاع هذه كانت الأساس القانوني الرئيسي الذي فرضت به اسرائيل الحكم العسكري على المناطق العربية هناك ، وبموجبها فرضت القيود على تنقلات العرب داخل اسرائيل، بعد ان قسمت معظم النواحي التي يسكنها عرب الى مناطق مغلقة لا يجوز الخروج منها او الدخول اليها الا بتصاريح خاصة من الحكام العسكريين . كذلك استغلت السلطات الاسرائيلية هذه الانظمة لمصادرة عشرات آلاف الدونمات من الاراضي التي يملكها العرب ، بعد ان اعتبرت هذه الأراضي مناطق مغلقة لا يجوز الدخول اليها ، وعمدت بعد ذلك لامتلاكها واقامة المستوطنات اليهودية عليها . وفي نهاية الامر لجأت السلطة الاسرائيلية الى استعمال هذا الجهاز لقمع الحركات السياسية العربية داخل اسرائيل ومنع قيامها .

ان المعارضة لنشاط الحكم العسكري من جهة ولاستمرار قيامه من جهة اخرى ، من قبل

---

* فصل من كتاب يصدر قريباً عن « مؤسسة الدراسات الفلسطينية ».

قطاع واسع من الرأي العام الاسرائيلي دفعت الحكومة الاسرائيلية من وقت لآخر ، الى اجراء بعض التعديلات و«التخفيفات» في طرق نشاط هذا الجهاز . ان هذه التغييرات - وكان أهمها ما حدث عامي ١٩٥٩ و١٩٦٦ — عرضت وكأنها استجابة لطلب المعارضة الرسمية والشعبية ، لتخفيف قيود الحكم العسكري من حين لآخر ، ولكنها في الواقع تعود الى اسباب اعمق تتعلق بجوهر السياسة الاسرائيلية تجاه العرب في اسرائيل . وأما دوافع المعارضة الاساسية لهذا النظام فتعود أصلا الى ما تحتوي عليه انظمة الطوارىء من بنود تمس بابسط الحريات الديمقراطية، كحرية التنقل والحركة والعمل ، وطريقة تطبيق الحكم العسكري لهذه الانظمة واستخفافه بالحريات الشخصية للفرد ودوسه لها . ان هذه الصلاحيات واسعة للغاية وبموجبها تستطيع السلطة الاسرائيلية بواسطة الحاكم العسكري تقييد ابسط الحريات الديمقراطية للفرد — وهذا ما يحصل عملياً في اسرائيل — ومنعه من مغادرته البلدة أو المدينة التي يسكنها الى أي مكان آخر في اسرائيل وكذلك منعه من الخروج من منزله ساعات الليل واجباره على اثبات وجوده يومياً ، واحياناً عدة مرات في اليوم ، في اقرب مركز شرطة لبيته وكذلك نفيه الى اي مكان في اسرائيل واجباره على العيش هناك على حسابه الخاص . ولكن هذه ليست كل الصلاحيات التي يتمتع بها الحكم العسكري ، فهناك ايضاً « مسك الختام » — صلاحيات الاعتقال الاداري ، لاية فترة وبدون محاكمة أو توجيه اية تهمة للمعتقل : « مادة ١١١ — (١) يجوز لأي حاكم عسكري ان يصدر أمراً باعتقال أي شخص في مكان اعتقال يقرره الحاكم العسكري في الأمر ... »

والواقع ان اهمية هذه المواد لا تكمن في الصلاحيات الواسعة التي تمنحها للحكام العسكريين — وهي صلاحيات تمس بحد ذاتها ابسط حقوق المواطن وتعرضه للسجن بدون اية محاكمة او تهمة موجهة له لأي فترة كانت — وانما تعود هذه الاهمية في الأساس الى الطريقة التي فسرت بها المحاكم الاسرائيلية هذه الأنظمة ، ومدى الصلاحية التي منحت بموجب هذه التفسيرات للحكام العسكريين عملياً . فوفقاً للنظام القضائي الاسرائيلي هناك جهاز واحد فقط يحق للمواطن التوجه اليه لتقديم الشكوى من السلطة او المطالبة بفسخ قراراتها ، وهي المحكمة العليا الاسرائيلية . ولكن التجربة خلال سنين عديدة اثبتت ان هذه المحكمة ، وهذا أقل ما يقال عنها ، كانت في الواقع ملكية اكثر من الملك ، في موقفها من صلاحيات الحكم العسكري المشار اليها ، بل من كل انظمة الطوارىء وطرق تنفيذها . ان عشرات القرارات التي اصدرتها هذه المحكمة في الشكاوي التي قدمت لها بشأن نشاط الحكم العسكري وتدخله في شؤون لا تعنيه ، راحت في الواقع توسع صلاحيات الحكم العسكري خطوة بعد أخرى وتمنح السلطة الاسرائيلية ، بموجب انظمة الطوارىء ، صلاحيات مطلقة تماماً تستطيع السلطة معها التصرف على هواها ،بل إنهذه المحكمة كانت اول من ادخل فلسفة « واقع الامن » للحياة السياسية — القضائية في اسرائيل ، فسمحت بهذا للسلطات الاسرائيلية ، بممارسة الاضطهاد وكبت الحريات تحت شعار متطلبات « أمن الدولة ومصلحة الجمهور » . ويظهر كأن استعمال انظمة الطوارىء ضد العرب في اسرائيل فقط ، وهي الانظمة التي نادراً ما تستعمل ضد اليهود ، ساعد تلك المحكمة — نفسانياً على الاقل — على اتخاذ هذا الموقف ووضع هذه « النظريات » الامنية . اما الموقف الرسمي للمحكمة العليا من هذه الصلاحيات وطرق استعمالها فهو واضح للغاية ، فهذه المحكمة ترفض رفضاً باتاً التدخل في الاعتبارات او بحث الاسباب الموجبة التيتدفع السلطة للجوء الى استعمال انظمة الطوارىء وتقييد حريات المواطنين او اعتقالهم ، لان هذه الاعمال تتعلق في الاساس بامن الدولة وهي، أي المحكمة،

لا يحق لها ولا تستطيع التدخل في مثل هذه الامور . كذلك لا تسمح هذه المحكمة باستجواب ممثلي السلطة من قبل المواطنين عن الاسباب التي دفعتهم لاتخاذ مواقف معينة كاصدار أمر نفي او اقامة اجبارية او اعتقال اداري ، لأن مجرد ذكر هذه الاسباب قد يضر بامن الدولة. وحتى في الحالات التي تظهر بها تلك الاسباب واضحة – كأن تفرض على شخص الاقامة المنزلية الاجبارية لانه كتب ووزع منشوراً دعا به السكان لتأييد حزب معين – فان المحكمة نفسها لا تستطيع التدخل في اعتبارات الحاكم العسكري عندما اصدر ذلك الامر ، لانه هو وحده المسؤول عن أمن الدولة ومصلحة الجمهور ، وله وحده يعود الحق في تقرير الخطوات التي يجب اتباعها – حتى وان بدت هذه الخطوات سخيفة في أعين الآخرين .

كذلك نرى أن حالة القلق الدائم الذي يشعر به السكان في اسرائيل ، خصوصاً اليهود منهم، بسبب الواقع السياسي الذي تحياه اسرائيل نتيجة للعداء الدائم بينها وبين الدول العربية ، تخلق لدى المواطن الاسرائيلي العادي والرأي العام الاسرائيلي حساسية دائمة تجاه شؤون «الأمن» وكل ما يتعلق بها . وهو الواقع الذي يسهل على السلطة الاسرائيلية اتخاذ اجراءات القمع العديدة وكبت الحريات الديمقراطية متذرعة ان هذه الاجراءات ضرورية للحفاظ على أمن اسرائيل ، وسلامتها . وبذلك تخدر الرأي العام الاسرائيلي وتشل تفكيره ، فتستطيع بذلك تنفيذ معظم مآربها ، من فرض ضرائب جديدة وباهظة على السكان الى اعتقال معارضيها وسجنهم بدون اية محاكمة ، ودون أن تواجه اية معارضة او انتقاد جدي ، محاولة اخفاء طابع متطلبات الامن على معظم اجراءاتها او نشاطها .

ومن خلال هذا الواقع واستناداً الى هذه النظرة نفسها ، طبقت السلطة الاسرائيلية انظمة الطوارىء في اسرائيل بالنسبة للسكان العرب هناك وفرضت عليهم الحكم العسكري ، بما يمثله هذا الجهاز من انتهاك للحريات الديمقراطية ومسخ لها ، مدعية ان تطبيق نظام الحكم هذا واخضاع العرب بصورة دائمة للصلاحيات الاستثنائية العسكرية ضروري للحفاظ على امن اسرائيل ومصالحها الحيوية . بينما الواقع يشير الى ان طريقة الحكم هذه كانت ضرورية للحفاظ على «أمن» اسرائيل السياسي ، وذلك لمنع أي نشاط سياسي ، حتى لو كان نشاطاً علنياً شرعياً ، من شأنه أن يتعارض مع الكيان الاسرائيلي حسب المفهوم الصهيوني التقليدي لهذا الكيان من جهة، وضرب كل العناصر التي قد تراودها نفسها بالقيام باي نوع من النشاط السياسي الذي ينطبق عليه ذلك التعريف الذي اقرته السلطة الاسرائيلية من جهة اخرى .

والواقع ان الترتيب الجديد لاستعمال انظمة الطوارىء الذي اقر في اواخر عام ١٩٦٦ (في الاول من كانون الاول) يرتكز الى حد كبير على طابع نظام الحكم الاشكولي ، بعد ان ولى عهد بن غوريون وانقضى ، ومحاولة رئيس حكومة اسرائيل وقتهـا ، ليفي اشكول ، ومستشاريه صبغ الجبهة بصبغة ديمقراطية شعبية . وهو الاتجاه نفسه الذي امتاز بالنسبة للعرب في اسرائيل ، بوضع سياسة جديدة دعت الى العمل على «دمج» السكان العرب في اسرائيل في الحياة العامة للدولة ومساعدة من يرغب منهم بذلك على ربط مصيره بمصير اسرائيل في الحياة العامة للدولة ، ويتم هذا بواسطة مساعدة العناصر «الايجابية» بين العرب في اسرائيل على النمو وابراز هذه العناصر وتقويتها من جهة ، وضرب العناصر «السلبية» وعزلها من جهة اخرى . أما الفلسفة التي تكمن وراء السياسة الاسرائيلية الجديدة هذه فتتعارض مع استمرار بناء الحكم العسكري ، الذي انتشر تأثيره السيء على الحكم الاسرائيلي وسمعته داخل اسرائيل وخارجها ، ولذا لا بد من ايجاد حل لهذه المشكلة . هذا مع العلم ان اي حل جديد لا يستطيع الابقاء على

الحكم العسكري بحالته الراهنة ، الذي اصبح الاستغناء عنه ضرورياً لكسب العناصر «الايجابية» بين العرب في اسرائيل . هذا في الوقت الذي لا بد فيه ، من الاحتفاظ بانظمـة الطوارىء ، او بانظمة أخرى متشابهة لها ، لمعالجة العناصر «السلبية وضرب نشاطها في اسرائيل» .ولهذا جاء الحل اشكولياً خالصاً في خبثه وتردده ، يشبه الى حد بعيد موقف النعامة التي تدفن رأسهـا في الرمال لاعتقادها ان الغير لا يراها بعد ذلـك ، وذلك عندما اعلنت الحكومة الاسرائيلية عن « الغاء جهاز الحكم العسكري » وتحويل صلاحياته للشرطة ، مع ابقاء انظمة الطوارىء على حالها .

وأما هذا الترتيب الجديد الذي اقرته السلطة الاسرائيلية لاستعمال انظمة الطوارىء وطرق تنفيذها فقد جاء في الواقع تشديداً لما كانت عليه الحال في السابق . فالسلطة الاسرائيلية عندما اعلنت عن الغاء جهاز الحكم العسكري انطوى عملها على تسريح ما يقارب من مائة ضابـط وجندي كانوا موزعين على حوالي ثلاثة عشر مركزاً للحكم العسكري موجودة في الجليل والمثلث والنقب ، حيث تسكن الاكثرية العربية ، ونقلهم الى قطاعات اخرى في الجيش ، بعد اغلاق مكاتبهم – وهذا كل ما كان يعرف بجهاز الحكم العسكري . كذلك اعلنت السلطة عن الغاء كل نظام التصاريح بالنسبة للاكثرية الساحقة من العرب في اسرائيل وسمحت لهم بالتجـول والانتقال الى اي مكان يريدونه ، هذا بالطبع عدا بعض القرى العربية المهدومة ، التي ما تزال تعتبر مناطق مغلقة لمنع سكانها العرب الموجودين داخـل اسرائيل من الرجوع اليها . ولكن من الخطأ الاعتقاد ان هذه التخفيفات كانت نهائية ومطلقة – فالسماح للسكان العرب عامة بالتجول الحر في معظم مناطق اسرائيل تم بواسطة اصدار « تصريح عام » اصدره قادة المناطق الثلاث للجيش الاسرائيلي ، الشمالية والوسطى والجنوبية ، الذين حولت صلاحيات استعمال انظمـة الطوارىء وتطبيقها لهم ، وهم يستطيعون الغاء ذلك « التصريح العام » في أي وقت يشاؤون . كذلك فان هذه التسهيلات لا تسري على اولئك الذين يتلقون اعلاماً بذلك من الشرطة ، الـتي اصبحت الجهاز التنفيذي لانظمة الطوارىء ، صاحب الصلاحيات المطلقة في المجال .

والواقع ان التشديد في تطبيق انظمة الطوارىء والانتقاص من الحريات الاساسية للفرد حدث مع تحويل تلك الصلاحيات الى شرطة اسرائيل ، وبالضبط الى قسم المهمات الخاصة في الشرطـة الذي يؤدي دور الشرطة السياسية في اسرائيل ، عمله الرئيسي الاهتمام بالعرب ومكافحة التجسس ومراقبة السواح الاجانب ، خاضعاً في تنفيذ مهماته هذه للمخابرات الاسرائيلية الداخلية ،ويعتبر واحداً من الاجهزة الخمسة التي تتألف منها المخابرات الاسرائيلية . ان هذا الجهاز نفسه هو الذي كان يقف اساساً وراء نشاط الحكام العسكريين ، ويزودهم «بالنصائح» الضرورية من وقت لآخر مع الغاء «المراقبة» التي كان الحكم العسكري يفرضها على هذا الجهاز ، من الناحية البيروقراطية على الاقل ، راح هذا الجهاز يمارس نشاطه بهمة ونشاط . ومع اعلان الموافقة على الترتيب الجديد واقرار الحكومة له وتحويل صلاحيات استعمال انظمة الطوارىء للشرطة ، بدأ هؤلاء يوزعون عشرات التباليغ على اولئك الذين يعتبرونهم من العناصر «السلبية» بين العرب في اسرائيل وزعماء «المحرضين» ضد الدولة ونظامها واسسها ، التي تقضي بفرض الاقامة الاجبارية عليهم ومنعهم من مغادرة مدنهم او قراهم بدون تصريح – بينا كانوا في الماضي يستطيعون التجول ضمن منطقة كاملة بدون تصريح – او فرض الاقامة المنزلية عليهم ومنعهم من مغادرة بيوتهم في ساعات الليل واجبارهم على إثبات وجودهم يومياً لدى مراكز البوليس .

ان نشاط هذا الجهاز والطريقة التي يمارس بها ، خلال السنوات الاربع الاخيرة — منذ أقر في أواخر عام ١٩٦٦ وحتى أواخر عام ١٩٧٠ — لا تترك مجالاً للشك بان السلطة الاسرائيلية بحاجة لانظمة الطوارىء للمحافظة على امنها السياسي ، وهي السياسة التي تطبق تحت ستار متطلبات أمن الدولة وتعرض كأنها ضرورية للمحافظة على كيان اسرائيل ، بينما الواقع يظهر ان الهدف الأول لهذا النشاط هو القمع السياسي وضرب المناوئين السياسيين ، ومن خلال ذلك تقلص الحريات الديمقراطية رويدا رويدا . بل ان الطريقة التي تنفذ بها السلطة الاسرائيلية اجراءاتها في هذا المجال تظهر فيه السلطات الاسرائيلية هذه على اوضح ما تكون ، فخلال السنوات الاربع الاخيرة ، ومنذ اقرار التنظيم الجديد لاستعمال انظمة الطوارىء ،الغت السلطات الاسرائيلية كلياً نظام تصاريح السفر (عدا ما يتعلق منها ببعض المناطق الصغيرة والنائية) ، مع انها كانت دائماً على ضرورة وحيوية هذه الاجراءات التي تحد من حرية التنقل ، للمحافظة على امن الدولة ، ورغم ان ظروف الامن لم تتغير ، بل بالعكس ربما تكون قد تغيرت الى الاسوأ بعد ١٩٦٧ . وبعملها هذا خلقت السلطة الاسرائيلية انطباعاً عاماً لدى الرأي العام ، ولدى عامة العرب في اسرائيل ، من ان قيود الحكم العسكري وانظمة الطوارىء قد زالت وان اسرائيل اصبحت دولة ديمقراطية مثالية . وبالفعل خففت السلطات الاسرائيلية كثيراً من القيود التي كانت مفروضة على العرب ، بصورة تجعل العربي،أو أي عنصر معارض في اسرائيل ، يشعر بالهدوء والطمأنينة، ما دام يهتم بعمله وشؤون حياته اليومية ويبتعد عن النشاط السياسي — وبالطبع النشاط السياسي ضمن صفوف المعارضة . ومن جهة أخرى راحت السلطة تفرض القيود الشديدة على عناصر المعارضة البارزة بين العرب ، أو على تلك العناصر التي قد تؤيد المعارضة وتساعد على تقويتها ، وهذا بالفعل ما يظهر من نوعية العناصر التي تفرض السلطة الاسرائيلية القيود عليها وتحاول مقاومتها بشتى الطرق ، فتجد قوائم مقيدي الاقامة تحتوي على عناصر مختلفة ، كالمثقفين ورجال الاعمال الحرة والعمال والفلاحين وطلاب الجامعات واعضاء بعض الاحزاب السياسية . كذلك نلاحظ انه حوالى نصف المحامين العرب في اسرائيل يخضعون ايضاً للقيود المختلفة ، وهذا ايضاً يسري على الكثير من اعضاء المجالس البلدية او المحلية في القرى العربية ، الذين لا يؤيدون خط السلطة السياسي . وكذلك تظهر هذه السياسة واضحة في موقف السلطة من الحزب الشيوعي الاسرائيلي (ركاح) ، الذي يضم بين صفوفه أكثرية عربية ، فنرى أن معظم أعضاء قيادة الحزب وبينهم أعضاء المكتب السياسي للحزب ومحررو ومراسلو صحفه وأمناء سر الفروع في القرى وقادة الشبيبة الشيوعية ، يخضعون جميعاً للقيود المختلفة . وهذا الموقف بالذات يعود أساساً لكون الحزب الشيوعي في اسرائيل المنظمة السياسية الوحيدة غير الصهيونية ، التي تمارس نشاطاً شرعياً في اسرائيل ، ونظرة السلطة للحزب على انه مركز استقطاب للعناصر المعادية لاسرائيل وبخصوصاً العناصر العربية « المتطرفة » ، هذا على الرغم من حقيقة تحول الحزب الى حزب المؤسسة الاسرائيلية الشيوعي ، الذي يعمل جاهداً على منع المس بالكيان الاسرائيلي ويحصر نشاطه في الدعوة لتغيير السياسة الاسرائيلية . صحيح ان أعداد هؤلاء المقيدين ، الذي تدعي السلطة الاسرائيلية انهم لا يزيدون على الف شخص — مع ان هناك مجالاً للشك في صحة هذه الارقام ، اذا قورنت بالعدد الاجمالي للعرب في اسرائيل ، الذي يبلغ حوالى ٤٠٠ الف ، ولكن هذا العدد يشكل في الواقع ما نستطيع أن نسميه الزعامة السياسية والفكرية للعرب في اسرائيل، وهي القيادة التي تحاول السلطة الاسرائيلية ضربها وتقييد نشاطها أو شله ، اذا أمكن ، وبهذا تستطيع المحافظة على «الهدوء» بين العرب في اسرائيل وحماية مصلحة السلطة السياسية ومصلحة المتعاونين معها .

والحديث عن فرض قيود الحركة والتنقل على الاشخاص في اسرائيل وطريقة استعمال السلطة الاسرائيلية ، قد يخلق لدى المرء انطباعاً بان هذه القيود ليست الا مجرد اجراءات استثنائية تطبق بصورة شبه عادية ، وتمس الحريات الديمقراطية بطريقة غير مباشرة . ولكن الواقع أبعد من هذا بكثير ، وقد لا يستطيع أن يشعر به الا من يعيش ذلك الواقع . فالسلطة الاسرائيلية تطبق هذه القيود بطرق منسقة تماماً وغاية في الدقة ، بصورة تضطر المواطن الى مجابهة هذه القيود دوماً وتجعله يشعر بها بوضوح دائماً . فأوامر الاقامة الاجبارية تجدد عادة من سنة لاخرى ولمدة سنة كاملة كل مرة أو ستة أشهر على الأقل ، وأوامر الاقامة المنزلية تصدر لفترة ٣ أشهر على الأقل وكثيراً ما تجدد لفترات أخرى حتى تصل السنة أو السنتين . وقد نستطيع أن نعلم مدى تأثير هذه الاجراءات على المواطن ، اذا علمنا انه بموجبها يمنع الشخص ، مثلاً ، من الخروج من بيته في ساعات الليل او زيارة أصدقائه أو حضور السينما أو الاشتراك في حفلات أو حضور الأعراس أو المآتم . كذلك يمنع الشخص المقيد على الأخص من حضور المحاضرات ، أياً كان المحاضر ، أو الاجتماعات السياسية . وبهذه الطريقة نفسها يمنع المواطن من مغادرة بلدته أو التوجه يومياً لمكان عمله ، اذا كان على الاخص خارج البلدة التي يسكنها ، الا بتصريح خاص يجدد من فترة لاخرى وكثيراً ما يسحب تماماً . إن هذه الاجراءات قد تظهر «مقبولة» اذا طبقت لفترة محدودة ، ولكن السلطة الاسرائيلية لا تتورع في الواقع عن تطبيقها لفترات طويلة، تبلغ مدتها عدة سنين أحياناً ، بل اننا نجد في اسرائيل العشرات من المواطنين الذين لم يتمتعوا مرة بحرية التنقل والحركة داخل اسرائيل منذ قيامها وحتى يومنا هذا ،عندما كانوا دائماً مقيدين بطريقة أو بأخرى . والواقع أن قسوة هذه الاجراءات تكمن أساساً في تطبيقها الدائم على الشخص الذي تفرض عليه ، بطريقة تدفع الكثيرين من غير القادرين على تحملها ، الى الكف عن المجاهرة بآرائهم أو ايقاف كل نشاط لا ترضى عنه السلطة ، وتجعل من الحريات الديمقراطية في اسرائيل شبه حقوق تتوقف ممارستها والتمتع بها على رأي السلطة واعتباراتها المطلقة ورضاها عن المواطن .

كذلك لا بد هنا من الاشارة الى أن موقف السلطة الاسرائيلية من هذه الحريات آخذ في التشدد والتنكر لهذه الحقوق ، وخصوصاً منذ حرب حزيران ١٩٦٧ ، فأوامر الاقامة الاجبارية والمنزلية توزع « بسخاء » على المواطنين ولأتفه الاسباب ، هذا في الوقت الذي يكثر فيه استعمال أوامر الاعتقال الادارية وتزداد مدتها ، فبينما نرى أن السلطات كانت تعتقل في الماضي ولفترات قصيرة نسبياً ، بناء على أوامر الاعتقال الادارية ، نرى انه حتى منتصف عام ١٩٧٠ بلغ عدد المعتقلين من العرب في اسرائيل بهذه الصورة حوالى ٨٠ شخصاً ، ومنهم من كان وقتها لا يزال معتقلاً لفترة تزيد على سنتين ، بدون أية محاكمة أو تهمة توجه له . كذلك يبدو واضحاً أن موقف السلطة في هذا المجال يميل الى التشديد والتزمت . فبينما كان الحديث يدور في الماضي حول الغاء أنظمة الطوارىء أو تعديلها على الاقل ، نرى أن هذا الحديث قد اختفى تماماً بعد ١٩٦٧ ، بل أن السلطة الاسرائيلية – وكما يظهر على ضوء التجربة مع العرب في اسرائيل – فرضت تلك الانظمة نفسها على المناطق العربية المحتلة عام ١٩٦٧ ، ومن ضمنها الاقامة الاجبارية والمنزلية ومنع التجول والاعتقالات الادارية . كذلك يبدو واضحاً ان سلطات الاحتلال الاسرائيلي تمارس هذه الصلاحيات بقسوة وفظاظة بالغتين .

إن نفوذ الأمن، حسب المفهوم الاسرائيلي له ،لم يكتف بالنواحي التي ذكرناها،وانما تعداهــا الى مجالات أخرى تمس حياة المواطن بالذات . ونقصد بهذا ضمان سلامة الاشخاص الموقوفين أو المسجونين ، عندما يكونون محتجزين داخل أمكنة التوقيف أو السجون ، وعدم تعرضهم للضغط أو للتعذيب مما قد يودي بحياتهم . ومرة أخرى ، تحاول السلطة الاسرائيلية المحافظة على حياة وسلامة الاشخاص المعتقلين أثناء فترة اعتقالهم وعــدم تعرضهم للتعذيب في هذه الحالة . ولهذا ينص القانون الاسرائيلي على وجوب التحقيق ، من قبل محكمة ، في كل حادث وفاة غــير طبيعي وكذلك في وفاة أي شخص داخل جدران المعتقل أو السجن ، مهما كان سبب الوفاة . وكذلك يحق لأقارب المتوفى طلب اجراء تحقيق ، ان شاءوا ذلك ، واتخــاذ كل الاجراءات الكفيلة بكشف سبب الوفاة والاطلاع عليها . ان موقف السلطة الاسرائيلية هذا يمس بدون شك بأبسط الحريات الشخصية للفرد ، وقد لا نبالغ ان قلنا ان هذا الموقف يساعــد رجال الأمن (التحقيق) والمحققين الاسرائيليين على ارتكاب جرائم القتل داخل السجون والمعتقلات ، أو ربما يدفعهم الى ارتكاب هذه الجرائم عندما يعلمون انه يمكن التستر عليها ومنــع الجمهور والأشخاص المعنيين من الاطلاع على أسباب الوفيات المشبوهة داخــل السجون والمعتقلات تحت ستار متطلبات الأمن السرية .

صبري جريس

بيتر فايس
(Peter Weiss)

الحضارة المتوحشة

(الغارة الجوية الاميركية على جمهورية فيتنام الديموقراطية)

١ ـ الحدث

في ساعات الصباح الباكرة من يوم السبت الواقع في ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٠ قام السلاح الجوي الاميركي بغارات كثيفة على المقاطعات المكتظة بالسكان : هاي فونغ ، كوانك نينه ، هاتاي ، وهوابينه الواقعة شمال خط العرض التاسع عشر ، وكذلك على مقاطعتي كوانك بينه وهاتينه الواقعتين جنوب هذا الخط · وقد اصابت القنابل التي القيت على المنطقة الشمالية الشرقية من مقاطعة هاتاي ضواحي مدينة هانوي· ان تقارير البنتاغون قد ناقضت الواقع حين اعلنت عدم وصول الغارات الى شمال خط العرض التاسع عشر · وكذريعة للقصف اعلن ان الموضوع يتعلق بعمل تاديبي ذي حجم محدود يجب اعتباره كاجراء انتقامي ، لان سلاح الدفاع الجوي لفيتنام الشمالية كان قد اسقط في الاسبوع الفائت طائرة استطلاع اميركية فوق اراضي جمهورية فيتنام الديمقراطية ، كما جرى التهديد بالقيام بعمليات مماثلة اذا ما ثبت ضرورة حماية طياري طائرات الاستطلاع ·

٢ ـ تعليل الولايات المتحدة الاميركية

تفترض الولايات المتحدة انه امر شرعي ، منذ ما يسمى بايقاف الغارات في ٣١ تشرين الاول عام ١٩٦٨ ، ان تقوم برحلات استطلاعية يومية ، تحميها احيانا طـائرات فانتوم مسلحة ، فوق اراضي جمهورية فيتنام الديمقراطية · وهي تصف هذه العمليات بانها جزء من اتفاقية ، مع ان جمهورية فيتنام الديمقراطية تنكر وجود مثل هذه الاتفاقية· بناء على جميع البيانات العلنية ، كان الامر في اعلان ٣١ تشرين الاول ١٩٦٨ يتعلق بانهاء

غير محدود للغارات الاميركية على جمهورية فيتنام الديمقراطية · ان الحق الـذي تدعيه الولايات المتحدة لنفسها باستمرار طائراتها بالقيام برحلات استطلاعية لا يمكن اعتباره سوى قرار من طرف واحد · وكذلك من طرف واحد هي الفرضية الاميركية انه يمكن ان تجري هـذه الرحلات ، بحرية ودون عائق ، لتصوير اعمال اعادة البناء وتحركات القوات ·

٣ ـ الغارات على ج·ف·د منذ ايقاف الغارات

تقول تقارير ج·ف·د التي نشرت منذ تشرين الثاني ١٩٦٨ انه لم يكن هناك دائما رحلات استطلاعية وحسب وانما كذلك غارات جوية مسلحة على اراضي ج·ف·د ان الاحتجاجات هي ضد الرحلات الاستطلاعية وكذلك ضد الغارات التي اصابت ، خـاصة ، المقاطعات التي تقع مباشرة شمال خط العرض السابع عشر ·

مثال على واقع العدوان الاميركي بعد ما يسمى بايقاف الغارات غير المشروط ما جاء في تقارير الجانب الفيتنامي الرسمي عن شهر تشرين الاول ١٩٧٠ : اغارت ١٥٤٠ طائرة في ٩١٠ عمليات على سائر مقاطعات ومدن ج·ف·د تقريبا· طوال ٢٢ يوما القيت الاف الاطنان من القنابل على غرب مقاطعة فينه لينه ، شمال المنطقة المجردة من السلاح ، في حين سقطت ٢٩٠٠ قنبلة متفجرة و٨٥٠٠٠ قنبلة من نوع C. B. U. على اجزاء من مقاطعة كوانغ بينه والجزء الشمالي من فينه لينه · وفي ٢ ايار و٥ ايلول من هـذا العام اعترفت واشنطن رسميا بوقوع غارات على اراضي ج·ف·د ، وقد استعمل ، في كلتا الحالتين ، المصطلح نفسه الذي استخدم في الحالة الحاضرة : تاديب ، اجراء انتقامي ، ضروري لحماية حياة الطيارين الاميركيين والى جانب التشديد على الحق بالطيران الحر بقصد الاستطلاع ، ادعي بان الغارات التاديبية انما اقتصرت على مواقع الدفاع الجوي واهداف عسكرية أخرى ·

٤ ـ اللغـة

منذ بداية قصف فيتنام الشمالية في اب ١٩٦٤ والبنتاغون يتمسك بادعائه ان الهجوم لا يجري الا على اهداف عسكرية هامة · وقد ثبت حتى الان بشكل واضح ان المقصود من هذه «الاهداف العسكرية الهامة» هو كامل البناء الاقتصادي والاجتماعي للبلاد ، الى درجة لا يجوز معها بعد التعرض لذلك · حتى تموز ١٩٦٨ القي خلال ١٠٧٠٠٠ غارة ٢٢٨١٨٧٦ طنا من القنابل على سائر مقاطعات ج·ف·د ليس من الضروري هنا اعادة وصف الدمار الشامل الذي اصاب اسس الحياة للشعب ، هذا الدمار الذي لا يمكن وصفه سوى انه جريمة بحق شعب كامل · ان بداية هذه الجريمة الجماعية ترتبط بادعـاء الغارات التاديبية بعد ما يسمى بحادث تونكينغ في اول آب ١٩٦٤ ، الذي هـو عمـل استفزازي واضح من قبل الولايات المتحدة التي خرقت بوحدات من اسطولها الميـاه الاقليمية لجمهورية فيتنام الديموقراطية · ان غارات الابادة الكثيفة التي بدات في ٧ شباط

١٩٦٥ على جمهورية فيتنام الديموقراطية وصفت ، مرة ثانية ، انها عمليات تأديبية كجواب على هجوم الفيتكونغ على القاعدة الامريكية بلاي كو في شمال فيتنام الجنوبية ، وذلك كعادة حكومة الولايات المتحدة دائما بتكرار الكذب بأن كل هجوم على ج ف د يجب تقييمه كاجراء دفاعي ضد تدخل الفيتناميين الشماليين في جنوب فيتنام ٠ على المرء ان يذكر مرة اخرى انه لم تعلن حالةالحرب بين الولاياتالمتحدة وجمهوريةفيتنامالديموقراطية ولا بين الولايات المتحدة وجبهة تحرير فيتنام ٠ وعلاوة على ذلك ـ وهذا منذ المساعدات الامريكية الاولى للطغمة الرجعية في سايغون ، بل حتى اثناء المحادثات في جنيف عام ١٩٥٤ ـ يستمر الادعاء بان الولايات المتحدة تتواجد في فيتنام فقط لمجرد حماية شعب فيتنام الجنوبية ٠

ضربات انتقامية ، عمليات تأديبية ، اجراءات جزائية ، عمليات محدودة لحماية الحياة الامريكية والمعاهدات مع الحلفاء ، عمليات تطهير ، احلال السلام ، نقل السكان الى قرى محصنة : هذه هي بعض الاوصاف الرئيسية التي اخفت تحتها قوات الولايات المتحدة هجومها على فيتنام اولا ثم على لاوس وكامبوديا ٠ اننا نعلم انه علينا ان نفهم ان الوجود الامريكي في الهند الصينية لا يعني سوى استعمار جديد لا يرحم وابادة بشرية تمارس بكل وعي ٠

٥ ـ ترجمة اللغة

ان الاستخدام الثابت للغة ، كما تستخدم منذ بداية « الالتزامات الامريكية » في جنوب شرقي آسيا ، يشير بوضوح الى الجذور التي ترتكز اليها : انها اللغة نفسها التي استخدمها الرايش الالماني في هجومه الاجرامي وحملات الابادة ٠٠٠ انها لغة الفاشية ٠ منذ قرار الرئيس كيندي ، الذي ما زالت تحيط به ـ خطأ ـ هالة رسول السلام ، بضمان مساندة الولايات المتحدة التامة للديكتاتور الفيتنامي نغو دينه دييم (كانون الاول ١٩٦١) ، مرورا بخلفه جونسون حتى نيكسون ، اصبح استخدام اللغة الفاشية في الولايات المتحدة اقل تغطية واكثر حدة ٠ ان هذا الاستخدام لا يعكس سذاجة تغطية بعض العمليات العسكرية فحسب ، وانما يعكس ذلك شكلا كاملا من اشكال الوجود الذي اصبح جليا في داخل الولايات المتحدة نفسها ايضا ٠

لقد فشلت محاولة التخفيف من حدة المشكلة الداخلية للعنصرية الامريكية وسحبها على حرب ضد شعب آسيوي ٠ واشتدت في الاعوام الاخيرة التناقضات الاجتماعية في الولايات المتحدة الى درجة ان الحكومة ، بحرسها القومي وقواتها البوليسية ، تجد امامها اليوم على ما يبدو القوى المعادية نفسها التي لم تنجح في ضربها في آسيا ٠ ان السكان الزنوج بطليعتهم المناضلة ينتمون ، كعامل قوة ممكن ، الى العالم الثالث الذي انتفض ضد استغلال الامبريالية ٠

ان اللغة الفاشية نفسها الموجهة ضد شعوب الفلاحين في جنوب شرقي آسيا واعمال الارهاب نفسها التي اصابت تلك الشعوب ، توجه الان ضد القوى المعارضة في الولايات المتحدة الامريكية ، ضد المناضلين الزنوج ، ضد حركة المقاومة الطلابية ، ضد المتمنعين

عن تأدية الخدمة الحربية ، هذه القوى التي لم تستطع بعد ، في الواقع ، خلق الوحدة السياسية التي يتميز بها كفاح الشعب الفيتنامي ·

٦ ـ الفاشية في الولايات المتحدة الامريكية

لا تزال الفاشية ـ الامبريالية ، كما نراها في الولايات المتحدة الامريكية ، تحوي صمامات امان قوية تصعب على الرأي العام رؤية تشابه مباشر بين الفاشية الامريكية الحالية والفاشية الالمانية السابقة · ان كافة وسائل الاعلام الرأسمالية تتمسك اكثر ما تتمسك بفكرة ديموقراطية الولايات المتحدة ، ونادرا ما تكون على استعداد لتسمية الظواهر الحالية باسمها الصحيح · وهذا لان معظم الصحف الغربية الكبرى ومحطات الاذاعة والتلفزيون تمثل مصالح الطبقات الحاكمة ، والدول التي تعمل فيها مرتبطة الى درجة كبيرة برؤوس الاموال والشركات الامريكية ، ولان جميع هذه الوسائل تقريبا مطبوعة بطابع الخوف من الشيوعية ، ولانها ، اذا ما كانت ليبيرالية النزعة ، لا تزال تبقي تدخل القوات الامريكية لتحطيم الفاشية الالمانية ماثلا في الذاكرة · ان العدد الكبير من القراء ، من العمال والسكان العاملين ، في البلدان الغربية لا يعرفون سوى القليل ـ هذا اذا عرفوا شيئا ما ـ عن الارهاب الذي ما زال مستمرا منذ عشرة سنوات في جنوب شرقي آسيا ، حيث لا تروى لهم سوى احداث منفردة تقدم لهم بشكل مثير بعد ان يجري ، بكل عناية ، تغطية مسؤولية القوى التي تقف وراءها · كمثال على ذلك ذكر مذبحة سونغ ماي او « اكتشاف » اقفاص النمور في معسكر الاعتقال في جزيرة بولو كوندور · ان التقارير تخفي كليا ان مثل هذه الظواهر هي مجرد نتائج ـ اختيرت بالصدفة ـ لتركيبة اجتماعية معينة ·

ان الوحشية والشراسة وحب التدمير والظواهر المرضية في العمليات الحربية الامريكية لا تلقى سوى القليل من الدراسة والتحليل · وكذلك ازدياد العنف الذي يقع ضحيته الامريكيون الزنوج النشيطون الواعون سياسيا · صحيح انه يشار الى المعاملة السيئة التي يلقاها بوبي سلز في قاعة المحكمة ، او اعتقال انغيلا دافيس والخطر الذي يتهددها بارسالها الى حجرة الغاز في كاليفورنيا ، لكن هذا كله لا ينفذ الى وعي اشتمل على صور من معسكرات الاعتقال النازية · وفي حين تزداد الاعتداءات التعسفية على فئات معينة من السكان مثل افراد الاقليات العنصرية وممثلي الايديولوجيات المكروهة ، ينتزع البوليس مواطنين من اسرتهم ويطلق عليهم النار ، وفي حين يلقون في زنزانات السجون معزولين عن كل دفاع ، ويهددهم خطر الاعدام بالغاز بسبب اقتناعهم السياسي، كما هو الحال مع انغيلا دافيس ، وفي حين يلقى خصوم الحرب اقذع انواع الشتائم ويضربون ويعذبون ، وفي حين لا يحدث شيء لاصلاح الاوضاع المرعبة في الاحياء الفقيرة للمدن الكبرى ، وفي حين تتسع الهوة ، بين المفتقرين والاغنياء في امريكا نفسها ، وتكشف كل ساعة حوادث الاعتداء والحريق والقتل والانتحار والادمان على الكحول والمخدرات ـ المرض القاتل في المجتمع ، ويأخذ التشويه العام للفكر والعمل اكثر الاشكال فعالية ، في حين يحدث هذا كله ، ما زال يحافظ على مظهر الدولة القانونية ، ورغما عن الدلائل الواضحة لتغلغل روح رجال العصابات الى اعلى مستويات قيادة الدولة ، ما يزال المواطن

الغربي العادي لا يريد ان يعترف لنفسه بمدى خطورة القوة اللا انسانية التي تتجمع في قارة امريكا الشمالية والتي تهدد العالم ٠ ان القدرة على التفكير ورد الفعل لقراء الصحف ومشاهدي التلفزيون مخدرة ، بواسطة شبكة الكذب الكثيفة لوسائل الاعلام ، الى درجة لا يمكن معها ربط اكثر الافعال بشاعة ـ التي نصادف صورة باهتة عنها في التقارير ـ مع وظيفة فئة سلطوية تخلت عن كل خلق والتي لا يهمها سوى الحفاظ على مراكزها والقضاء على كل مقاومة ٠

٧ ـ تناقضات في الفاشية الامريكية

يبرز بعض شيوخ الكونجرس ذوي الاراء الثابتة دائما كظواهر ايجابية ٠ ان الامكانية المعطاة لهم لنقد اجراءات الحكومة المثيرة للسخط ، واجراء اجتماعات ومناقشات مفتوحة مع السياسيين القادة ، والقيام بدور المدافع في حالات الظلم المكشوفة، الخ٠٠٠ يعطي للصحافة العالمية البورجوازية الفرصة لتقديم الدولة الامريكية كدولة مثالية تقريبا ٠ ولكن لا يدرك سوى القلائل ان هؤلاء المدعين العامين ليسوا في الواقع سوى ممثلين للنظام ومدافعين عنه ، اذ انه لا يمكن العثور من بينهم ، من فولبرايت المدافع عن القانون الى تيد كيندي الطامح بالمناصب ، على من يضع نظام الاستغلال الامبريالي ، الذي تمثله الولايات المتحدة ، موضع تساؤل ٠

ويذكر كتناقض اخر مع الفاشية الالمانية القائمة على الانضباط العسكري وعلى الطاعة والخضوع ، الادمان على المخدرات المنتشر في صفوف الجيش الامريكي في الحاضر ٠ هنا يمكن الحديث فعلا عن مقاومة ضد الحملة في الهند الصينية ، وان كانت هذه المقاومة لاشعورية الى حد بعيد ٠ ان قيادة الجيش نفسها تعترف ان نصف عناصر القوات تخدر نفسها بالحشيش والماريهونا ٠ ومما لا شك فيه ان هذا يزيد من عزيمة الفييتناميين الذين يراقبون هذه الظاهرة بصمت، باعتبار ان المستعمرين الامريكيين، على عكس المستعمرين الفرنسيين الذين كانوا يخدرون السكان بالافيون ، هم الذين يخدرون انفسهم ٠ ان مرحلة السقوط التي لم تتجاوز في الفاشية الالمانية الخمسة اعوام ، تستمر في وريثتها الامريكية فترة اطول بكثير وهي تدخل الان فقط مرحلتها الاخيرة الطبيعية ، يرافقها تفكك داخلي ، ولا عقلانية وهوس بالدمار ٠ ان ما قام به النازيون منذ استلامهم للسلطة من افناء منظم لخصومهم السياسيين وضحايا تعصبهم العنصري ، يستدركه الامريكيون الان ، بفردية اكثر ، واقل ملاءمة للنظام الجماعي ، ولكن ليس باحتقار اقل للبشر ٠ ان الكره الذي نعرفه عن الممثلين السابقين « لرايش الالف عام » نراه حيا في لغة المتحدثين باسم الحكومة الامريكية ٠ انهم لا يختلفون ، في حيلهم الشريرة وجعجعاتهم الجنونية ، عن اسلافهم الذين ظل احدهم يصرخ الى اخر لحظة : هل تريدون الحرب الشاملة ؟ ـ وهناك العديد من قادة الحملة في الهند الصينية الذين يدعون الى استخدام القنابل الذرية ضد هذا الشعب الاسيوي الصلب ، الذي لا يريد ان يرغم على الركوع على ركبتيه ٠

٨ ـ العمى

في دولة كبرى حيث فكرة الاثراء الشخصي هي ايديولوجيتها الوحيدة ، وحيث النجاح الاقتصادي هو القيمة العليا ، وحيث تقاس قوة الفرد ومدى حقوقه المدنية بمقدار رصيده في البنك ، في مثل هذه الدولة لا بد ان تقع ازمة عنيفة ، اذا ما اصطدمت هذه المعايير فجأة بقيم من نوع آخر . ان القوة المالية المتكدسة بشكل فاحش لم تنجح في قهر واستعباد شعب آسيوي صغير ، مفتقر ، متأخر ، من مزارعي الارز ، وذلك بعد خمسة عشر عاما من استخدام اكثر الافعال وحشية . ان ذلك مما يثير حيرة المخططين الامبرياليين الاقوياء ولا يبقى لهم سوى الصراخ والزعيق ، كما نرى اليوم ممثلي الحكومة الامريكية يفعلون . انهم ، هم ممثلو جنس السادة ، في وعيهم بتفوقهم المادي الذي يسمونه حضارة ، يقفون امام شعب غريب لا يعرفون اي شيء عن تاريخه وخبراته العميقة وثقافته الفكرية الغنية ، لقنهم في غضون خمسة اعوام درسا بانه لا يمكن الانتصار عليه ولا باية قوة ممكنة على شكل قنابل متفجرة ، قنابل شظايا ، قنابل مملوءة بالرصاص ، قنابل نابالم ، فوسفور ، على شكل غاز ومواد سامة اخرى ، على شكل هجوم في الليل والنهار على اسس وجوده ، ولا بتدمير اقتصاده القومي وزراعته تدميرا لم يعرفه العصر الحديث . ان هذا ما يدفع السادة اليائسين في البنتاغون والبيت الابيض الى اعادة ضرب هذا الخصم . ولانهم لم يستطيعوا النيل منه ، ولان المرتزقة الامريكيين ليسوا ميالين الى الخروج من سلبيتهم العمياء والبحث عن الثوار الذين يخافون منهم ، فانهم يرسلون اليهم اسراب طائراتهم . انه لاكثر سهولة من القتال في الادغال ، الضغط على الزر في اعالي الجو ، والقاء حمولات الفناء على القرى وحقول الارز والسدود والمدارس والطرقات والمواشي . ان القيادة العسكرية تسمي مثل هذه الاعمال اعمالا تأديبية ، انتقامية . لكنها ، في الواقع ، اعمال العجز والفشل . انها اعمال جبناء مفلسين عاجزين عن التفكير الفاحص ، عاجزين عن المسؤولية وعن اي نوع من انواع الاهتمام ، لم يعودوا يعملون الا كأجزاء في جسم انسان آلي مخيف ، هذا الجسم الذي يمثل ، على ما يبدو ، ثراء الولايات المتحدة اللامحدود . ان كل جسم طائر محشو بالقنابل يكلف ملايين الدولارات ، وكل هذه المليارات التي لا تحصى ، التي استثمرت في غضون العقد الماضي في وسائط التدمير ، لا يمكنها ان تعود بالربح الا على نفس مجنونة كليا . ان قسما كبيرا من الثروة القومية الامريكية يستغل فقط لمحو زاوية قارة نائية بكل ما عليها من حياة وزرع . واولئك الذين لم يفقدوا بصيرتهم ، في امريكا ، والذين يحتجون ضد هذا الهدف تجري ملاحقتهم وسحقهم انطلاقا من رد الفعل الجنوني ذاته . ان الربح الذي يتحدث عنه اليوم الحكام واتباعهم هو القضاء على نظام مجتمع اشتراكي يهدد اكبر الاصنام... صنم الرأسمال . وهكذا فان القاسم المشترك الوحيد بين جميع القوى المشعلة لنار الحرب في الولايات المتحدة هو الغوص المستمر في كابوس . وعلى وتيرة واحدة لا تتغير ، كما هي الاصوات في الكوابيس ، يجري بشكل آلي تنفيذ الاعمال القسرية مصحوبة بالدعوات نفسها التي لا معنى لها .

٩ ـ قصف تأديبي محدود

وايضا في ٢١ تشرين الثاني من هذا العام لم تجر حتى محـاولة وصف عمليات الاجرام المعتادة منذ سنوات وصفا جديدا مغايرا • ولا يحتاج الامبرياليون الامريكيـون ان يشعروا البتة بما يعيقهم عن الاستمرار في الاستخدام البديهي للمفاهيم الفاشستية، اذ ان الصحافة البورجوازية تقبلت ، الى حد بعيد ، طوال هذه السنوات ، مصطلحات القوات المسلحة الامريكية دون اعتراض ، ووافقتهم عليها الحكومة البريطانية المحافظة • ما حدث في ٢١ تشرين الثاني لم يكن امرا جديدا ، وتبين ايضا ان الاخبار عنه راحت تقل بعـد بضعة ايام فقط ، وان الحدث الملتهب بسرعة ووحشية قد طواه النسيان مرة ثانية • وذلك حتى يندلع من جديد دون ان يهز سكان العالم الغربي •

ان صورة الكذب الهائلة للدعاية الامريكية لم تنكشف كليا بعد • ان الاخبار التي تنشرها وكالات الانباء من ان الولايات المتحدة سوف تسحب اقساما من اسطولها الجوي من جنوب شرقي آسيا ، لم تفقد بعد لدى جماهير المستقبلين جدارتها بالتصديق • كما يتوهم ما يسمى بالعالم الحر ان القوات المسلحة للولايات المتحدة سوف تنسحب فعـلا بالتدريج من البلدان التي دمرتها • ولا يثير شكوكه ما يجري في نفس الوقت من نقـل لدفعات جديدة من الجنود الى مناطق القتال ومن دخـول حـاملات طائرات الى خليج تونغينغ • لهذا ليست الحكومة في واشنطن وحدها التي تتحمل مسؤولية عمليات الاعتداء على جمهورية فيتنام الديموقراطية ، وانما غالبية وسائل الاعلام الغربيـة ومستهلكوها الذين لم يفهموا بعد ان ينظموا انفسهم في حركات مقاومة قومية وعالمية •

١٠ ـ بدايات المقاومة

تلك المجموعات في السويد التي لم يصبح اجرام الولايات المتحدة عادة لديها، والتي تساند حركة الفيتكونغ بالدعاية لها والتظاهرات السياسية والمسيرات واعمال مبـاشرة منفردة ضد ممثلي جهاز السلطة الامريكي ، تراها الحكومة السويدية كعناصر مزعجة• ان هذه المجموعات اصبحت تعلم ان الكلمات والمناشير والاجتماعات لم تعد تكفي وحدها لفضح المعتدين الامريكيين ، وهي تعلم انها معزولة ومحاصـرة ، لذلك فقد لجأت الى اجراءات اثارت على الفور عاصفة رسمية من السخط • ان ضـرب السفيـر الامريكي بالبيض وفضحه كأمريكي ـ افريقي يضع نفسه في خدمة اولئك الذين يضطهدون شعبه، وتحطيم نوافذ المركز التجاري الامريكي الخ••• لم يثر في الرأي العام رد الفعل بأن مثل هذه الاعمال مبررة للتعبير عن احتقار القوى التي تمثل تهديدا لكل العالم ، بل ان المحاكم قد حكمت على الفاعلين بعقوبات سجن وبغرامات مالية • في بلادنا التي تدعي الحضارة نثابر على تحفظنا النبيل امام لانسانية واثقة من نفسها ، لانهـا تعلم انها تستطيـع الاستمرار في اعمالها الشائنة دون جزاء ، لانها تعلم ان اولئك الذين يرفعون ايديهم فحسب ضد احد ممثليها يلاحقون مباشرة من قبل القضاء الذي ما زال في كل مكان ، الى حـد بعيد ، قضاء طبقيا • ان الاحتجاجات المكتوبة ، كما نشرت بعد الواحد والعشرين مـن

تشرين الثاني في البلدان السكندنافية والبلدان الاوروبية الاخرى ، لا تمس قادة الحرب في واشنطن ، وكذلك هي حال الاحتجاجات التي علت في بلادهم نفسها • وكذلك المذكرات الروسية والصينية التي شجبت الغارات الجوية لا تسهم بأي شكل في تغيير الموقف في الهند الصينية • ما زال بمقدور عدوان الفاشية ـ الامبريالية الامريكية ان يأخذ حريته بالقيام « بعمليات تأديبية » و « اجراءات لحماية حياة افراده » الى غير ذلك من الادعاءات، ضد بلدان جنوب شرقي آسيا • وما زالت الشعوب المصابة ، شعوب فيتنام ولاووس وكامبوديا ، هي وحدها دون غيرها التي تتحمل نتائج رغبة الافناء لدى الامريكيين•

١١ ـ اسئلة اخيرة

ان الاسئلة المطروحة هنا والان على كل قارىء للصحف وكل مشاهد للتلفزيون يدعي انه يفكر تفكيرا مستقلا ، هي : ألم نصل اخيرا الى النقطة التي يجب عندها التغلب على نتائج تشويه الحقيقة وعبودية كذب الدعاية الامريكية ؟ ألم يحن الوقت لحشد كافة الطاقات من اجل انشاء جبهة مشتركة تضع ، بقوة شاملة ، وليس بأعمال صغيرة منفردة كما في السابق ، مطالب تهديدية لايقاف عملية القتل الجماعي ؟ أليس ضروريا ، اخيرا، انهاء الموقف السلبي المكتفي بمجرد أخذ العلم من المذبحة التي تتكرر منذ سنوات والتخلي عن الانانية ، والالتقاء في اعمال عنف تصيب العملاق الامبريالي ؟ ألا يستحق الشعب الفيتنامي المعذب حتى العظام منذ عشرات السنين ، ان تؤجل القوى الاشتراكية في الغرب وفي البلدان الاشتراكية نفسها خلافاتها الخاصة وأن تحيي ذلك الاساس الذي يمكن من ايقاف استمرار الجهاز العسكري الامريكي في عدوانه ؟ أليس علينا ، الان، ان نقاوم اللعبة المزدوجة التي تقوم بها حكوماتنا الناتجة عن التطلع الى عطف الامبراطورية الامريكية ؟

وعندما ندرك ان الاحتجاجات والمذكرات الديبلوماسية ومظاهرات عشرات الآلاف لا تنفع في شيء ، كيف نصوغ اذن مطلبنا التهديدي ، الى أي نوع من استخدام العنف (مباشر وغير مباشر ، شاملا الاضراب العام والمقاطعة) ، اللغة الوحيدة التي تفهمها الولايات المتحدة ، نحن مستعدون اذن ؟

بيتر فايس

(نقلها عن الالمانية ابراهيم وطفي)

دفتر افكار

اللوحة اللهب واللوحة الرماد

حول معرض حليم جرداق ورفيق شرف :

شهدنا في مطلع هذا العام ، معرضين يمكن اعتبارهما نقيضين ، كما انهما شهادة على اتجاهين اساسيين في الحركة الفنية ، حاليا . الاول يدخل في مغامرة الابداع ، فاتحا على اللوحة دروبا وملامح ضوئية تمجد الحياة في عنفها وقسوتها وشاعريتها عبر نهر لوني ملتهب هو اللوحة التي يسميها حليم جرداق « اللوحة اللهب » . والثاني يرتد الى الماضي، يستعيد رموزه والوانه ويقلده بالشكل . وهو يدخل الينا من الماضي بصورة « عنتر أبو الفوارس » في لوحات تكاد أن تكون منسوخة حرفيا عن روائع أبو صبحي التيناوي ، والفنانين الشعبيين الدمشقيين .

نحن هنا أمام فنانين : واحد يحاول أن يرضي المجتمع ، الانسي والصالونات ، وآخر يرفض « اللوحة المدجنة » والجماليات السهلة .

يقول كاندنسكي ان هنالك ثلاثةعناصر أساسية تكون اللوحة أو العمل الفني بشكل عام : العنصر الشخصي الذي يتفرد فيه الفنان في تعبيره عن ذاته الخاصة وعبرها ، والعنصر الثاني هو عنصر البيئة والعصر ، اذ ان الفنان هو ابن المعطيات الموضوعية للبيئة والزمن الذي يعيش فيه (١) والعنصر الثالث هو العنصر الفني الخاص ، العنصر الابدي الذي نراه لدى فناني الشعوب جميعا وفي الازمنة كلها ، ولا يخضع لاي قانون زمني أو مكاني .

---

(١) لايعني هذا أن الفنان الحقيقي هو الذي يعكس العصر والبيئة كما هما ، بل يعني انه هو الذي يبدع لهذا العصر لغته وصفاته الجديدة ، التي غالبا ما تكون مرفوضةمن القطاع الاجتماعي العريض في العصر نفسه .

في معرض رفيق شرف الاخير لانرى ذات الفنان في عمله ، لانه خارجي شكلي ، ولا نرى عصره وبيئته لانه يستعير لغة قديمة منقولة · وان اردنا البحث عن العنصر الفني الخالص الذي يكشف عن عمق ابعاد الابداع في اللوحة لرأينا أن الفنان لا يضيف شيئا الى الاعمال الفنية الشعبية التي نعرفها ، والتي يمارسها أصحابها بفرح وصدق كما يمارس الحرفي حرفته، بدون ادعاء للفن ·

في السنين الاخيرة ، أصبحت ازمة وموضة الفنانين عندنا : الرجوع والانتماء « الى التراث » ، ويكاد أن يكون شغلهم الشاغل هو الى اي حد يستطيع الفنان أن يقنعنا (نظريا) ويدافع عن نفسه بأنه فنان « شرقي » ، وهذا التعلق الحاد (اللفظي) بالتراث يشد الفنان الى لغة الماضي بدون أن يكون دافعا له للبدء في مغامرة التاريخ في الآن ، وانطلاقا من الحرية ·(٢)

الفن الشرقي هو رؤية داخلية شرقية تحددت في الماضي بطقوس حياتية وفكرية نبعت منها هذه الفنون ، أما الى أي حد نعيش حياتنا الآن في طقوس الماضي ، فهنا نجد أننا كنا خلال قرون طويلة نعيش في هوة حتى عن ماضينا، وها نحن الان نقف على الطرف الاخر ـ الاول من تلك الهوة ، نبدأ ولكن من أين ؟

يعود الفنان الى التراث من خلال مفاهيم أوروبا للتراث الشرقي وليس من خلال ذاته الخلاقة وتجربتها · هنا تصير هذه النزعة الشرقية تقليدا وعودة رجعية الى الماضي · تراثنا يجب أن ينبع من المعطيات المادية للصراع في عصرنا الذي نحيا فيه ، هذا الصراع الذي يتقاطع مع الذات المبدعة الحاملة في أعماقها أبدا الاصالة التاريخية ·

رفيق شرف في « فنه الشعبي » لايضيف ولا يبدع ، بل يقلد وينسخ الموضوع والشكل والالوان بدون أي تجاوز (٣)· نرى عنتر ابا الفوارس يعود بشكله التقليدي راكبا فرسا ، حاملا سيفه، فاتلا شواربه ، كان الفنان يحاول اقناعنا بأنه في العودة الى عنتر (شكليا) يبعث « الفارس العادل

---

(٢) قد يكون هذا ترسبا للفكرة الدينية التي تنفي عن الفنان صفة الخلق ، فالله وحده الخالق ، المبدع ، وعلى هذا فان الفنان في مجتمعنا (وربما يكون هذا صحيحا بالنسبة الى المجتمعات المتخلفة كلها) يحمل عقدة محاولة تبرير الفعل بكون عمله مخلوقا على صورة قد صنعت قبلا ، خوف أن يدان ويرفض ·

(٣) لقد اعاد بيكاسو رسم بعض اللوحات الكلاسيكية ولكنه اعاد خلقها بلغته العصرية الجديدة ، بحيث يصعب تشبيهها بسهولة بالاصل ، وفي مرحلة اخرى رسم لوحات ذات طابع روماني من حيث تكوين الاجسام وامتلاؤها ، الا ان الموضوعات والاساليب كانت جديدة ، بحيث انه عاد اليها من خلال الذات وليس من خلال الشكل ـ الخارج ·

المنتصر الذي لا ينام على ضيم ٠٠٠ » (٤) ، وبدلا من أن يعالج الفنان هذا البعث في الابداع الفني الحقيقي نراه يعالج مسألة الخلق الفني باللجوء الى بطل تاريخي أخلاقي ضمن مفهومهما في الماضي ٠٠٠ « ان فننا يعاني مأزقه الجمالي وتشرده التعس وهو كانساننا بالضبط بحاجة الآن الى روحه الحقيقية وصورة للبطل والنصر » ٠ (٥)

ان لغة الفن هي حتما غير لغة البطولة ، الا اذا أردنا ، وهذا من باب العجز، التعويض عنفعل التغيير الثوري باللجوء الىالاكتفاء بصورة البطل المخدر ٠ يقول رفيق شرف أنه « يتعلم » من الفن الشعبي ، وانه يبحث انطلاقا منه عن ذاته الخاصة في لغة جديدة ، الا اني حاولت من خلال اللوحات التي عرضت في « الكارلتون ! »رؤية حقيقة هذا القول ، فوجدت أن قضية « التعلم » من خلال مقارنات دقيقة (وتكفي المقارنات العابرة) مع رسوم التيناوي والدمشقيين ، هي مجرد تبرير ، اذ أن الفنان الذي يفتش عن لغة له عبر فن مصنوع لا ينتج مجموعة كاملة من اللوحات المتشابهة (فيما بينها ، ومع الاصل) ليقدمها في معرض ٠ كنت أود أن يحمل هذا المعرض لغة التجريب والبحث، لكن ليس فيه سمات لهذه المغامرة، أو أنيكونالمعرض في المرحلة التي يتجاوز فيها الفنان التعلم ليجد شيئا خاصا به ، ثم كنت أود أن يعرض «الفن الشعبي» في مكان «للشعب» لا مكان للسواح والمترفين٠ ما أقوله ليس نهائيا ، اذ ربما تنفيه استمرارية الفنان في التجربة التي بدأها٠

حليمجرداق، عالمي، ورافضأصيل، يعملكثيرا بصمتوعمق، يفتش، يدرس ، يخربش ، يموسق الالوان والخطوط ، يحفر على النحاس ، يرسم على الورق بالحبر الصيني ، مرسمه متحف ترى فيه رسومه الاولى ، وجوها ومناظر طبيعية،فيها دراسات بالالوان لاجسام نساء رسمت داخل الاستوديو في بيروت وباريس ٠٠٠٠ تدخل في المراحل التي بدأ يفجر فيها زخمه الداخلي ، في رسوم زيتية ومائية ومحفورات تمتلىء بالكثير من الشعر والاجواء الروحانية ٠ هنا ابتدأ البحث في اللوحة اللوحة ، ابتدأت جاذبية اللون وأسراره تسيطر على الفنان ليضعها في المرتبة الاولى من الاهمية ٠ اللوحة لون ٠ اللون عالم كامل له خواصه الحياتية ٠ صار يبحث كيف تحيا الالوان معا ، كيف تتعانق وتتصارع وتتشكل وتحيا بذاتها ٠٠ الاحمر يحمل تفجره الدامي الجارح ، والرمادي ساكن أبدي ، والاخضرار امتداد عشبي بلا حقل ، أو هو الحقل كله وبراري الراحة كلها ٠ الازرق سكون حزين غامض يناجي الروح ، مليء بالاسرار ، أليف ، قريب وبعيد ، وحين تجتمع كل الالوان تفيض في الحياة ، تصبح اللوحة عصب الحياة الداخلي ، ويصبح اللون الجوهر وليس الصبغة الخارجية ٠

في معرضه الاخير فيدار الادب والفن ، رأينا آخر تفجرات حليم جرداق

---

(٤) (٥) رفيق شرف « المنشور الفني »

اللونية · اللوحات المعلقة على الجدران ليست للزينة ، ليست لكي ترضي او تمتع العين · انها لوحات للصفع ، للصراخ، للحركة، قد تشعرك «بصداع» في الرأس ، وتتساءل ما هذه الدوامات اللونية ، وقد تتسحر وتظل مشدودا ولا تعرف لماذا · فهذه اللوحة مصنوعة بالعقل والغريزة ، والالوان القوية المباشرة التي تصعد من اللوحات لا تنتظر منك أن تراها ، بل تنطلق لتصل رأسا الى عصب العين · هذا المزيج من الاحمر والاخضر والاصفر والازرق عالم مغلق ، معذب ، قلق بقدر ما يظهر انه عالم مفتوح فرح · ان اللوحة تبهرك ، تفاجئك ، ولكنك لا تستطيع الدخول اليها · انها غامضة ولا تعطيك نفسها بقدر ما تظهر مباشرة للنظرة الاولى ·

اللون هنا ليس وسيلة وهو لا يأخذ شكلا ، اي انه لا يستعمل لتغطية مساحة ، انه خط يأخذ شكله عبر الحركة وليس في المساحة ، اي أن الحركة هي الوعاء الذي تسري فيه الخطوط الملونة· ان الحساسية الشاعرية التي مازلنا نراها في أعماله الاخيرة المرسومة بالابيض والاسود تستحيل في اللوحات الى عنف لوني مجرد وصاعق ، اذ أن الجمال يأخذ هنا شكله في التفجر العنيف ، في الجحيم الذيتعلو فيه درجة التوتر والاشعة الروحية·

هذا النهر الضوئي من الالوان ليس للفرح ، انه لتأكيد السخرية المرة اللاذعة · نرى وراء ألوان اللوحات الاخيرة وجوها وأقنعة ، أجسادا ممزقة تقترب من رؤيا بولوك وكارل آبل ، وهذا التمثيل المأساوي يتضح اكثر من خلال الرسوم القليلة المرسومة بالخط الاسود والتي تمثل بوضوح اقنعة وشخصيات خرافية وأجسادا تحمل رؤوسا وأعضاء جنسية تخرق العالم ·

ان اللوحة وسيلة الفنان للاتصال بذاته وعصره والآخرين ، كما انها وسيلة التعبير عن هذه الذات وعن هذا العصر وعن الاخرين ، ويبدو احيانا عند حليم جرداق أن اللوحة أهم من الحياة ، لانه يعتبر لوحته عصارة وجوهرا · فاللوحة لديه طريقة للوجود ، للكينونة · يكتب حليم جرداق في مقدمته لمعرضه : « انا ألون ، اذن انا اكون » ·

ان مواقف حليم جرداق في الفن هي مواقف فعل ، انه ضد « الفن الداجن » (٦) وهو يرتبط بالتراث لا من خلال الشكل بل انطلاقا من الحرية، ومن الذات الخلاقة التي ابدعت القديم وتبدع الحاضر والمستقبل ·

منى السعودي

---

(٦) « مواقف » ، العدد الاول ·

الفن في زمن الثورة الفلسطينية

I

اثنان في المجتمع ، لا تهم أقوالهما بقدر أعمالهما : السياسي، والفنان· ان يجلس رسام عربي اليوم يتحدث عن الفن بدل ان يرسم ، هو كالسياسي العربي الذي يصعد منبرا ويحدثنا عن تاريخنا المقبل ، بينما نحن متمددون في فراشنا · الحالتان متساويتا الخطورة ·

من الاسباب التي ساعدت على تخلف الطاقات الطليعية العربية ، هي الهوة التي اوجدها السياسيون العرب بين القول والفعل · وكرسام أرى واجبي في أن أرسم لا أن أتحدث عن الفن · واريد كذلك أن أتحاشى الوقوع في الخطيئة نفسها التي وقع فيها السياسي العربي ، لكن طبيعة المرحلة النضالية تلزم الرسام في هذا الزمن أن يكون ناقدا وفنانا وسياسيا وانسانا وعاشقا ومحاربا في آن واحد · ان مهنة الفنان الاولى كانت دوما مهنة واحدة · لم تكن مهنته الرسم ولا النظم ولا الخلق · كانت مهنته دوما وقبل كل شيء : الاخلاص ، قمة الاخلاص· مادته الخام : الحياة · هنا أسمح لنفسي بالتحدث عن الفن في هذه المرحلة آخذا بمسؤوليتي كفنان ، واعيا الحقيقة الدامية ، مجبرا نفسي على مجابهة وقائعها ، سائلا أن تعذروني في تداول الكلمات معكم بدل الالوان ·

II

عندما أتحدث عن الفن الفلسطيني في مرحلة الثورة ، اقول ان هذا الفن لم يره احد ، لانه لم يولد بعد · الثورة الشاملة هي التي تخلق الفن الثوري وليس العكس ، كما انه لا يمكن أن تكون هنالك ثورة سياسية بدون ثورة اجتماعية ، كذلك لا يمكن أن تكون ثورة اجتماعية بدون ثورة اخلاقية ، وأيضا ، لا يمكن أن تكون ثورة اخلاقية بدون ثورة فنية · شهداء الثورات وتجارها عرفوا في أكثر من زمان وأكثر من مكان · الثورة الفلسطينية ماتزال برعما في طور التكوين · معظم ما تراه من فن فلسطيني هو عبارة عن فن تقليدي متطفل على الثورة وهو ينتمي الى العالم القديم لانه يحمل رؤى تقليدية · انه ظواهر فنية وليس الفعالية الفنية الثورية المغيرة في الفن والمجتمع · معظم ما رأيناه حتى الان من أعمال فنية فلسطينية هو فن « عودة » الى فلسطين · أن ندعوه فنا ثوريا هو

تناقض . لان العودة حركة تشدنا الى الوراء ، بينما الثورة تدفعنا الى الامام .

والاخطار التي تحيط بالفن الفلسطيني اليوم لها علاقة جدلية بالاخطار التي تحيط بالثورة الفلسطينية . أن تباع اللوحة التي تدعي انها تنتمي الى الثورة الفلسطينية بمئات الدنانير هي خيانة لقضية الثورة والشعب وهي تكوين ثروة على دماء الشهداء الحقيقيين الذين يموتون من أجل صنع الثورة . هذا النوع من الانتاج الفني مكرس لامتياز طبقة واحدة ومعينة من المجتمع العربي ومحرم على غيرها، وهو مجرد «أكسيسوار» لصالونات البرجوازية، والواجب الاول الذي على الفنان الثوري الفلسطيني أن يقوم به هو نسف هذه المقاييس للوحة والعمل الفني .

III

الحياة هي نبض الوجود والمحور الذي يدور حوله التكوين . كلنا هنا لاننا اخترنا الحياة ، ونحن نعيش ، نعمل ونكافح في أمل حياة أفضل . حياة شعوب ثلاثة أرباع العالم اليوم مهددة بالفناء من قبل حكومات الربع الباقي، شعور بعض البلدان المهضومة الحقوق تقف اليوم لترفض الموت . من أجل تحقيق حياة أفضل في العالم الثالث ووضع حد لاستبداد الانسان ضد اخيه الانسان لا بد من الثورة . الكفاح المسلح الشاق الضاري القاسي الذي فرض علينا ليس هو الثورة التي نصبو اليها ، وانما هو مسلك حياة نحو الثورة . الثورة تبدأ بعد انتصار هذا الكفاح . لم يكن هدف أي ثورة حقيقية تغيير « شكل » المجتمع وانما كان تغيير « مضمون » الفرد في ذلك المجتمع . وتغيير « مضمون » الفرد ينطوي على التغيير الجذري للمفاهيم الموروثة والقيم السابقة التي كبلت الانسان بالقيود وشاركة في اذلال انسانيته .

الحياة التي تحيط بالفنان في العالم الثالث حياة تدعوه كانسان يختلف في حرفته عن غيره بعامل واحد وهو أن مادته الخام في حرفته هي الحياة ، تعلو قيمة أعمال الفنان في سماء الابداع والخلود بقدر ما يغوص هو في بحر الحياة .

(كنت ذات يوم في متحف البورغيزي بروما اقف مذهولا بروعة اللحم البض في تمثال مرمري لكانوفا . لم أع كم مضى من الزمن وأنا هناك فاغر الفم وعيناي مسمرتان بروعة تلك المقطوعة من الجمال . فجأة أحسست بوجود فتاة خلفي تحاول ان ترى المقطوعة من زاويتي ، سمعت احتكاك ساقيها وهي تتحرك داخل ردائها الضيق وشممت رائحة عطرها النسائي ولم التفت في الوهلة الاولى لاراها . الاختيار الذي سقط علي في تلك اللحظة هو : أما أن أرشف رحيق تلك الاية الخالدة من الابداع الفني أو أن أكتشف تلك الفتاة العادية حولي . في تلك اللحظة عاد التمثال كومة من الحجر ..

وفي ذلك اليوم من أيام دراستي ، فهمت ما قاله أحد كبار فناني عصرنا ، عندما قال : اذا شاهدت عثا يلتهم الموناليزا ليحيا فلن أمنعه ...)

الحياة التي تحيط بالفنان في العالم الثالث حياة تدعوه كانسان للاشتراك في تحقيق الثورة . أعماله تشارك في تغيير مضمون الفرد . الفن الثوري ليس نتيجة عقائد ثورية وانما نتيجة حياة ثورية وأعمال ثورية . الاعمال الثورية ليست تغيير مفاهيم المضمون دون الشكل أو الشكل دون المضمون في العمل الفني بل تغيير الاثنين معا نحو الجديد النابع من المجتمع المتغير ، ولا تقتصر على ذلك فحسب بل تغير المكانة الموروثة للفن في المجتمع.

العالم الفني في الغرب تطور في خط البرجوازية والرأسمالية . (كتابات جون بورغر ، ارنست فيشر وهربرت ماركوز من أهم ما صدر في هذا الموضوع) وفي المعسكر الاشتراكي دهمت الستالينية طبيعة الفن الحرة . أصبحت الاعمال الفنية الكبرى مجرد استثمارات مالية بالنسبة للاغنياء وتجار اللوحات ، والفن بات أشكالا بهلوانية تكبر حجمها على ساحة اللوحة بقدر ما يصغر فيها المضمون الفني . تجرد الفن من قيمه الانسانية عندما صار الفنان آلة مقيدة في عجلات النظام الرأسمالي وعندما سقط في روسيا تحت نعال الستالينية .

IV

الفنان والمجتمع في العالم الثالث وخاصة في العالم العربي لم يتلوث بعد بلا انسانية الفن الغربي المعاصر لان تاريخ فن الاستوديو لدينا ، لا يتعدى المائة عام . قضية الشكل والمضمون في الفن التي كانت حلقة صراع في الغرب طيلة قرون ما تزال في أعمال الفنانين العرب مجرد اهتزازات وصدى لتيارات الغرب . لا يوجد لدينا مفهوم « الكاليري » ولا تاجر اللوحات أو جامعها ولا يوجد بيننا الناقد المتفلسف الذي يتحدث عن قضية المضمون والشكل في فن الرسم وكانه يتحدث عن الموسيقى . هنا تقع مسؤولية الفنان الكبرى في العالم الثالث. عطاؤه الجديد المنفصل عن المفهوم البرجوازي للفن لن ينحصر فيما يعطيه لامته من مواساة وتشجيع وانما بقدرته على خلق فن جديد للعالم . أما لامته فوجوده ضروري وان لم يظن ملحا . الفنان الثوري في عالمه اللا انساني بطل مثل زميله الذي يحمل الرشاش على التلال ضد وحشية أعداء الشعوب .

لاسباب تاريخية سياسية تقنية واقتصادية ، ان أساليب الاضطهاد والطغيان ، ووسائل الظلم والاستغلال تغيرت مثلما تغير السلاح الذي يستعمل ضد الضحية . في وجه هذا التغيير تغير أيضا مفهوم البطل الذي يقاوم العدوان في عصرنا . ما عاد البطل : العنتر الذي يلتحق بجيش أمته

ليستقبل الموت بين صفوف المحاربين. الموت يتجنبه كل من ينتمي الى منظمة حرب عصابات . البطل اليوم هو الذي يقاوم دون أن يسقط في هوة الموت . هو المحارب الذي يحافظ على الحياة رغم الشقاء مثلما حافظ عليها أيوب . قادة العمل الثوري من فيتنام الى غواتيمالا، من أنغولا حتى فلسطين يرددون للجماهير بصوت واحد ، « هدفنا الاول الصمود » . اذن نحن اليوم نعيش في بداية طريق طويل يمتد عصرا كاملا أمامنا : ما كانت هذه التجربة غير فصل في حياة يونس . هذه حقيقة قاسية علينا أن نقر بها اذا عزمنا على أن نحيا ونصنع التاريخ. زمن «فتح» هو زمن أيوب وزمن يونس وليس زمن عنتر .

V

كانت الاعمال الفنية الفلسطينية التي رأيناها حتى الان صورة ــ مرآة للواقع الفلسطيني بينما الفن هو تجاوز الواقع واعادة خلقه . وبهذا المفهوم فان العمل الفني الثوري الفلسطيني الحقيقي الوحيد الذي خرج الينا خلال هذه المرحلة القصيرة للثورة هو الرسوم التي حققها اطفال فلسطين في المخيمات (راجع كتاب شهادة الاطفال في زمن الحرب ، لمنى سعودي ــ بيروت ١٩٧٠ منشورات مواقف) لان هذه الاعمال لا تدخل ضمن فن المجتمع ولكنها ضرورة تعبيرية حياتية عن واقع يعيشه فعلا هذا الطفل ويخلقه باشكال فنية جديدة . ان هذا الطفل الفلسطيني الذي لا تستطيع يداه الصغيرتان حمل السلاح بعد ، قد حمل الفرشاة الآن ، ولكنه سيكون في المستقبل هو وحده الفنان المقاتل ، ويومها سيكون بوسعنا لا أن نتحدث بل أن نرى ونعيش فنا فلسطينيا ثوريا في حياة ثورية عربية فلسطينية .

يقول ارنست فيشر :

« ان الفن برمته يتكيف بعامل الزمن ويمثل الانسانية في تعبيرها عن افكار ومطامح وحاجات وآمال حالة تاريخية معينة .... ويخلق الفن لحظة من لحظات الانسانية ، واعدا بتطور دائم » .

آمل أن تعتبر أعمالي الفنية ذات يوم « لحظة من لحظات الانسانية » في تاريخ امتنا و « واعدة بتطور دائم » ، وان تكون حياتي كانسان في اتجاهها اليوم مثالا للصمود الذي نحن في أشد الحاجة اليه لتحقيق الثورة .

كمال بلاطه

شهادة الاطفال في زمن الحرب :
شهادة علينا وادانة لنا

سكتنا عنه لحد اتهام انفسنا ، وكان الاتهام كبيرا لاننا لم نكن امام مجرد كتاب او وثيقة او تقرير ٠٠٠ بل امام غدنا الذي له حق محاكمتنا وادانتنا ، امام ابنائنا في الخيام المواجهة للعدو ٠٠

عبر عيونهم الصغيرة المتألقة بقسوة غريبة عن عيون الاطفال بحثت «منى مسعودي» عن فلسطينها وفلسطينهم فوجدتها مدماة ملقاة على جانب طريق فرعي وفيها اكثر من جرح نازف ٠

سمعتها غير مرة تتحدث ـ وكأنها تحلم ـ عن كتاب يحمل مجموعة من رسوماطفالنا في مخيمات اللاجئين ، ثم اختفت مني ، وقلت : انها مهنة المخاطرة التي تعيشها كبيرة وتصير بها مكابرة عزيزة لانها استطاعت ان تحب لحد الكره والنقمة ٠٠

تحدثت عنهم بسرعة ٠٠٠ كانت اصابعها تلتف على سيجارتها وهي تتحدثفيختنق الدخان في داخلها كما تختنق هي بكلماتها :

الطفل يتعلم الزحف بدلا من المشي ٠ كل القيم تتغير ٠٠ تعلم من ابيه الزحف وهو يراه كل يوم يسعى زاحفا لتفجير عبوة او نصب كمين او انقاذ جريح ٠٠

وعبر الركب المدماة من الزحف والهلع وانتظار الثأر كانت مني تجمع ما يرسمه هؤلاء الصغار لتحمله الينا غدا ننتظر على يديه محاكمتنا وادانتنا ٠٠ لكننا صمتنا عنه وعنهم لاننا لم نستطع ان ندرك قضيتنا من خلال تلك الوجوه الصغيرة الصادقة ، وربما لانها صادقة ٠

شتموها في البدء « في اليوم الاول استقبلوني بالشتائم وعبارات الاستهزاء : نحن لسنا للفرجة ، روحوا تفرجوا على شيء اخر » ٠٠٠ شتموها لانهم رأونا فيها متفرجين وحسبوها واحدة منا جاءت تحمل اليهم كلمات وكلمات من تلك التي تعودنا ان نغلفها بكثير من الحنان الزائف ٠٠ وبعض علب الشكولاته ٠

ولم تكن منا ، لانها سرعان ما كانت جزءا من عالمهم ، جزءا من الادانة والتهمة والمحاكمة فاحبوها ٠

في كل مكان من العالم تصدر كتب عن رسوم الاطفال وثمة مجلات تعنى بفنونهم ودارسون ونقدة ومعلقون ، وما كان لاي منها ان توفر له ما توفر لكتاب منى السعودي « شهادة الاطفال في زمن الحرب » من حيث التعبير عن مكامن خوف لم يدركوا بعد ابعاده وعن تطلع الى فجر سيجيء احمر قانيا مع ازيز الطائرات وعن رؤية مأساوية كبيرة، وما

كان لاي من اولئك الصغار ما كان لهذه البراعم التي كتب لها ان تشب وتنمو بين النار والحديد والبطون المبقورة والايدي المبتورة وان ترضع احيانا حليب ام قتيل ·

ليس كتابا فحسب ·· ولا مجرد وثيقة انه اكبر من تقرير مراقب في هيئة الامم مزنر بمائة قانون وتعريف تحيل بينه وبين ان يفهم هؤلاء الاطفال في الوانهم واقلامهم ورؤاهم·

« ص ٢٦ دبابة اسرائيلية تمر فوق بنت الجيران » ·

دعامتان يقوم عليهما فن الاطفال هما الهرب من الواقع الى عالم خيالي من ناحية والتعبير عن هذا الواقع في ذات اللحظة من ناحية اخرى ·· الدبابة تسير ضمن لون احمر والفتاة مطروحة على الارض المصبوغة باللون الاخضر ·· صراع بين اللونين ، وكاني باللون الاخضر وقد وقف رغم جثة الفتاة الملقاة على الارض حائلا بين الدبابة والفتاة يريد ان يجترح حقيقة القتل ·

«ص ٣٠ ·· النزوح» تتأكد الصورة بالارتفاع السريع بالحركة العامة للطائرات وضربات القلم السريعة ثم بالهبوط المتاتي عن جمود الدبابة ·· لا اهمية لدرجات الالوان لانها لا تؤكد الصراع ·· يجب ان تتجاوز الالوان تاكيد ذاتيتها التزيينية الى حيث تصبح تعبيرا ذا طابع تفجيري ·

«ص ٥٠ مدفع يضرب طائرة وارنبة تلد»

عندما يرسم الطفل لذاته يبقيني خارجها فليس ثمة ما يوصلني الى الارنب او المدفع ولذلك لا يريدني ان اقومه من خلال ما اراد ان يحقق او ما حقق بالفعل ، بل بما استطاع ان يفجر عبر لاوعيه · فالترابط في اجزاء الصورة يتاتى عن استدعاءات ذهنية موحية بما يكمن وراءها لا على اساس تطور موضوعي للفكرة ·· انه يسعى لان يثبت العلاقة بين الانسان والاشياء لا بين الاشياء فيما بينها كما هي الحال في الصور الكلاسيكية ·· وكذلك النسب والحجوم لا اهمية لهما لانهما يقتربان منه وينفصلان عنه لا بالمكان ولكن بالحس بهما ·· يبعد المدفع ويقرب الارنبة وهكذا يخلق الواقع ثم يحتج عليه وعبر هذين الموقفين يوجد بعده الابداعي بالتجاوز ·

«ص ٥٧ شقيق عادل الكبير نائما في الدار»

الحقيقة في فن هؤلاء الصغار حقيقة شفافة لانهم عبر هذه الشفافية يؤكدون اختراقهم للاشياء فالدار على الورقة اربعة خطوط وهي بهذا المعنى رمز للدار ليس لها ان تحمل كثافة جدرانها ولا يحق لها ان تحجب رؤية شقيق عادل وهو نائم في الدار وهو ما يريده من الدار والنوم ليجعل منهما سورا حاميا له من الواقع والقلق القائم في اليقظة ·· وبذلك يقوم المكان مزيجا من الواقع والرؤية الداخلية له ·

«ص ٦٨ كانت الانفجارات احيانا سوداء واحيانا بيضاء واحترق الورد»

على الرغم من كثافة الالوان في الصورة فهو لا يرى فيها غير لونين رئيسيين ، الاسود والابيض المرتبطين بعملية الانفجارات والاحتراق وما بينهما من الوان ناتج عن احساسه بالمساحة وما يسقط فيها بلون بارد فهو ابيض وما يسقط فيها بلون

حار فهو اسود او قد يقوم البياض والسواد على اساس من مدى شفافية اللون ·· وتظل الوردة نتيجة قائمة في الذهن بكل هذه الانفجارات ·

«ص ١١٠ امرأة تحمل جرة ماء ·· رجل اعمى ورجل يسقي الافاعي»

رغم الخيام والطائرات وازيز المدافع يظل العالم في مخيلة «يعقوب احمد ١٢ سنة» رموزا اجتماعية وجنسية ـ المرأة والماء والافعى والرجل الاعمى الذي تخلص منه بعماه ··

وبعد ··

سيظل السكوت اتهاما ما لم نجد انفسنا في صور هؤلاء الاطفال حديثا طويلا لهم وعنهم ·

وشكرا لمنى في شهادتها ··· شكرا لها يوم ان تحاكم ويوم ان ندان بصور هؤلاء اللاجئين الصغار ·

بلند الحيدري

« شهادة الاطفال في زمن الحرب » اعداد منى السعودي منشورات « مواقف » بالاشتراك مع الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين.

هل يمكن أن تصبح القصيدة رغيف العصر

(حوار بثلاثة أصوات)

عادت حركة الشعر العربي الحديث في الملتقى الذي اقيم في بيروت الى منصة القضاء · وبدا انها تخطت مرحلة الاستهجان · اما هل يعني تخطيها لتلك المرحلة انها بدأت تشارك في تطوير الواقع العربي المعاصر ؟ ام ان ذلك لا يعني الا افساح الطريق لها لتأخذ مكانها دون القيام بفعل «التعاطي» معها ؟ ويبدو ان ممدوح عدوان ومحمد عفيفي مطر يتأرجحان في اجوبتهما بين التفاؤل والتشاؤم الا انه قبل مطالبة تلك الحركة بفعل المشاركة في تطوير الواقع ، يتوجب معرفة واقعها ، مع الاهتمام الكبير بدراسة طبيعة الاجواء الاخرى المحيطة بها والداخلة الى قلبها ·

قال ممدوح عدوان : (على الثوري الا يتعب بسرعة ، لانه يحارب تاريخا)· لكن على الثوري ايضا الا يهدر جهوده في المناطق البوار · يبدو ان للبطء الذي تعاني منه حركة الشعر الحديث في فعل النمو ، اسبابه · وقد جاء هذا الامر واضحا على

خشبة الملتقى من حيث القصائد والحوار . فبعض الشعراء اجادوا كنقاد اكثر مما فعلوا كشعراء رواد . وجاءت القصيدة لتمثل الطرف القاصر . فالسوق الادبية التي تبدأ باتساع كبير من حيث النوع ، في منطقة الادب المترجم وتنتهي كالزقاق في منطقة الادب المحلي هي الصورة الحسية لما يعانيه الشعراء . ان قراءة دراسة عن الشعر تعطي فهما نظريا للشعر ولا تعطي قصيدة . القصيدة هي في الهواء الطلق، تخرج وتدخل الى الشاعر بحركة سرية ، متخفية كالارواح . تلزم لمن يتعرف الى مسالكها عينا نبي . روى عن المهاتما غاندي قوله : « ان الله كامن في الصخر ». والشعر يتبع الله الى جميع الامكنة . فهو الاسلوب الوحيد الذي يستوعب حركة الله ووجوده . لقد لعب فساد الرمز الشعري دوره الكبير في خراب القصيدة . ذلك ان (الرمز ينطوي على شيء من «الكذب» وشيء من «الصدق» وتبعا لذلك فان الرمز الذي ينطوي على حظ اكبر من «الصدق» وحظ اقل من «الكذب» يكون هو الرمز الذي يزيد خطه من «التطابق» . . لكن لعبة «الصدق» و«الكذب» في الرمز ، لعبة خطرة . وقد استهتر الشاعر الحديث بها كثيرا . قد تكون هذه المشكلة ناجمة عن تعب الشاعر وايمانه بلا جدوى ما يكتب حتى غدت عملية الشعر عملية واقعة على جلد الواقع .

يبدو ان نظارات الدولة التي تقنن الرؤية هدمت الشاعر الثوري . هذه السياسة لا ينتهي مفعولها عند الابواب وموائد الطعام . فحركة رحاها الحقيقية والعنيفة هي الحركة التي تبدأ في اعماق الشاعر . «فتلوك» الثمين وتبصقه غثا .

وهكذا تنطفىء الكثير من الاضاءات الداخلية التي تنير مسالك القصيدة . فالخارج في العالم العربي يقف ضد الشاعر في عملية قهر واماتة لا في عملية تحد واستفزاز وبذا ينقاد الشاعر تدريجيا ليصبح كائنا خاملا وبقعة سكونية مفجعة . نجد هذه الحركة التقهقرية واضحة عند الشعراء الذين كانت لهم بدايات شعرية جيدة ثم عادوا في حركة اجترارية الى الوراء . ودراسة حركة الشعر بمعزل عن نواجد السياسة . هي دراسة قاصرة خصوصا ان الدولة في العالم العربي تعتبر نفسها كل الواقع . واية عملية احتجاج تعتبرها مساسا بأمنها وغرورها السلطوي . وامام هذا المد الحكومي الذي يتراوح شكله بين الاختفاء والظهور ، يفقد الشاعر حسه السليم لمفهوم الحرية . فينحاز الى القطيع الخائف مفضلا حرية كسب القوت على الفعل الثوري. فالشاعر وهو يجامل ويحذف ويؤجل ويخفف ويخطب ويخاف ويصمت ، يقتل الشعر فيه . ويكرس نفسه القاتل الاول للقصيدة . والمحرقة التي تعبرها الشعوب عندما تتحرك من وضع العبودية باتجاه الحرية لم يمر بها الشعب العربي . لذا جاء اغلب شعر المقاومة هزيلا . طالما ان الذاكرة والاحداث الحاضرة هما بمثابة الارض التي ينطلق منها الشعر ظلت خارج اطار الحرية . ولذا يبقى النتاج الشعري ليس معبرا اكيدا نحو الحرية . ومن خلال اجوبة ممدوح عدوان ومحمد عفيفي مطر ، الشاعرين اللذين شاركا في الملتقى نجد ان معركة الشعر لا تزال معركة مرة بالرغم من «ايمان» ممدوح عدوان الثوري .

سنية صالح

الثورة والحداثة

سنية صالح : هل الشعر العربي الحديث يشارك فعليا في تغيير واقعنا ، ام ان تلك المشاركة ما تزال مجرد حلم وامنية ؟

ممدوح عدوان : يشارك الشعر حتما في عملية التغيير القائمة · لكن اثار مشاركته لا تبدو بسرعة وبشكل مباشر · ان تطور الشعر مرتبط بتطور العقل الاجتماعي وهما يتبادلان التأثير فيما بينهما · وطالما ان اثار مشاركة الشعر الحديث لم تتجل بعد بشكل واضح الا اننا نستطيع التأكد من قدرته على المشاركة من خلال مناقشة النماذج الرديئة · ان شعر ما قبل الحداثة اي الشعر الرديء المباشر الخطابي المكتوب في هذا العصر يعكس حالة التخلف القائمة· انه احدى نتائج العقل المتخلف وهو بالذات يساعد على ترسيخ التخلف · حين نقول مثلا ان النكسة قد فضحت عجزنا وتخلف وسائل معالجتنا للواقع ، فاننا نعني بهذا ضمن ما نعنيه تخلف العقلية المطمئنة المتفائلة بغباء وبحماسة جوفاء · من الذي صنع هذه العقلية ؟ هناك تراث من العنترية منعكس في شعر المرحلة السابقة كما هو منعكس في الخطابات السياسية ·

● هل حركة الشعر الحديث في رأيك هي حركة اصلاحية ام هي حركة ثورية ؟

ـ الهيبيون والفوضويون والمتمردون والقتلة والرافضون والثوريون والرمانسيون ومن لف لفهم يحتجون على الواقع · كل منهم يحتج بطريقته التي يحددها حجم وعيه لهذا الواقع ولمتطلبات التغيير · الثوريون هم وحدهم الذين يصنعون التغيير · اما البقية فهم نتائج للتخلف وللواقع المتردي يحتجون عليه لكن يحملون ندوبا منه في اعماقهم · الشعر الجيد مادة ثورية واذا كنا نرى ركاما من الشعر المحتج والعاجز عن التغيير في الوقت ذاته ولا نرى الا القليل من الشعر الحقيقي القادر على التغيير ، فان مرد ذلك يعود ببساطة الى واقع الحركة الفكرية العربية التقدمية وقدرتها حتى الان على الفعل · اعتقد ان نسبة الشعر الثوري في هذا الركام هي ذاتها نسبة الفعل الثوري في ركام العمل السياسي العربي ·

● يحلم ادونيس في قصيدة «ملوك الطوائف» «بالخراب الجميل» فهل تعتقد ان هذا «الخراب» هو البداية الصحيحة للثورة ؟

ـ لا يأتي الشاعر الثوري الا من خلال ثورة · ولا يستطيع الشاعر ان يصنع الثورة ، لكنه يستطيع ان يكون ثوريا · نحن نعيش مرحلة انتقال خطرة لم تتبلور امكاناتنا كحركة ثوريةبلورة واضحة (سياسيا، اجتماعيا، ثقافيا) ومن الاجحاف والتجني ان نطلب او ان نتوقع من الشاعر ان يحقق «الخراب الجميل» بكل ابعاده وبكل ما

يعنيه لولادة الثورة · الشاعر يستطيع ان يكون ثوريا في شعره او بالدقة طامحا نحو الثورة · لكن الثورة لا تتحقق به وحده · «الخراب الجميل» يحققه الشاعر في اللغة بالنسبة ذاتها التي تحققها حركة ثورية في المجتمع ·

● لماذا يأتي صوت الشاعر تابعا لصوت صانعي الثورة ؟

ـ ليس تابعا بل نابعا ، ليس هناك شعر بلا وعي · كل وعي يؤدي الى الاعتراف بالعجز عن الفعل المجدي بالعمل الفردي · الشاعر يعي ما يريد من خلال معايشته للواقع وثقافته · ولانه يعي ، لا بد من ان يعرف موقعه من حركة التغير · انه قادر على الكشف (وهنا فرديته) · لكنه في نتاجه الناجم عن هذا الكشف لا يستطيع الا ان ينتج من خلال المواكبة والمشاركة · انه رائد في كشفه وهو جزء من المسيرة في فعلـه ونتاجه ·

● هل يعني هذا ان الشاعر العربي الحديث ملتحم مع الواقع ولا يعاني العزلة ؟

ـ ان الشعر الثوري العربي احد ملامح الحركة الثورية العربية ، رغم ان الشعراء ليسوا منتمين بالضرورة الى المؤسسات الثورية · ان الشاعر الثوري تعبير عن قدرة الطليعة على الكشف ، انى وضعنفسه · انا ارى ان محمد الماغوط مثلا في شعره اشتراكي حتى لو وضع نفسه هو خارج الحركة الاشتراكية · هذا يعني انه احد المعبرين عن تطلعات الواقع بحساسية مخلصة تجعله احد ملامح الحركة الثورية في مرحلة الضيق بالواقع · ليس بالضروري ان يكون الماغوط منتميا لحركة سياسية ، لكنه حتى لو كان منتميا فان هـذا لن يغير من موقع شعره شيئا ·

● انت متفائل وانا نقيضك · الملتقى الشعري ذكرني بيأس الماغوط من جيله الشعري وممن سبقهم · فالشعر الحديث لا يزال يصورنا مملوئين بالقوة والظفر وهو بهذا يعطلنا ·

ـ السؤال شقان : الكلام على التفاؤل والتشاؤم ثم الكلام على الشعر المعطل والمخدر · الشق الاول يذكرني بمشهد من فيلم سينمائي · تخرج مظاهرة احتجاج على محاكمة ظالمة ، وكل من المتظاهرين يرفع شعارا يعبر عن احتجاجه · تنتهي المظاهرة دون ان تغير شيئا من سير المحاكمة · ويعود المتظاهرون الى بيوتهم ويبقى رجل كهل مع لافتة حتى بعد اغلاق المحكمة فيدور بينه وبين الشرطي هذا الحوار :

الشرطي ـ لماذا تبقى هنا ؟

الكهل ـ انا اتظاهر لاعبر عن رأيي ·

الشرطي ـ لكن المتظاهرين عادوا جميعا ·

الكهل ـ لكن العدل لم يتحقق ·

الشرطي ـ المحكمة مغلقة ·

الكهل ـ هذا لا يغير من رأيي شيئا ·

الشرطي ـ هل تعتقد انك وحدك ستغير العالم ؟
الكهل ـ اريد الا يغيرني العالم ٠

حتى لو بلغ التردي في وضعنا وقدرتنا كشعراء ، حالة هذا الكهل فنحن في اسوأ الاحوال مثله ٠ ليس الموضوع موضوع تفاؤل او تشاؤم ٠ بل موضوع الايمان بضرورة العمل وحتميته من خـلال الايمان بعدالته ٠ انا لست متفائلا ، لكنني لست متشائما بالمعنى القاموسي للكلمتين ٠ انا اقول انه حتى لو بلغ الامر بنا ان وصلنا الى حالة الهنود الحمر فاننا يجب ان نستمر لانني مؤمن بعدالة ما نطمح اليه ٠ لدينا عيوب ٠ ولدينا تخلف يؤدي الى العجز لكن يجب ان لا يغير العالم ايماننا بعدالة ما نفعل مهما بلغ عجزنا عن التحقيق ٠

الحداثة هي التوجه نحو العصر ٠ ونحن في كل ملامح حركة مجتمعنا المتوجه نحو العصر ما نزال نحمل بذور التخلف وندوبه ، ما زال بيننا من يعتقد انه تقدمي وهـو يفعل فعلا رجعيا معطلا ٠ سواء كان هذا الفعل سياسيا ام اقتصاديا ام اجتماعيـا فلماذا تدهشين حين يكون شعريا ؟ هذا لا يعني طبعا انه ليس لدينا مخلصون ومنسجمون مع قناعاتهم ٠ ليس هناك مجتمع تغيره او تصنعه قصيدة ٠ نستطيع ان نتوقع قصيدة مساعدة على التغيير من خـلال حركة تغيير فعلية قائمة ٠ القصيدة توجه الفكر (ليس الفكر وحده) نحو المنهج الصحيح ٠ لكن هـذا التوجه بالذات لا يكون عنيفا وفاعلا الفعل المطلوب الا حين تكون القصائد الضيئة والموجهة عديدة ومن اطراف مختلفة والا ضاع اثرهـا واغتيلت فاعليتها عند الناس من خلال ركام الزيف والدجل والانتهاز والقصور الذي يحاربها ٠

● الا ترى معي ان الشعر غير محمي بحراس حقيقيين واقوياء خصوصا ان الدولة تبسط وصايتها عليه ٠

ـ حركة الفكر النير الجاد كلهـا تواجـه هـذه الازمة ٠ هناك نقـاد ممتازون بقدر ما هنالك شعراء ممتازون وبقدر ما هنالك قراء ممتازون (من حيث النسبة) ٠ انا لا اتوقع حركة نقـد ناضجة وقوية وقادرة على فرض مناخها على الرأي العام الا مـن خـلال تحرك ثوري فعلي في المجتمع والثقافة والسياسة ٠ اذن الشعر والنقد والقراءة لا يعاني اي منها عزلة بل تعاني كلها عزلة واضطهادا ٠ الناقد الجيد الذي سيحمي القارىء الجيد ايضا من طغيان الشعر الرديء ، لا يستطيع ان يتحرك في الهواء٠ يجب ان يتحرك في مجلة جادة مثلا ويجب ان تزداد المجلات الجادة حتى تستطيع ان تفرض مناخا والمجـلات الجـادة لا يمكن ان تتكاثر بغير تكاثر القراء الجادين ، والقراء الجادون لا يمكن ان يتكاثروا الا مـن خـلال مدارس تعلمهم بجدية ومنتديات ثقافية تقدم لهم ثقافة جادة الخ ٠٠٠ مثلا لنفرض اننا حصلنا على عشرة شعراء ممتازين وعشرة نقاد مخلصين هؤلاء سيغطون مجلة واحدة او مجلتين اذا ارادوا التجمع ولكن السوق تحتوي على مئتي مجلة تافهة ومزورة للثقافة ٠ وحتى لو وزعوا نشاطاتهم على المجـلات المئتين ستكون نسبتهم مقالا جادا مقابل كل اربعين مقال تافه ، وقصيدة جيـدة مقابل ثلاثين قصيدة تافهـة علمـا ان للتفاهة ايضا موقفها الصارم لاسباب

مختلفة فهي قد لا تنشر لهم · هل تعلمين كيف يحارب الفكر التقدمي في اوروبا الغربية مثلا ؟ ان الرجعيين لا يناقشون الفكر التقدمي ولا يفندونه بل يحاصرونه بالتفاهة وبخلق قراء مدمنين على التسلية والسخف · فحين يريد مفكر تقدمي انينشر كتابا جادا ولنفرض انه وجد بشكل ما دار نشر فانه يصطدم بان القراء قد خربوا منذ زمن بعيد واصبحوا لا يطيقون هذه الجدية التي يتحدث بها · فمقابل كل كتاب جاد هناك ما يقرب من الف كتاب جنسي وقصة بوليسية ومجلة تسلية وازياء ·

ممدوح عدوان
(دمشق)

الشعر والاسئلة

سنية صالح : هل «الخراب الجميل» هو الخطوة المنقذة من رداءة الواقع نحو «الثورة» التي نحلم بها ؟

محمد عفيفي مطر : اسأل نفسي بداءة : ما هو الواقع ؟ واجد نفسي غارقا في شبكة هائلة ونسيج بالف طية · وكل الخيوط الممتدة في بنائنا العقلي والنفسي والاجتماعي بكل علاقاته ، التاريخ بكل موروثاته ، الحاضر بوصفه موطىء قدم للمستقبل ، المستقبل الطالع في براعم الحلم والشهوة وعذاب الخروج من الشرنقة ··· كل هذه الخيوط هي نسيج الواقع كما اراه واعيشه واحمله في قلبي جرحا لا يندمل – فماذا يفعل الشعر ؟ انني اعتبر نفسي واحدا من المهمومين باثارة النزعة الانسانية في العالم العربي الذي اصبح كالجثة المتعفنة المنتصرة تحت شمس الهزائم والكذب وغياب العقل وانعدام الرؤيا الشاملة للانسان والمستقبل – المنتظرة لمن يقيم شعائر الدفن كي تبدأ طقوس الولادة وموسيقى الحركة المنسجمة بما تحويه من الاف النغمات المتوافقة والمتعارضة والمتقاطعة والمتصادمة – الحوار الحوار ·· ثنائية الصوت والصوت الضد ··· واتصور اننا بحاجة الى فهم التواقت الحضاري حتى نفهم من اثارة الاسئلة علنا نصل الى السؤال الجوهري الذي تبدأ به الحضارة ما هو سؤالنا الخاص ، ما هو السؤال لو طرحناه على انفسنا لكان من الاجابات المختلفة والمتناقضة عليه نهاية عصر السقوط وبدء الكشف عن ملامح الوجه الصاعد من غبار الهدم وشظايا الابنية التي تهوي – ما هو السؤال ؟ واعتقد ان الواقع العربي لم يكشف بعد · شارك الجميع في تجهيل ملامحه وتمييع قضاياه – لا اعفي احدا من ذلك ولا نفسي ، واشير باصبع الاتهام في الجهات الاربع ودائرة الافق وارى موت النطفة في كل العيون ··· كل العيون ··· فهل الشعر يهدم ؟ نعم ··· ليكشف ويشير ويبني ·

● هل الواقع العربي الذي «لم يكشف بعد» في رأيك يضمر نواة لانطلاقة شعرية اكثر ثورية واكثر فعالية ؟

ـ وميض الخلق والبدء والطلوع يتلامح في غيمة التراب المنعقد كالخيمة على الارض الممددة من الخليج الى المحيط ، لكنه وميض لا يتحول الى نار ـ فهو يحمل في انطلاقه كوابح العقم والخوف والاستسلام ـ الخبز والجبن قدران متشابكان وقيدان على الاجنحة والاقدام والايدي • الخارج يطحن بلورات الشعر ويجعلها شظايا دموية مغروسة في الضلوع •• ونحن نصرخ •• ولا صهيل لخيول العشب والشمس الجديدة في عصر زمن النباح •

● هل تعتقد ان حركة الشعر الحديث بحاجة الى شرطة من نوع فكري لترافق مسيرتها نحو الجماهير العربية التي عرفها البعض بان غالبيتها من الاميين ام ان على الشاعر ان «ينحني» لها كما ارتأى نزار قباني ؟

في شعب امي كالشعب العربي (بكل انواع الامية) يصبح الحديث علاقة الشاعر بالجماهير حديثا مقصودا لشيء اخر غير الجماهير والشعر ، فالشعراء السطحيون التافهون الذين لا يحسنون غير نظم الشعارات والقضايا النثرية المباشرة والذين لا حيلة لهم غير الانغماس الفج في ركاكة السياسة العربية وثرثرتها اليومية ، هؤلاء يكتفون بتصفيق الجماهير ولا يسألون انفسهم عما اضافوه الى وجدان الجماهير وعقلها ومستقبلها ـ وللتصفيق فوائد كبرى و«عوائد» لا تحصى في ارقام التوزيع وارصدة البنوك والعلاقات المشبوهة بالانظمة المتهاوية وغير المتهاوية ـ فهم يأخذون بكلتا اليدين ـ لقد جعلتنا عصور القهر مطايا ملجومة برد الفعل •• ورد الفعل لا يجعل الجثث حية مهما قوي ، على الشاعر ان يكون صوت نفسه وصوت انخراطه وهمومه بروح العصر واعمق اعماق الوجود الانساني ـ وعلى ادعياء الغيرة الجماهيرية ان يدخلوا الجماهير الى مملكة الشعر بان يشاركوا في رفعها من الامية وان يكونوا هم وسيط بين الجماهير والشعر •• اما الشاعر •• فالخلق همه الاكبر والاوحد •

● هل هذا الشاعر المنعزل والمهموم بالخلق يشارك في «تغيير» او تطوير الواقع العربي ؟

ـ الحديث عن تغيير الشعر الحديث للواقع هو حديث عن امنية شبه مستحيلة في هذا الوطن العربي • ان الكبرياء ومجاملة النفس تجعلانني اتمنى ذلك ، ولكنني اعتقد ان الشعر الحديث قد غير معالم الخريطة الشعرية فحسب ـ اما الواقع •• فاي شيء تغير فيه ، اي مسافة على ارض العصر قطعناها ؟ وهل بحكم الشعراء هذا العالم الناغل بالدود ؟ قد يتغير الواقع بالشعر لو اصبح الشعر واقعا متجسدا تجسد الخبز اليومي ، ودون ذلك تطير الرؤوس ••

● يبدو اننا على راي واحد ، وهو ان ثمة هوة بين النتاج الشعري والواقع • لكن ما العمل لازالة هذه الظلال القاسية عن عالم الشعر والتي تشير دائما الى هذه الهوة باصبع سوداء ؟

ـ الفجوة او الهوة القائمة بين الشعر كطاقة انسانية كبرى وبين السلطة في العالم ستظل قائمة وممتدة تتغور ، في لحم العصر ما دام الحوار مقطوعا وما دام العالم محكوما بالصوت المنفرد اي ما دامت القوة القاهرة طعام الفقراء والمرتشين واللصوص والمستغلين ما دام الانسان مضطرا للاختيار بين الرغيف او الحرية ٠

محمد عفيفي مطر
(القاهرة)

السنوات الثمانون للشباب المغربي

لم يعد التعبير عن خيبة الجماهير في المغرب مقتصرا على السخط الصامت او التحسر على زمن الاستعمار ، بل اصبح الكل يعي سيرورة التطور ، ويدرك القوى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الكامنة وراء كل اختيار ، والمؤثرة في سير الاحداث ٠ ذلك ان اربع عشرة سنة من «الاستقلال» وما رافقها من تعثرات وتدهور ، جعلت الاقنعة تتساقط ، والغشاوات تنزاح ، والرموز تفقد قداستها ، ليدرك الكل الواقع الجديد المشخص في مواقف واحداث وافراد وجماعات ، وعمارات واراضي خصوصية ، وكاديلاكات وحسابات بنكية ، وفيلات وقصور يطل اصحابها في تعال على ارتال شبان لا تتجاوز اعمارهم الخامسة عشرة ، يتسكعون لانهم لم يجدوا مقعدا في المدرسة او لانهم طردوا منها ٠

هذه الارتال من الشبان والشابات ، الضائعة في الازقة والشوارع ، والملفوظة بغير رحمة لتعيش على هامش مجتمع تحكمه اقلية متبرجزة ٠٠ هل تدرك الاسباب الحقيقية لبلواها وماساتها ؟ بالتاكيد ، هي تدرك تلقائيا ومعاينة ، مصدر البؤس والتجهيل والامراض ، وتعيش الحرمان في كل اللحظات ، وتعبر عن سخطها ورفضها من خلال الاضرابات المدرسية المستمرة منذ عدة سنوات ٠٠٠ ولكنها لا تعرف التفاصيل والارقام للسياسة الاقتصادية المتبعة منذ ١٩٦١ ، والتي يرتبط بها مستقبل رجال الغد ، ومستقبل المجتمع المغربي برمته ٠

وهذا ما قصد اليه الدكتور محمد الحبابي ، استاذ الاقتصاد بجامعة الرباط ، حينما نشر في نهاية صيف ١٩٧٠ : «السنوات الثمانون لشبيبتنا» (١) ٠ فهو يريد ،

---

(١) Les années 80 de notre jeunesse (Editions Maghrébines, Casablanca, Août 1970).

ستصدر ترجمة هذا الكتاب (انجاز محمد برادة) عن الدار نفسها خلال الشهر المقبل٠

انطلاقا من المعطيات الحالية ومن التخطيطات والدراسات الاسقاطية الصادرة عن مصالح الحكومة المغربية ، ان يطل على المستقبل القاتم الذي ينتظر شبابنا • انه يدق اجراس الخطر ، ويبين ، بكيفية علمية مستندة على الارقام ، ان المخرج من التخلف والتفقير لا يوجد ، ولن يوجد ، الا في افق اشتراكي يتطلب تغيير الهياكل الاقتصادية الليبرالية ، وتغيير المفاهيم الاجتماعية والثقافية القروسطوية ، وتغيير اساليب الحكم الاوتوقراطية الفردية •

يبدأ الاستاذ الحبابي كتابه بلوحة سريعة للوضع الاقتصادي والاجتماعي الراهن :

ارتفاع الاسعار ، تجميد الاجور ، تفقير الجماهير ، اغتناء حفنة من المحظوظين (بضع مئات الاف من السكان يأخذون اكثر من ٥٠ بالمئة من الدخل القومي ، في حين ان ١٤ مليون مغربي لا يتوفرون على دخل فردي يبلغ متوسطه ٤٠٠ درهم) • وينعكس التدهور نفسه على ميدان التعليم والثقافة : ٣ من بين كل ٤ شبان فيما بين ١٥ و١٩ سنة ، لا يعرفون القراءة ولا الكتابة • وفي البادية نجد ان فردا واحدا من بين كل ٢٠٠ شاب ، هو الذي يتوفر على مستوى الشهادة الابتدائية • وسوء التشغيل مظهر اخر للازمة : ففي المراكز الحضرية هناك شخص عاطل من بين كل ثلاثة اشخاص قادرين على العمل ، وهذه النسبة ترتفع اكثر بين النساء ، وفي البوادي •

وفي القسم الثاني من الكتاب ، يتصدى المؤلف لعرض ومناقشة اختيارات الحكم ، بادئا بتصوير السياق المرافق لحاجيات ومشاكل الشباب المغربي (الثورة العلمية والتقنية ، تأثيرها على المجتمعات المتقدمة وعلى المجتمعات المتخلفة) ثم مستعرضا للمشاكل الحيوية : التعليم ، التشغيل ، الاستهلاك ••• كيف تواجه الدراسات الاسقاطية لوزارة التصميم هذه المشاكل المتعاظمة ؟ وما هي الحلول التي ترتئيها ؟

هنا يكشف الاستاذ الحبابي القناع عن جوهر «التخطيطات» الحكومية ، وعن «الفلسفة» السياسية «الرشيدة» الكامنة وراءها • ان الاختصاصيين الذين حرروا اسقاطيات ١٩٨٥ يعترفون باستحالة تحقيق المعجزة المطلوبة منهم : اي التطور بدون ثورة ، وبالمحافظة على البنيات والاختيارات الليبرالية الحالية • وماذا ستكون النتيجة بعد تطبيق هذه الاسقاطيات ؟ النتيجة جد «معبرة» :

ا ـ سيبقى ما يقرب من ٥٠ بالمئة من الشبان المتراوحة اعمارهم بين ٦ و ١٤ سنة، خارج المدرسة •

ب ـ ستصبح البطالة كارثة في عام ١٩٨٥ : ستشمل ما بين ١ و ٢ مليون مواطن قادر على العمل في الاوساط الحضرية وحدها •

ج ـ استمرار الفقر والبؤس بين الجماهير الشعبية

د ـ الحكم على المغرب بفترة طويلة من الجمود والتخلف وسط دول المغرب الكبير السائرة بخطى سريعة •

على ان المؤلف لا يقتصر على فضح ودحض الاختيارات الاقتصادية والسياسية

للحكم القائم في المغرب ، بل انه يحاول في القسم الثالث من كتابه ان يسهم في تقديم الحلول لهذه الوضعية المتدهورة التي تبدو فاقدة لكل افق · انه يؤكد اولا ، استحالة الوصول الى حل في ظل البنيات والهياكل الحالية ، ويبرهن عمليا وبالارقام، على ان العلاجات الوهمية (رؤوس الاموال الاجنبية ، التحالف مع الاستعمار الجديد، القروض الخارجية ، الاصلاح الزراعي الشكلي ، الاستعمار «الوطني» للقطاعات الاقتصادية ··· الخ) كلها لن تقود الا الى استفحال الازمة ، واهدار الطاقات ، وسد باب الامل في وجوه الشباب ·

ان «الطريق الاشتراكي هو طريق المستقبل» ، ذلك ما يؤكده الاستاذ الحبابي ، ولكنه لا يربط هذا الاختيار بالتغييرات الاجتماعية التي حدثت في المغرب منذ الاستقلال، ولا يوضح نوعية واسس هذه الاشتراكية ووسائل تحقيقها · صحيح انه لا يمكن ان نطلب من المؤلف في كتاب واحد ، كتبه في ظروف تصاعد المعركة بين الحكم الفردي وبين ارادة الجماهير ، ان يتعرض لكل التفاصيل ، ولكن حصيلة التجربة النضالية التي عاشتها المنظمات التقدمية في الحقبة الاخيرة ، وما منيت به من تعثرات واخطاء ، تحتم النقاش الواضح ، وتعميق الاختيارات الايديولوجية · ولعل مما يزيد في التباس هذا الفصل الاخير من الكتاب ، ايراد مثال اليابان التي حققت «المعجزة» بالرغم من كونها بلدا غير اشتراكي ·

الا ان الملاحظة لا تنقص كثيرا من قيمة الكتاب ، ومن الجهود العلمية المبذولة في مجموع صفحاته ، مما يجعله وثيقة اساسية ، ومادة مسعفة لكل من يريد دراسة التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفها المغرب منذ ١٩٦١ ، ودراسة الافاق المقترحة من طرف الحكم · ان كتاب «السنوات الثمانون لشبيبتنا» يعتبر بحق ، محاكمة «يقنية» لنظام الحكم المغربي الذي يعتنق شعار : «اغناء الفقير دون تفقير الغني» !

محمد برادة
(الرباط)

(محمد الحبابي ، السنوات الثمانون لشبيبتنا ، المنشورات المغربية ، الدار البيضاء ١٩٧٠)

ملاحظات حول حركة المسرح في لبنان

I

ان اعتبار الكاتب المسرحي في العالم العربي او المخرج او الممثل ، انه يقف في مساحة من الفن لم تشغل مكاناً لها في تراثه ، لحافز رائع وحرية بلا حدود تمنح لهذا الكاتب وهذا المخرج وهذا الممثل .

بمعنى آخر قد يكون التراث حملاً ثقيلاً ، وقد يكون قيداً للذين يودون الاستمرار به أو اضاءته من جديد اضاءة تستمد من الحاضر ، وقد يقع الخلاص لصوت هذا التراث في الاطمئنان والراحة لما هو مثال ، راحة تقتل فيه كل يقظة للجديد والمفاجىء .

هذا الخوف من الرائع في ماضي اللغة العربية غير موجود بالنسبة للكاتب المسرحي ، فهو يدخل للمرة الأولى الى افق جديد وله الحرية كلها ليبني في هذا الأفق الأشكال التي يريدها .

ان هذه الحرية بالذات تحمل كل اغراء الفن وكل شوق للدخول فيه ، وتحمل للذي ينتمي اليها فرصة الأبداع في اللعب في هذا العالم وتثويره.

غير ان الكاتب المسرحي العربي (وخاصة في لبنان) لم تكن له ـ حتى الآن ـ تلك الجرأة المبدعة ليبدأ بداية جديدة ورائعة ، بل انه التجأ الى مصادر اخرى واستوحى منها وسار على خطواتها . لذلك بقيت حركة المسرح عندنا على حدود المحاولات الفنية ، لم تتآلف مع انساننا الفة تصبح فيها حركة من حركاته ، وان ربحت في كثير من الأحيان جمهوراً واعجاباً ، لكنها لم تصبح جزءاً من الفن الذي يبدعه هذا الانسان ، انها ما تزال صورة تعرض امامنا لا صورة نحن نرسمها .

وكما اخطأ الذين اعتبروا الماضي مقياساً للشعر ،يخطىء كذلك الذين يعتبرون الآن ماضي المسرح الغربي مقياساً للمسرح ، وايا كان هذا الماضي ، لأن هذا الماضي الرائع كان تخطياً لماضيه ولا يحمل هذا التخطي صفة المطلق والنهائي ليكون مقياساً وبالتالي قيداً لكل خطوة جديدة .

II

تظن الحركة المسرحية ان كسبها للجمهور هو مقياس لنجاحها الفني والثوري ، غير ان هذا الجمهور يقبل كذلك على اتفه الأمور واكثرها رجعية وبعداً عن الفن . وان هذا الجمهور مليء بالاستسلام ان لم يكن بالجهل والأمية ، فهو ليس مقياساً وفي اكثريته منهزم ومقيد ومستعمر . انه جمهور يفتش عن السهولة وهو لذلك ضد الفن وضد المسرح ، لأنه يجعل من هذا المسرح ضرباً من التسلية يضيفها الى تسلياته اليومية ويجعله زياً من ازيائه وعادة من عاداته السخيفة . إلا ان المسرح الثوري يجمع جمهوره . بمعنى آخر يخلق جمهوره لا ليسليه بل ليحرضه وينقل اليه هم الابداع ولذته .

ان جمهور الفن ليس الكثرة في العدد بل الكثرة في القدرات ، انه جمهور الفعل وليس جمهور الاستهلاك ، جمهور التحدي وليس جمهور القبول ، فالفن لا يحييه الجمهور القابل بل الجمهور الرافض ، وهو هنا جمهور لا يختلف من حيث العمق عن الكاتب او المخرج والممثل ، اي انه جمهور فنان كذلك .

III

لقد اتخذت حركة المسرح عندنا صفة المسرح السياسي . والمفروض ان السياسة اذا دخلت الى الفن تصبح فناً ، وبالتالي تتخطى شكلها الذي تبدو فيه في الواقع المعاش يومياً ، تأخذ لها أثواب الفن لتحرض الانسان لتجاوز واقعه ،ولعدم الاستسلام له استسلاماً انهزامياً .

غير ان السياسة في حركة المسرح لم تكن أكثر جرأة وفعلا من سياسة الصحف والمجلات . بقيت سياسة تقف عند السطح وعند الجزئيات ، تلهي المشاهد والمتتبع لها ولا تثوره ، وليس المقصود هنا ان المشاهد يجب ان يخرج من المسرح الى جبهة القتال المسلح ، بل ان يخرج الى جبهة اخرى، ليكون القتال بينه وبين نفسه ، بين ما هو كائن وبين ما هو ممكن . أليست غاية الفن الاخيرة هي زرع هذه النار ؟ ترى أليس المسرح فناً ؟

والسياسة اذا دخلت الى الفن ، اصبحت رؤيا للمستقبل ، اصبحت نظرية بالمفهوم السياسي الثوري ، وهي هنا قد لا تختلف عن اي موضوع فني آخر كالحب ، والجنس ، والموت ،والفداء، والغناء، لأنها لا تعود شكلا من اشكال الحياة بل مضموناً من مضامينها الدائمة الحركة والجدة، وجزءاً من جوهر الانسان وحركته في الزمن والتاريخ .

قد يؤخذ على هذا الكلام انه كلام مثالي . انه مثالي اذا كان الفن لا يهدف الى التغيير ولا الى خلق أمل آخر للانسان بالمستقبل : ان يتصور العالم على الأقل بغير صورته الحاضرة والماضية . اذا كان الفن يبغي نقل الواقع الى الصورة فان هذا الكلام مثالي مستحيل . لكن الفن في التاريخ لم يكن ليجمد الحاضر في الصورة بل كان يأتي دائماً بالمستقبل الى الصورة ،

ليس لأجل المعرفة بالمستقبل فحسب بل لأغناء الحاضر واضاءته اضاءة باهرة .

فأين الرؤيا في مسرحنا السياسي ؟ واين هو هذا المستقبل ؟ يبدو الجواب محزناً ، فالسياسة في انجح مسرحياتنا تتصارع مع سياسة السياسيين المحترفين لتأخذ لها مكاناً جنبها أمام الجمهور فحسب ، لا ان تتجاوزها في فهم الواقع السياسي لتصبح فكراً وفناً ، والمسرح السياسي هنا لم يستطع ان يتعدى المقال أو التعليق او وجهة النظر البسيطة .

VI

ان الواقع لا يعاد مرتين ، مرة في الحياة ومرة في المسرح . ان اعادة الواقع او تجميده موت ،انه اعادة لمزيد من الحزن ، والفن عكس ذلك انه أمل وفرح بالأمل .

مع ذلك فالمسرح عاجز ان ينقل الواقع كما هو اليه. لذلك يأتي الواقع في مسرحنا ممسوخاً . لأنه من المستحيل ان يعاد الامس ويعاش مرة ثانية . لذلك فالذين يتمسكون برسم الواقع يتمسكون بشيء وهمي لا وجود له . فقيمة الواقع الفنية ان الانسان يعيشه كل لحظة بكليته والواقع من هذه النظرة حركة لا تتوقف ، فكيف اذن يستطيع المسرح ان يجمد هذه الحركة ؟ لذلك كان الفن حركة سابقة الى الامام لتكون شاهدة وراصدة لحركة الواقع .

كذلك لا يستطيع المسرح الذي يدعي الواقعية ان يضيء الواقع لمزيد من الفهم ، لان الواقع يحمل معه هذا الفهم ،يصل الينا في عيش هذا الواقع. ولا يضاء إلا بالرغبة في تجاوزه ، واذا كان الفن قد اختار التجاوز فلأنه يهدف الى الاضاءة كي تمارس كل قدرات الانسان وامكاناته . لذلك فكل نقل للواقع من الحياة الى المسرح عمل يائس وميت .

V

ان البداية المسرحية خاطئة كما يقول أدونيس،لأنها ليست بداية ،هي تقليد ونقل . ولا تحمل مغامرة البداية واقتحامها المجهول والجديد . بل هي استمرار لبعض الاشكال السهلة الماضية استمراراً يشوه الماضي نفسه ويؤخر ولادته ولادة جديدة في حاضر مجسد ومستقبل آتٍ .

سمير الصايغ

شجرة الكتابة

I - دعد يا حبيبة .. اسمها - ميشال كمال

من اهل الظل، يتلذذ بانمحائه في اللذة، ويجعلها علواً. ولان الظل تصورات ساكنة، والعلو فرار، كان انمحاؤه جذرا لشعره. قد ينبثق، وقدتغمره المياه، وفي الحالين يلغو بنداء الظل لاعالي الشجرة انها صلة بالشوق، تتحقق في ذاتها. حين يكون الشوق نهاية في الاعتزال، يصبح الصمت اتصالا – اتصالا بعلو الذات في لغتها الخاصة، تلك اللغة المحوة اللذيذة. هكذا يصير ما ليس لاذا عرضا وزيادة عن حاجة الشعر، يصير فقدانا تاما يتهيب اللغة. اللذة هي الحركة التي تبتلع اللغة وتملؤها، وهي التي تزمن افعال الطبيعة بزمن القذف. يكتب الشعر ليلاطف به جسدا، ليعجنه بلغة الليل، ويمنحه احتمال المضاجعة الاعلى.

II - بدر شاكر السياب، حياته وشعره - عيسى بلاطة

في مجموعة من رصد العلاقات الانسانية الخارجية، تمت المرحلة الاولى للصورة النقدية بالنسبة لكل من يريد مستقبلا اي يدخل عالم بدر شاكر السياب. ذلك لانه لا بد للعملية النقدية من عتبة ماصة وممغنطة بمنهج تاريخي، يهيء حيادا تفسيريا ينفي صيغة الاستباق النفسي والايديولوجي. هذه الصيغة الاقتلاعية لمفهوم الوضعية النقدية، والتي تنتهي الى تقنية النص خارج ارادته، ووضع النقد خارج تنفسه الطبيعي. قلت: «عتبة» فقط، لان تجميع النصوص وتوثيقها، او توزيعها في نسقات منظمة، هو مرحلة بدائية جدا، واستهلاكية. انه في ابعد مد له نوع من صلاة الغائب، او استحضار لصداقة الموت، بعد ان صارت سنابل الصلة دقيقا، ولا يمكن ابدا ان يستغرق معظم الوظيفة النقدية. الاكتفاء بمنهج التاريخ تحوير وظيفي جعل من النقد وجودا لغيره، وانطقه بلغة تتعب فكيه. ان عيسى بلاطة الذي اكتفى بهذا المنهج انما اراد ان يستبق ضياع الوثائق، ويمهد العتبة ولذا كان كتابه تاريخا، وليس نقدا.

III - منطق الطير - فريد الدين العطار النيسابوري

تجوع الدلالة للالوهة حين تخرج من الطريقة الى الخليقة ، وتمحو الفوارق بين الاذن واللسان • هكذا يصبح المعنى نية ، وتصبح الحاسة تحتنا نهريا ينبع ويصب في القلب • حاسة تكون الجبل والوادي في ان ، وتكون الفناء في كل ان • انه اقتلاع كامل من تراب اللغة ، وغياب في منطق الطير • هنا تدخل طيور العطار برزخ الموت ، تنقره ، وتعود باخباره • وفجـأة تدرك انها كانت هي الموت •

فتحت الطيور الثلاثون اجنحتها من الشوق
وطوت الهواء بحثا عن السيمرغ
فلما عدت نفسها في اخر الامـر
رأت انها كانت هي السيمرغ
كانوا وهم يسيرون ، يقولون هـذا الكلام
فلما وصلوا لم يبق منهم رأس ولا جسم •

IV - رسالة في الفلسفة المنطقية - فتجنشتين

نتعرف الى حدود اللغة حتى لا نتكلم فيما لا يمكن الكلام فيه • اي : ان لا نقول الا ما يمكن ان يقال • ولما كان كل ما يمكن قوله هو من قضايا العلم الطبيعي التي تتكلم عن الواقع الخارجي ، كـانت قضايـا الفلسفـة والميتافيزيقيا خالية من المعنى • الفلسفة هنـا تحليل للغة التي نتكلم بها في الفلسفة ، او تعبير عما تثيره من مشكلات فلسفية ، بدلا من اقامة نسقات فكرية وميتافيزيقيـة • اصبحت الفلسفة بمعنى ما ، هنا ، فلسفة للفلسفة • انها تحليل للمشكلات عن طريق تحليل عبارات اللغة التي نصوغ فيها تلك المشكلات • الفلسفة ليست نظرية من النظريات • انها فاعلية ، ولـــذا يتكون العملَ الفلسفي اساسا من توضيحات •

انه يريد ان يوضح لنا العلاقات الضرورية بين الالفاظ اللغوية والاشياء الموجودة في العالم ، ويطبق نتيجة لذلك ، هذه المبادىء على مختلف اقســام الفلسفة التقليدية ، مبينا ، ان الفلسفة التقليدية ، والحلول التقليدية لمشكلات الفلسفة ، انما تنشأ من الجهل بمبادىء الرمز اللغوي ، كما تنشأ من سوء استخدام هذا الرمز • ماذا يحدث في عقولنا فعلا حين نستخدم اللغة ، ونريد ان نعني بها شيئا ما ؟ • وما هي العلاقة الموجودة بين الالفاظ والجمل والافكار وبين ما تشير اليه او تعنيه ؟ هل تعبر اللغة عن الصدق ام عن الكذب ؟• اي علاقة يجب ان تربط واقعة ما بواقعة اخرى بحيث تكون الاولى رمزا للثانية ؟

ان عمل اللغة الاساسي هو اثبات او نفي الوقائع • ولكي تثبت جملة ما واقعة معينة ، يجب ان يكون هناك شيء مشترك بين بنية الجملة وبنية الواقعة • لا بد اذن من لغة مثالية ، يكون فيها اسم واحد لكل شيء بسيط في العالم ، ولا يكون هناك رمز بسيط لشيء غير بسيط • اننا ما دمنا نعيش هذه الحدود المضطربة الدلالات لغويا ، فان القضايا التي يقولها الفلاسفة ، انما تنشأ عن حقيقة كونهم لا يفهمون منطق لغتهم ، اذلا يمكن ان يقال شيء صادق في الفلسفة على الاطلاق • فكل قضية فلسفية هي قضية رديئة بالنسبة لقواعد اللغة • ان ما لا يمكن ان نفكر فيه لا نستطيع ان نفكر فيه ، ولذا فلا يمكننا ان نقوله • وطالما ان هذا المنطق ينفي البحث في العالم ككل ، فانه يرى ان هذا الشعور بكلية العالم هو جوهر التصوف والدين •

بمنطق فتجنشتين نفسه نجد ان رسالته هذه هي مجموعة من العبارات الخالية من المعنى • ان رسالته بالنسبة لمنطقه لغو •لكنها كما يرى : «لغو مفيد» ، لانه يشبه درجات السلم التي يستخدمها الانسان في الصعود ، ثم يتجاوزها • اننا كما نعتبر الصفر جزءا من الجهاز الرمزي الخاص بالحساب، على الرغم من انه لا معنى له ، كذلك نرى ان رسالة فتجنشتين هي الصفر الفلسفي الذي لا بد منه في الجهاز الرمزي الخاص بالفلسفة •

V – الطين – وليد اخلاصي

اذا كان حقا ان ماهية الابداع لاحقة بوجوده ، وان هذه الماهية مزاجية، ما تستقر في وجود حتى تتجاوزه ، فان المبدع حين يتعلق بصيغة ابتدعها ، ولاقت رواجا في الماضي ، انما يمتنع عن اختيار نفسه ، ويشارك الاخرين في تهديمه • اختيار الافلات من الذات للتحقق مستقبلا مشروط بالمغامرة ، مشروط برفض الثابت الوجودي للابداع • وهو اختيار لا بد منه ابداعيا ، حتى لا يستنقع الجميل في الماضي ، وحتى يكون الان مشروعا ابعد من حدوده ، امكانا منفتحا تنزع نحوه القدرة ، بحيث تكشف باستمرار عن اختيار يسبق نفسه ، عن رغبة تنقلنا ولا تذكرنا •

هل يستطيع وليد اخلاصي ان يتجاوز ماضيه ؟

VI – اغاني الحارس المتعب – بلند الحيدري

التركيب الكلي لوجود الشعر ما يزال احتمالا ، او هما • حين احضر هذا الاحتمال لاقرأ بلند الحيدري ، اجدني في منـاخ اسميه «صرخة الهم» – الصرخة المعلقة في امكان التحقق والموت في ان، ذلك لان الهم هنا ينطوي على رغبة في ان يكون وجودا لغيره • وجودا للانسان وقضاياه ، لاغيا ذلك

الاعتبار الذي يحكم مقولات الابداع في وظيفته ، على اعتبار ان رسم دائرة العالم ابداعيا ، تجذرت في رصد تيارات العصر الثقافية ، واقامت علاقة تنافرية بين الزمن والقيمة • وبلند الحيدري الذي يرصد ظواهر الاجوبة المعاصرة لقضايا الانسان اعلم مني باهمية السؤال فلسفيا وابداعيا ، هذا السؤال الذي يفتح للمتلقي باحة التأمل الصرف في فعل الادمية ، وفعل الطبيعة ، وفعل العلاقة بينهما • ان الاهتمام بالاجوبة من خلال رصدها او محاكاتها ، منح قصائده طبيعة جدلية اقتربت بها من لغة المسرح ، اي انه خرج من النجوى التي تكون اسرارا بين انوات الابداع ، الى الحوار الذي هو صراخ بين انا لشاعر وانوات الاخرين •

منير العكش

خواطر حول التجربة الشكلية في «اغاني الحارس المتعب»

١ ــ استطيع ــ بشكل ما ــ ان استثني ، في ملاحظاتي هذه بعض قصائد الديوان : «دعوة للحذر» و«لو مرة نمت معي» و«اعتذار» و«بين مسافتين» ، لانها تخرج عن خصائص القصيدة التي تنتمي لمجموعة الشاعر بلند الحيدري الاخيرة : الخصائص الفنية ، او خصائص «التجربة الشكلية» •

٢ ــ سأشير الى ظاهرة مهمة وعامة في حركتنا الشعرية المعاصرة ــ وارجو ان اكون دقيقا وصادقا معا ، فلقد شاهدنا في مسيرة القصيدة العربية المعاصرة ، ان شعر شعرائها كثيرا ما يرتبط زمنيا باعمار هؤلاء الشعراء بحيث يتوزعون بعد الاربعين على ارض جافة ، فمنهم من يتوقف تماما ، عن الانتاج الادبي ومنهم من يصبح مقلا ، لا علاقة للحكمة والعمق باناته هذه • بل على العكس اذ نرى قصائده لا تخرج عن كونها نتيجة للحالة الداخلية ، حيث استطاعت ان تمنع اكثر الشعراء عن النشر على اقل تقدير •

الشاعر ، يبدأ بعد الاربعين •

ومن اجل ذلك ارى ان ظاهرتنا هذه ، تدعو للتأمل حقا •

٣ ــ استطيع ان اسمي هذه الحالة : هبوط الزئبق في محرار «العاطفة الشعرية» •

وعلى هذا الضوء اتساءل : هل مجموعة الاستاذ بلند الحيدري الاخيرة «اغاني الحارس المتعب» تشير الى هذه الظاهرة ·

لقد عرف الاستاذ بلند في الخمسينات بقوة « الدفق الداخلي » او «العاطفة الشعرية» (١) · ووفق مسيرته المبدعة خلق لغته الخاصة ، ونمى هذه «اللغة» داخل نمو «دفقه الداخلي» او «عاطفته الشعرية» · ولكن الذي حصل في السنوات الاخيرة ـ ولعوامل يبدو ان تأثيرها كان عاما وشاملا في الحركة الشعرية المتمثلة بشعرائها الرواد ـ ان لغة الشاعر الحيدري التي كانت حصيلة سنوات طويلة وجدت نفسها ـ فجأة ـ معلقة · لا يتصل طرفها وفتحتها السرية بذلك «الدفق» او «العاطفة» التي لم تعد دافئة ، ومتوفرة ·

لقد اصبحت اللغة معلقة ، ولكنها ناضجة وقابلة لان تكون صيغا ذات دلالات ذهنية ·

٤ ـ هكذا ارى : ان اهم خصائص التجربة الشكلية في مجموعة الشاعر الحيدري الاخيرة ما هي الا نتائج لتلك «الحالة» ·

٥ ـ بدأ الشاعر يتعامل بمنطق جديد ، متأمل ، وحكيم، مع ملكيته الخاصة ، او «لغته» الخاصة ، هذه · دونما نوازع داخلية غامضة ، تدمر عليه هذه المحاولة ، الذهنية ، الحكيمة ·

فاكتشف ـ في حدود علاقته بلغته مثلا ـ العلاقة «البصرية» جوهرا ، بين «الكلمة» و«الفراغ» · الكلمة المنتمية الى القصيدة ، والفراغ المحيط بها ، بقصد الاستحواذ عليه ، وجعله منتسبا الى الكلمات · فبدأت هذه العلاقة ـ كما ارى ـ تستخدم الشاعر ، دون قدرة منه على استخدامها · فقط ، لانه لم يعد يملك الدفق الكبير ، الفوضوي ، الشعري ، الجدلي ، الذي يدمر كل ما في العلاقة من منطق ·

لقد بدأ الشاعر يتصور ـ وله في ذلك حق ـ ان للمفردة ، اذا ما انفردت في وسط الصفحة البيضاء ، قدرة على الاشعاع ، تجيئها ، من انتساب الفراغ لها · ونحن يجب ان نعلم ان هذا ممكن ، فقط ، اذا ما فرضت هذه العلاقة ، من الفوضى الشعرية الداخلية ، ولعل هذه ، خاصة ، من ابرز واظهر خصائص القصيدة الجديدة · القصيدة التي لم تكتف فقط بطاقة المفردة على الايحاء ، بل اشركت معها مساحة الصفحة البيضاء ، والحاسة البصرية في توزيع الكلمات والاشطر ، والحروف ·· وقدرة الطباعة على اللعبة التشكيلية، الامر الذي لم يتوفر للقصيدة «العمودية» ذات الشكل الهندسي ، الوقور ، العاجز عن الحركة ·

---

(١) هذا المصطلح اشك بدقته ولكني لم اجد بديلا عنه ·

«في غرفة في الطابق السابع
التقيا ...
تحدثا
تصارعا
ناما معا
واسدل الستار»
«متهم ولو كنت بريئا»
«فشربنا نخب تروتسكي
وسكرنا
صرنا ،
اغنية ،
حانات ، قيثارا .
« هم وانا »

٦ ـ من النتائج ، ايضا ، فيما يتصل «بالتجربة الشكلية» اهتمام الشاعر بان يجعل المفردة ، منضبطة ، مباشرة ، وموحية معا . منضبطة، لانها بعلاقتها مع المفردات خاضعة لمنطق خارجي ، ونتيجة لذلك ، سيكون ايحاؤها مرتبطا بهذا المنطق .

انها تقترب من لغة السيناريو الهامس .
«تفترش الشاشة عينان
انفرجت شفتان
ابتسمت
لمعت عدة اسنان
ويغور اللون الاخضر في كل الالوان»
«حلم في اربع لقطات»

وتبعا لذلك سنقع حتما على اهتمام واضح بالحوار ، باعتباره ، لا محصلة عابرة للغة السيناريو الشعرية ، بل باعتباره محورا اخرا للتجربة، ولكنه بالطبع ، سيبقى ، لا اداة من ادوات الدفق الداخلي ، بل : القصيدة بلغتها المتوفرة الخارجية .

القصائد : (هم وانا ، حوار في المنعطف ، الشاهد المقتول ، ثرثرة في الشارع الطويل).

٧ ـ استطيع ان اضع خصائص هذه التجربة الحيدرية ، ضمن اطار «الرؤية البصرية» . فانت تجد في المجموعة ان حاسة البصر اكثر الحواس الاخرى نشاطا ، وهي ميزة ـ دون شك ـ ينفرد بها الشاعر بلند . واكبر الظن ، انها مستوحاة من الفن التشكيلي ، ونتيجة من نتائج الاهتمام به .

انك حين تقرأ القصائد ، فانك «ترى» ، دون ان تغرق · تراقب ، وتأول ، وتفكر ·

وتستطيع – من اجل ملاحظة ذلك – ان تراجع الاهتمام الواضح بتقطيع القصيدة ، وتوزيعها – عند التشطير – على الورقة البيضاء · وكذلك الاهتمام في وضع لوحات لبعض القصائد ، والاهتمام ايضا بتأخير القصيدة في مربعات ··· الخ ·

(اغاني الحارس المتعب – شعر بلند الحيدري دار الاداب – ١٩٧١)

فوزي كريم

حنجرة «الومض» وجراثيم الخناق

لولا العناوين التي تقف على ابواب القصص في مجموعة «الومض» لما تنبه القارىء الى ان ثمة قصة انتهت واخرى ستبدأ · وانما لبدأ الكتاب مجموعة شخوص غير مترابطة تخرج من جدران النص القصصي ليصطدم بعضها ببعض او لا تصطدم · وفي حال اصطدامها ، تترك ذيلا رفيعا من الدم غير المبرر هدره · وتتنفس القصة شهيقها المنعش ، عندما تخرج شخوصها من شكلها البشري لتدخل في سلسلة من التحولات فتنتقل ملامحهم الى الليل والشوارع والحب والمدينة · الا ان مشكلة حيدر حيدر ، هي ان عملية التحول هذه غالبا ما تتمرد عليه فتخرج من قبضة لغته وخياله ، لتنطلق في جو ضبابي ، هيولي يتجمع كجراثيم الخناق في حنجرة القصة فتعيقها عن أداء مهمتها وحيويتها · والانفعال الذي نقله الكاتب عن طريق المبالغة،

لم تفارق قشعريرة الخوف اجساد الشخوص بالرغم من تنوع اسبابه حتى بدا كانه داء وراثي · لقدتعددت المشكلات التي طرحها المؤلف في قصصه القصيرة · فوقف الدين والجنس والحرية والزمن والموت جميعها ضد الشخوص لتعذيبها: « جدتي· لماذا لا ينزل الرب على الارض ليرى فواجع البشر ، يعيش بين العباد وينسق الشرور ؟ فقمزت كمجنونة وسدت لي فمي ، ثم صفعتني على وجهي وراحت تتمتم : استغفر الله · استغفر الله· لا تؤاخذه يا رب · ثم انهمرت دموعها وما لبثت ان احتضنتني وطوقتني بحدب لافة ذراعيها وثوبها الرث حول جسدي · وهي ترتعد فرقا من صاعقة ستنزل على بيتنا وتحرقه ·» وهكذا يبقى الانسان اسير الطبيعة وما وراءها · واذا ما

ترافقت الطبيعة بالشخوص ومنحتهم الطمأنينة والحرية، أطل الطاغية من عالم ما وراء الطبيعة ، اي من عالـم الدين والخرافة ليسلب تلـك الشخوص طمأنينتها . الجدة هنـا خائفـة من العقوبة فيما اذا رفعت الغطاء عن ذلك المجهول الذي يسمى «الرب» . الا انها تبقى اسيرة تلك القوة عن قناعـة ومحبة . وهكذا نرى انه ليس المعني بالطاغية الحاكم دوما ، وانما قـد يكون الجـلاد المختبىء في ذات المحكوم اكثر قسـوة مـن الجـلاد الحقيقي. وهـذا ما اثبتته الثورات عندما ارتقت الطبقات الدنيا مـن الشعب منصات الحكم . فقامت في البـلاد مجازر مخيفة . وكثيرا ما تفقد هـذه الرغبة صبرها وتخرج عـن صمتها ، بطرق اخرى . فيقول حيدر حيدر : «الارنب الذي قتلته يا شيخي كان انسانا قتلته للتشفي ، ولم يحدث ذلك في برية ، انما في باحة محاطة بالاسلاك الشائكة . اكثر من الفي بشري شاهدوني اقتله .» «كان الان واقفا كالصقر وسط الطمي الذي غمر اعضاءه التناسلية . وشعر بصقيع الغرين يخترق روحه ثم يسكن في الوتين وبهدوء وسلام راح يغور ، وسط ظلام العالم راح يغور» . فانسان القصة هنا محاصر بالاثم الذي يضرب نضارته الانسانية بسياط من الوحل ويظل يتفشى في جسده كالداء حتـى يغلبه . ولكن كلما شارفت الصورة على النوم ، جاء المؤلف وايقظها . يخلق لها الضد او الصورة المعاكسة . فبعـد اليأس المفزع يأتي الامـل ساعيا الـى الشخوص على قدمين فتيين : «لم استطع تفسير حالة الحلول بين نزوعي الفردي الحاد ، وبين غوصي في نهر البشر . كنت احدس انني سالتقي بمثالي الضائع بين ملايين مفقودي الهوية عبر الاسلاك والاشراك التي نصبت على هذه الارض» . وهكذا فعندما يصعب نجاح القصة كشخصيات تستقطب الحدث القصصي وتحطف الافكار من فم المؤلف الى فمها ، نجد ان هذا النجاح يتم عندما يبتعد النص عن الشخوص ليلتصق بالمؤلف ويشع بحرارته الشخصية لابسا بذلك لبوس الشعر . الا ان المشكلة التي يعاني منها حيدر حيدر في كل من «حكايا النورس» و«الومض» هو خلق شخصية قصصية . وكأن تشبثه باللغة الشعرية تشبث من يريد ان يتستر . الا ان الشيء الذي فاته هو انه لا وجود للشكل الشعري دون مضمون شعري .

سنية صالح

توفيق صايغ ، بحث عن عزلة من نوع آخر

موت توفيق صايغ بحث عن عزلة من نوع اخر · كان مغتربا عن مجتمعه ومسيحه والمؤسسات التي عمل فيها · المناخ الديني الذي عاش في ظله لم يمنحه الشعور بالاكتفاء : ازعجه حتى الصميم ان المشرف على العالم الذي نشأ على حبه ليس في الواقع سوى «اقطاعي نبيل» يحتكر كل شيء ، فهو المنتج والشريط والمخرج والممثل الوحيد ، لا يترك للانسان ، فكيف للشاعر ، شبرا من الارض يتحرك فيه بحرية ويخلق بمسؤولية · حرمه من نعمة خلق العالم وطالبه بالطاعة · بل اراده ان يرى الطاعة ـ حتى الطاعة العمياء ـ فضيلة · طلب منه مسيحه ان يقلع عينيه ان اعثرته عيناه ، فخير له ان يخسرها من ان يخسره ، وان يقطع ذراعه ان اعثرته ، فخير له ان يخسرها من ان يخسره ·

وثار توفيق صايغ على ربه صارخا من الاعماق بألم :

«وماذا ان تكررت العثرات

وانقلب كل عضو في معثرا ؟

وماذا ان انتابتني حمى

القلع والقطع والبتر والاجتثاث

ورحت انثر الاعضاء

كقروية تنثر الحب للدجاج ،

ولم تبق لي حتى يد تقصي عني المعثرات ،

ما الذي اسميه اذ ذاك (انا) ،

و (مولاي مولاي)

ما الذي تسميه اجيرك ؟»

ليس الرب وحده هو الذي يمارس في بلد توفيق صايغ عملية سحق الفرد وقتل حريته وخنق طاقات الابداع عنده ، بل ان العائلة والوطن والمدرسة والحزب والدولة تفعل ذلك ايضا · وضاق توفيق صايغ جدا بالزيف والرياء

والخداع في المدينة التي نمت فيها جذوره · الاقنعة كثيرة وكثيفة ومتراكمة وتباع في جميع المؤسسات دون ثمن · ما يقال علنا شيء ، وما يقال في الاحاديث الخاصة شيء اخر · ما يقال امام الوجه شيء ، وما يقال وراء الظهر شيء اخر · وبقدر ما ازعجه الزيف ازعجته السطحية · رأى العالم كله بالونا ، وكان يطيب له ان يغرز مسمارا فيه ليبدو على حقيقته : قشرة رقيقة فارغة مكومة على نفسها بشكل فوضوي ·

بدل ان يغرز المسمار ويحارب العالم ، حاول دائما ان ينعزل عنه وان يغرق في وجوده الخاص · حاربه بالعزلة عنه وبالسخرية والتهكم · كان ساخرا متهكما في كل الظروف · السخرية ملح الارض · وهل يمكن ان يكون الانسان ذكيا دون ان يكون متهكما ؟ هل يمكن الا ان يتهكم حتى من ذاته وجذوره وانتماءاته ؟

تهكم توفيق صايغ في اغلب الاحيان بصمت · كان لا يقول شيئا ، ولكن الذين كانوا يتأملون وجهه لمحوا فيه ذلك التهكم الذكي البارد · كان يبتسم بين حين واخر · ابتسامته تولد بمرارة عندما يتكشف له رياء العالم · ابتسامته رفض وعودة في الوقت ذاته الى الينابيع الاصيلة في نفسه حيث ينبت الحنين الى الموت ببطء كغيمة رمادية في صيف الصحراء ·

وعندما يتصور المدينة «بعبعا مقيتا» يهوي عليه ويدوسه ، انما «ليلقاه ما زال واقفا كما كان» · اذا كان لا يستطيع ان يغير العالم ، فربما كان من الافضل ان ينعزل · هكذا فعل ولكنه لم ينس · هذا امر طبيعي · لذلك يشتد شعوره بالمرارة تجاه العالم · ينسحب بصمت ويقف عند الحدود الفاصلة بين العزلة والمدينة · يكتشف انه لا يرى المدينة نقيضا للعزلة ، وان العزلة ليست حلا · في اي حال لا يريد ان يتجاوز الحدود الى العزلة ، ولكنه في الوقت ذاته لا يريد ان يتجاوز حدود العزلة الى المدينة · يعيش في المدينة والعزلة في الوقت ذاته · يقطن الحدود الفاصلة بين المدينة والعزلة · يبقى عند الحدود · يعرف ان المدينة زائفة وتملك كل الاجهزة والوسائل التي تساعدها على تلقي عنف الثائرين والمتمردين دون ضرر او احتوائهم وسحقهم · يبقى عند الحدود انه يقطن جزيرة لم تالفها الخرائط : في حالة نفي عن المسيح والرب والعائلة والوطن والاصدقاء ، يسافر في هذه الجزيرة بين المدينة والعزلة دون ان يبرح مكانه ، انما كالريح والطير والضوء ·

كان احيانا يخترق المدينة الى اصدقائه · عرف ان صحبه قلائل ، لكنه كانسان مليء بالصحةوالثقة بنفسه رأى ان خصومه اقل· عندما كان له منزل دافيء تهادى خلفه الجرذ ، وكالجرذ هربوا عندما تهدم المنزل · هدم المنزل بنفسه عندما ادرك انه لم يكن مبنيا فوق تربة صالحة · وغرق في مرارة تمزق الاعصاب لا حزنا على المنزل بل تألما من قضمات الجرذ «كره الكون دون ان يجرؤ على البصق على من فيه »· اختار بدلا من ذلك السفر والسخرية

والتهكم • وكان صراخه كأنما « يطارد دمية مكسورة » • مل السفر بين العزلة والمدينة ، فصرخ :

«تعبت وسئمت

ومل باسبورتي جماع التأشير »

ومن الاعماق صرخ الى الموت • حن الى الموت • ولكنه ما يكاد يفعل ذلك حتى يشعر بحنين الى العودة ، الى اختراق المدينة في سفينة الشعر ممتطيا مهرة بيضاء فتية قوية • لم يكن رومنطيقيا جديدا ليهتم بالعودة الى المدينة السماوية او حتى الى البداءة والطبيعة • تلقف الطعم الذي وضعه الله على صنارته وفر الى الجزيرة الفاصلة بين العزلة والمدينة • احب السباحة • اخترق مياه العالم حاملا طعم الله وطعم المرارة وتفنن بالانزلاق والصعود • احب اليقظة والتكون • اراد ان يكون ارنبا ينط • ولكنه كان مصابا بنبال صيادين كثر •

ونزف دمه حتى اخر نقطة ، في الجزيرة الفاصلة بين العزلة والمدينة• كان وترا مشدودا بين العالمين ، واصدر الوتر النحيل الحانا ملات وجودنا بالبهجة والتأمل •

غير ان الوتر قطع باكرا في الغربة وفي الظلمة وفي وسط السيمفونية ، فترك فراغا ووجعا في القلب •

حليم بركات

قضايا ثقافية

فرنسوا شاتليه

الايديولوجية المحلية والمركزية الاوروبية

ان كلامي عن مثل هذا الموضوع يبدو وكأنه مشاركة مني في خلق موقف مغلوط · ولكن لا ينبغي لنا ان نتحمل المثال هذه المواقف محمل السلب والتحقير ، ذلك لان منها ما هو ضروري ومثمر · ونحن نأمل ان يكون موقفنا هذا واحدا منها · ما الذي يجعل موقفي هذا في غير محله ؟ لانكم امام رجل جاء ليقول لكم : تحرروا من سيطرة الثقافة الاوروبية التي تعتبر نفسها بداية كل شيء ، والتي تحيل لمآرب في نفسها انماطا خادعة على الاخرين ، انماطا تريد من ورائها بسط سلطانها على الحضارات التي تمايزها ، فتحدد لكل حضارة موقعها تمهيدا لدحرها باي شكل كان · جئت لاقول لكم هذا ، وأنا اوروبي ، بل أسوأ من ذلك ، فانا جامعي فرنسي اجرجر ورائي مائة عام من الاستشراق · وخمسين عاما من الانتداب · وسواء على هؤلاء المستشرقين والمستعمرين ، اقصدوا ذلك ام لم يقصدوه ، فانهم كانوا ، ولعلهم ما يزالون ايضا ، من بدع هذه الحضارات ، وبالتالي فانهم من ضحايا هذا الغزو الثقافي · وهكذا ، وهنا تكمن المفارقة الكبرى ، فان كلامي هذا ينتمي الى تلك المؤسسة الثقافية التي يريد ان يفضحها ·

علينا ان نقبل بهذا الموقف المغلوط ، الا ان علينا ان نعمقه ، بالاعتراف به على انه عارض لوضع عام وضروري · لذلك ينبغي حصره في اضيق نطاق ، ولكي نفعل ذلك ، علينا ان نحدد النقاط التالية التي تكون نوعا ما ، الاسس المنهجية لهذا العرض ·

في الدرجة الاولى يتموضع هذا العرض في عموميات واسعة · ذلك لان اوروبا

التي نتكلم عنها تمتد من كامشاتكا (١) الى فانكوفر ، ومن أيسلندا الى جوهانسبرغ ٠ وسواء اكانت مسيحية ، ام غير مؤمنة ، امتدعي الماركسية ، فانها تنتهج طريقة واحدة ، وتسلك وفق تلك القيم الشاملة نفسها ٠ اما بالنسبة للحضارات المغزوة والمنخدعة بالامبريالية ، فانها في غاية التنوع ، وميزتها المشتركة انها ابتليت بالاستعمار الاوروبي ٠ ولذا ينبغي علينا ان نقول : ان اجوبة هذه الامم والشعوب على الاستعمار الثقافي لا يمكن ان تكون واحدة او متشابهة ٠ ان على كل شعب ان يقدم جوابه الخاص به ، وان يتفرد بمقاومة يقتضيهما ماضيه وحاضره الراهن ٠ انه بقدر ما يكون هذا الجواب اصيلا تتعزز الادلة على ضرورة اقصاء المركزية الاوروبية كنمط ، بل ودحرها ٠

في الدرجة الثانية ، يريد هذا العرض ان يكون قصرا على جس مباشر للواقع ، وان يكتفي بتقديم ملاحظات ومعلومات ٠ انني اتحدث ، وانا جامعي اوروبي بلا ريب ، لكنني اصر على انني جامعي اخترت في ميدان صراع الطبقات معسكرا معينا ، اعني معسكر المستغلين الاوروبيين انفسهم ٠ ان هذا الجامعي يجد نفسه على صعيد الثقافة ، في وضع يشبه وضع المستعمرين ٠ اننا تسرعنا بتوجيه الاتهام الى اوروبا ، ذلك لاننا حين نتكلم عنها في معظم الاحيان، انما نقتصر على الكلام ، ودونما ترتيب ، عن المسيحية ، والتطور التكنولوجي والصناعي ، والتوسع ، والعقلانية العلمية ٠٠ الخ ٠ لذلك ساحاول هنا ان اكون اكثر دقة ، فاقول : ان **المركزية الاوروبية التي نحن بصدد الكلام عنها انما هي مركزية اوروبا البرجوازية** ، كما نشأت في القرن الثامن عشر ،وكما فرضت نفسها في القرن التاسع عشر ٠ هذه الثقافة التي تطرح على بساط البحث اليوم لاعادة النظر في شرعيتها اعادة ملحة وعميقة في اوروبا نفسها ، وفي المجال الثقافي نفسه ٠ ويكفي ان نذكر اسمي نيتشه أو فرويد لندرك معنى هذا الرفض الجذري ٠

ان الجامعي الذي يتحدث اليكم هو ثمرة تلك الايديولوجية البورجوازية التي يعمل مدرساً ضمن اطارها ، وينشرها ، لكنه يعارضها بكل ما يملك من قوة، فيناضل ضد استعمار داخلي ، تكون فيه هذه المعاينة التقريرية التي يرغب في طرحها معاينة لموضوعات هذا النضال ٠ فلكل امرىء ملء الحرية في ان يطرق هذه الموضوعات على هواه ، وان يلتمس مواطىء قدميه ، ويستخلص بالتالي كنه هذا الموقف المغلوط ٠ ومن اجل وضوح اكثر ، علينا ان نرجع الى الوراء ، لنحلل المخطط الذي استطاعت بواسطته الاورومركزية ، اعني الايديولوجية البورجوازية ان تؤمن سيطرتها الثقافية تحت حماية جيوشها واساطيلها ٠ لذلك فاني هنا سأعيد الى الاذهان مراحل ذلك المخطط الذي اصبح كلاسيكيا عتيقا :

المرحلة الاولى ، هي **مرحلة التعمير** ٠ ان الفكر الاوروبي الليبرالي التجاري يعمر هنا **اخره** Son autre وهذا الاخر المتوحش او البدائي هو الهندي الاحمر ، هو الفارسي ، والصيني ٠ ان تحديد هذا الاخر هو تحديد سلبي ، اي انه مجرد

(١) شبه جزيرة بركانية في سيبيريا ٠

علامة عامة وعنصرية ، يستطيع الاوروبي بواسطتها ، ومن خلال الاختلاف المطلق الذي تشير اليه هذه العلامة ان يشيد بحضارته ويعلي شأنها ، معتبرا نفسه القطب الاوحد الذي تحج اليه كل الحضارات ، على حين ينظر الى الدائرة الخارجية المحيطة بهذا القطب ، والتي ينفيها ويعترف بها في آن ، على انها تنتظم كائنات متوحشة من الهنود والفرس والصينيين · ولقد افاد المفكرون الاحرار من هذه المجابهة الثقافية في فضح نقائص اوروبا · فمونتسكيو ينتقل الى بلاد فارس ، الى الغربة ، ويتمكن من السخرية من مجتمعه الاوروبي · وروسو ذلك الهاوي الكبير لقصص الرحالة ، والاتنولوجي الاول ، كما يقول عنه كلود ليفي ستروس ، يطرح حالة التوحش والبداوة لفهم تلك العلاقة المعقدة التي تجمع وتفرق بين الطبيعة والثقافة · كل ذلك يتم باسلوب مرح واحتوائي ، اسلوب الايديولوجية النامية والواثقة بنجاحها · وسرعان ما انغمس هذا الاسلوب في الغموض شيئا فشيئا · هكذا نفهم هنا شخصية « جمعة » التي خلقها دانيال دوفو ، وندرك دلالتها ومغزاها العميقين · ان جمعة هذا لا يجد سعادته الا بالخضوع الكامل ، الخضوع الجسدي والروحي للاوروبي المزود بكل استعلاء الاخلاقية المسيحية المدججة بالبندقية والالة والمهارة التكنولوجية · وهنا تبتدىء المرحلة الثانية ·

هذه المرحلة هي مرحلة الهدم على صعيد اقتصادي واجتماعي · وهي لا تهتم كثيرا بالاعتبارات الثقافية ، بعدما افرزها التوسع البربري للرأسمالية الخاصة ، هذه الرأسمالية التي كرست لها الدول الاوروبية امكانياتها لخدمتها ، وذلك بتكرار ممارسة تلك الاساليب نفسها التي مارسها الغزاة الاسبان في أميركا الجنوبية والمكسيك ، هذه الاساليب القطيعة والمرعبة · اجل لقد تصرفت اوروبا بالمنطق نفسه ، فأخذت تقتل الهنود والنيوزيلنديين · ان البربرية البورجوازية في علاقاتها مع الاخر قد انحدرت الى الدرك الاسفل من منطلقها ، اي الى القتل المباشر · الا انها لجأت احيانا الى مخططات اكثر اعتدالا · فالمقامرة الاستعمارية الفرنسية في الجزائر اتبعت ما كان هيجل يصفه بالعملية الاستعمارية منذ ١٨٢١ ، وذلك بعد انقضاء عشرات السنين ، هذه العملية الاستعمارية التي تموضعت في هدم المبدأ العائلي عند الذين يستعمرونهم ، وارجاعه الى ممثلي الشعب المستعمرين · ولتوضيح هذه الصيغة الغامضة اقول : ان جيوش الاستعمار وادارته سرقت من المستعمرين اراضيهم واملاكهم ، وسلمتها للمستوطنين الفرنسيين الذين كونوا او زادوا بذلك ثروتهم ورأسمالهم الخاص ·

وسرعان ، ما ظهر نمط اخر من الهدم · فأبحاث الغزاة تترك ، ظاهريا ، الوضع الراهن على ماهو عليه ، وتكتفي من غير ما تأنيب ضمير ، باستغلال الاخر استغلالا مركزا ، مباشرة ، أو بشكل التوائي يعتمد على الاقطاعيين والبورجوازيين المحليين · فمقابل وعود المستعمرين بالتمدين هذه الوعود التي استهلكت بشكل سطحي طفيف ، نراهم يستغلون موارد البلاد الاصلية ، ويستخدمون اليد العاملة المحلية ، ويفتحون الاسواق الجديدة والمغلة ، هذه الاسواق التي تتيح لهم اعادة تملك تلك الثروات الدفينة المتراكمة التي لم تكن تلك الشعوب تفكر بتوظيفها والربح منها · اننا الان امام خطة لتعبئة العمال المستوطنين الذين يتحولون الى عملاء

غير واعين لرأسمالية ضارية ومتقدمة، وغير عارفة كيف تلغي تناقضاتها وتتجاوز نقائصها. لنترك هذا كله . فهناك تحليلات سياسية عالجت هذه القضية بشكل افضل مما اقوم به هنا ، وبمعلومات اوفر .

اما المرحلة الثالثة فهي مرحلة التقليص . وتجدر الاشارة هنا الى ان هذه المرحلة بدأت مع مطلع المغامرة الاستعمارية البورجوازية . انها من عمل اناس انتجتهم البورجوازية ، تماما كما انتجت رفاهها ومنطقها التبريري . هؤلاء المفكرون نسميهم بالمثقفين . انهم يتبنون ظاهريا منظورية مفكري عصر النور . هؤلاء المفكرون الذين كانوا من اتباع العقل ، وكانوا يظنون ان نشر المعارف يجلب السعادة والاخلاقية للناس جميعا . الا ان هذا المشروع ابتعد عن غايته الاساسية ، ذلك لان القضية ، في هذه المرة ، لا تتعلق بنشر المعارف ، بل بسيطرة حضارة معينة ، بكل قيمها ومناهج تفكيرها ، على كل الحضارات باعتبارها ، من وجهة نظر مادية ، بربرية ، ما دامت لا تطابق مثالها . بل انها تعتبر انسان هذه الحضارات الذي لا يستطيع معرفة هذا المثال وادراكه بربريا ايضا . هكذا تطورت حركة الاستشراق في القرن التاسع عشر في اوروبا ، كما تطورت الدراسات المتعلقة بالشرق الاقصى . وبدهي ان لا قيمة للرأي القائل : ان هذه العملية كانت تصميما واعيا من قبل العلماء الذين شاركوا في هذا المشروع . بل على العكس ، فمن المؤكد ان هؤلاء الباحثين انطلقوا بنية طيبة ، وهم يريدون ان يسمعوا الاخر ويفهموه ، لعلهم يمحون الفروق ، ويقيمون الحوار ، ويؤسسون بذلك مجمعا فكريا ودينيا . ولكن لا قيمة للنوايا خارج اطار المؤسسات ، لان المؤسسة في النهاية ، لا تستطيع الا ان تكون صورة لخدماتها . وفي هذا الصدد ، نستطيع ان نوجه الملاحظات نفسها للخطط الكثيرة والرامية الى تنظيم وتعليم «سكان البلاد الاصليين» ، وللمساعدات الثقافية الممنوحة للبلاد المتنامية . فالذين يصممون هذه الخطط وينفذونها ، هم في اكثر الاحيان ، اناس نذروا انفسهم لذلك ، ولا يستطيعون الا ان يكونوا نموذجا للمؤسسات التي تقودهم . بل انهم في احسن الاحوال مرهونون باللاوعي للمركزية الاوروبية الثقافية . ومن ثم فان القضية التي تريدها المؤسسة في الدرجة الاولى تتركز على الحصول على المعلومات المتعلقة باللغة ، والعادات ، والمؤسسات ، والماضي ، ومراكز القوة والضعف لهذه الامم التي تريد المؤسسة اغراءها ، او السيطرة عليها ، او عزلها . (وهو بالضبط ما يقابل مرحلة قيام حركة الاستشراق).

وعلى هذا فقد لعب الاستشراق الانكليزي والفرنسي والالماني ، بالخداع دور الاستخبارات مع كل الاصرارات التي اشرنا اليها سابقا ، ولا حاجة لنا الى الرجوع اليها. وهي في الدرجة الثانية تؤكد تفوق العلم الغربي ، لانها قادرة ، من خلال تفوقها ، ان تتوجه الى الاخر ، موضوعيا ، لتثبت ان اعتدالها وصفاتها المتوسطية (جغرافيا) انما هو مثال على كرم ثقافي استثنائي لا بد من ان تشارك به الاخرين . وهكذا يأتي العلم المقتلع من جذوره ليثبت الايديولوجية . وفي الدرجة الثالثة ، وهذه ارضية وقلعة لا تختلف اليوم عما كانت عليه بالامس ، وليست درجة ، تحاول معرفة الاخر ، تلك المعرفة التي تسعى لوضع هذا الاخر على صورة تدعي انها علمية ، بحيث تعرضها وتفرضها عليه لاقامة الارضية الايديولوجية المشتركة

التي تسهل التمركز الاستعماري ، بالابقاء على الاستعمار الحقيقي ، اي الاستعمار الاقتصادي • انها تنتج ، بطريقة غير مباشرة ، ووفق الوسائط التي يقتضيها كل وضع ، طبقة من المثقفين تستخدم في اسوأ الحالات كلابا للحراسة ، بالمعنى الذي اصطلحه بول نزان ، وتزود الجهاز السياسي الذي كان يخدم بالامس الاستعمار ، كما يخدم اليوم الاستعمار الجديد ، والتي تنحصر وظيفتها في احسن الحالات في الحفاظ على الوهم الكامل في ان الحوار ممكن بين اوروبا وغيرها ، وانه بالامكان اقامة جسر للتفاهم عن طريق تبني المذهب الانساني ، هذا المذهب البريء ، والمغرق بالكرم •

ان المركزية الاوروبية الثقافية ، باختصار ، ليست واقعا او ايديولوجية وحسب ، بل هي عملية سياسية • تسللت بالامس ، وما تزال تتسلل الى اليوم الى هنا وهنالك ، تسللت الى التحليلات الاجتماعية المفرطة في الرزانة ، والى المنجزات التكنولوجية المغرقة في الواقعية ، والى التأملات الشمولية الكونية ، وغير ذلك من الفورات والهيجانات الايديولوجية الافرادية • ان هذه المركزية الاوروبية تعبر عن ظاهرة عالمية • انها احدى العوارض ذات الدلالة الكبيرة على الاختلال الذي اصاب **العقلانية** • تلك العقلانية التي سعى النظام البورجوازي ، والنظام الاوروبي من بعده ، لفرضها ، على العالم • **اننا نستطيع ان نقيس ضرر هذه العقلانية بمقدار فاعليتها السياسية** • ان من السموم ما يحدث في العضلات اذا ما استطاع ان يتشربه الجسم ، اما تشنجا او ارخاء • ونحن لا نستطيع مقاومة هذه السموم الا بتمكننا من السيطرة على اثارها • هل يعني هذا : انه ينبغي لنا ان نطرح هذه الحضارة لنتوجه بالتوهم الى الحضارة الاصيلة ، تلك الحضارة التي لا تختص الا بشعب معين ، او نتوجه نحو مجتمع محرر كليا وصل الى مرحلته الاممية النهائية ؟

لقد حذر ماركس من الجنوح الى الشرب من خمارات المستقبل • ومن المؤكد ان الايديولوجية البورجوازية (رسمالية = امبريالية = اوروبية) تستغل ما تنقله من محتوى علمي رصين ، لكي تمرر مبادئها وقيمها . ومن الواضح ان الثورة العلمية قد نشأت في اوروبا ، لاسباب لا سبيل لتحليلها هنا • من كوبرنيك الى غاليلي ، ومن ماركس الى فرويد ، اقيمت في كل المجالات عقلانية مناضلة ، كافحت ضد كل القوى الايديولوجية المسيطرة ، والدينية منها بشكل رئيسي • كانت هذه القوى الايديولوجية ، في كل مرحلة من مراحل نموها تحرص على هضم واسترداد هذه الانتصارات العلمية لحسابها (وذلك بتزييف اهدافها البعيدة وتشويهها) • **هكذا قامت المركزية الاوروبية بنقل رسالتها الى القرن التاسع عشر ، والى النصف الاول من القرن العشرين • كانت النزعة الانسانية ، ذات الادعاء العالمي غطاء هذه العملية ، اما جوهرها فكان السيطرة الثقافية التي كانت تتذرع بانتصارات علمها لفرض نظامها الفكري •**

وانطلاقا من هنا فان المسألة ـ التي لا تمت الى التأويل بقدر ما ترجع

الى القراءة ـ هي معرفة التحدي الذي يجب على المغزوين ثقافيا ان يجابهوا به هذا التوسع الذكي الذي يعتز بروحانيته السحرية · ان القضية هنا هي قضية الانقلاب المادي · فليس هناك فرصة للتذمر والشكوى ، ولا سانحة للحلم بمستقبل افضل لا ينبع الا من الكلام وحده · ان مشكلة الاستعمار الجديد (اعني به الوجه الاخر للامبريالية) تطرح نفسها من خلال علاقات القوى القائمة · ان ما يفكر بعمله التلاميذ والمعلمون الناقمون على المؤسسات والبرامج التي تفرض عليهم ، هو تسجيل النقاط ، وتحديد موضوع المعركة ، والمفاهيم التي تتيح تقييم اطراف الصراع الحاضرة ·

لا يهم في هذا الصدد ، ان يستعمل مناضلو الاستعمار هذه اللغة او تلك ، شرط ان يكونوا محاربين حقيقيين ، وشرط ان لا تلين لهم قناة تحت تأثير الفتور أمام مجالات العمل البراقة التي تعدهم بها الاوروبية المركزية بخبث وحذق · ذلك لان المشكلة ليست لغوية · انها سياسية · وما يهمنا هنا هو ان نفضح سيطرة هذه اللغات القادمة من اوروبا ، وان نميز بين ما تحمله هذه اللغات من مناهج علمية وما تمرره في الوقت ذاته من ايديولوجية ذات نزعة انسانية ، وروحية · انه يجب على كل واحد من هؤلاء التقدميين الذين يتصدون للغزو الثقافي الجديد ان يجابهه بالانقلاب المادي ، وان يثبت ان كل عملية من عمليات المركزية الاوروبية يمكن ان تنقلب ضدها ، او تكون موضوع نقض جذري لها ·وبالتحديد فان المهم في حساب اتفاق الظروف الموضوعية ، مهما كانت وسائل الصراع الايديولوجي المستعملة ، هو العمل من اجل انتصار وجهة نظر المظلومين المستغلين ·

ربما كان من الاجدر بنا ان نحلل هنا بشكل اكثر دقة معنى الانقلاب المادي ، لكن هذا التحليل قد يكون اكثر اهمية وطولا من هذه العجالة · على ان اشارتنا الى الكيف الذي بدأ يتفكك به نظام الثقافة الاوروبية منذ اليوم ، وتحت ضغط التناقضات الاجتماعية والاقتصادية التي تمزق الدول البورجوازية (والدول التي توصف بانها غير بورجوازية ليست في وضع افضل) هي اشارة عابرة ولغاية تعريفية صرف · سنكتفي هنا بفتح بعض الابواب ، ووضع اشارة استفهام بازاء كل باب ، حتى يحدد كل انسان بحرية تامة مكان عمله ومغزاه ، وذلك حسب موقعه العملي في المعركة · ومن البدهي ان هذا يتعلق بالمجال الثقافي (المستقل استقلالا ذاتيا ، وغير المنفصل عن واقعه) ·

١) **فصل الانواع الادبية** · فقد يكون هناك انفصال بين الحق والخير والجمال ، الا ان هناك بين هذه القيم الثلاث ارتباطا عضويا وثيقا · وماذا لو كان الجمال لا شيء سوى مزاجية فردية؟

٢) **المؤلف** كمركز ذاتي مسؤول ، لكنه متأثر ، يخلق عمله في حرية اكتسبها · وماذا لو كان هذا العمل مجرد رسالة كغيرها من الرسالات ؟ وماذا لو لم يكن المؤلف الا حدثا صرفا ؟

٣) **الكتاب** كمجموعة تراكمية ، كقصة لها بداية ونهاية ، كمعرفة مغلقة ، او

ككمية محدودة من المعارف · اليست البعثرة افضل حين تكون القضية على هـــذه الشاكلة ؟

٤) الفكر كمجال متميز ، تبنى داخله النظرية · أفلا يكون المنشور الآني ، والحالة كذلك، هو ايضا طريقة رصينة في التفكير ؟

وقد نستطيع ان نضاعف اشارات الاستفهام ، لكنه يجب علينا ان نبين الفـــروق الطفيفة بينها ، ثم نطرحها في الوقت نفسه بشكل جذري · ان القيـام بمثل هـــذه العملية هو ، ببساطة ، ، اظهار ذلك الخلل العميق الذي وصلت اليه الحضارة الاوروبية وفق أقيستها نفسها · **يجب ان نقتنع ان اوروبا ومنجزاتها ، والولايات المتحدة الاميركية كذلـك ، لم تعد تملك زمن قوة سوى قوة المادة · ان تجريدهم من امتيازاتهم اللاشرعية هنا ، هو العمل الثقافي الاساسي** ، وهو يمر بعدة شبكات · انه نظري ، ولكن الصراع الطبقي حاضر فيه · ان الاوروبية المركزية لا تنتصر الا بقوة النابالم والعصي · ان هذا هو موضوع الصراع المشترك في داخل اوروبا ايضا ·

فرنسوا شادليه

هنري لوفيفر

نهاية التاريخ

● الا يبدو كتابك الجديد «نهاية التاريخ» ، بين كتبك الاخيرة ، كانه نوع من الفاصل الفلسفي ؟

ـ كان كثير من كتبي الاولى يرتبط بمناسبات وظروف · كنت لفترة طويلة سجين الماركسية المذهبية ، وطالما كافحت ضدها من الداخل · انا الان في حالة استعداد للتخلي عن قسم كبير مما كتبته كشيء مرتبط بظرف معين · وضعي الان مختلف · فما احاول ان افهمه انما هو العصر الجديد الذي ندخله : نهاية التاريخ ·

● ماذا تعني بنهاية التاريخ ؟

ـ ان مجتمعنا يخرج حاليا من التاريخ ، ونحن في مرحلة انتقالية · هذه المرحلة الانتقالية التي نظرها ماركس في كتابه «نقد برنامج غوتا» وتحدث عنها كثيرا لينين وتروتسكي ، وصلت اليوم الى نهايتها · لكن يجب التخلص من ثقل التاريخ ، من «حاملي الحقيقة التاريخية» ، من «الاشخاص العظماء» ، من ستالين وديغول · ليس التاريخ هو الذي يصنع الثورة ، بل الثورة سي التي تصنع التاريخ · ان جميع الذين يزعمون انهم في اتجاه التاريخ يميلون كثيرا الى نسيانه · يجب ان ننتهي من هـــذا كله ، باعتباره خداعا · هذا لا يعني انني ارفض التجربة التاريخية · انها ، على العكس ، ضرورية لفهم الانتقال من مرحلة التصنيع الى المرحلة المدينية ، وهنا تتلاقى الموضوعات التي تدور حولها تأملاتي · اننا نشهد ولادة عقلانية جديدة · كل ما هـــو يومي اليف يصبح اليوم شيئا لا يطاق ، وهذه علامة اساسية · لقد تعب الناس من هذه الحياة المنظمة تنظيما عاليا معقدا ، التعسة ، الفارغة ، اسيرة الدولة والايديولوجية · اليوم اصبحت القاعدة متقدمة على القمة · هذه هي العلامة على ان ثمة شيئا جديدا يبدأ · فانا على النقيض من هربرت ماركوز ، اكثر ميلا الى التفاؤل ·

● **ما هو الاساس الذي تبني عليه هذا التفاؤل ؟**

ـ اشعر ان القوى التي تتكون من ردود الافعال وتقوم عليها تفقد اليوم كثيرا من تاثيرها وفاعليتها ٠ الوضع يفلت منها ، سواء على الصعيدين الايديولوجي والسياسي ٠ الجماهير تستيقظ ٠ حتى في اسبانيا نلاحظ نشوء حركات ثورية٠ اليست هذه ظاهرة اساسية ؟ اعتقد ان هجوم الراسمالية قد انحدر عن اوجه ، كما يقول كلوشوتيز ، اذا لم يكن يلهث تعبا ٠ لقد استمر هذا الهجوم نصف قرن ، تماما منذ سنة ١٩٢٠ ، السنة التي انهزم فيها الجيش الاحمر امام فرصوفيا ٠ هذا الحدث انهى الفكر التروتسكي ٠ فلم يكن لنظرية الثورة الدائمة معنى الا مع هجوم الجيش الاحمر ٠ وبدءا من سنة ١٩٢٠ ، ازداد الهجوم الراسمالي ، فحطم كل شيء حتى الثورة ، ذلك ان انحلال الثورة السوفياتية في الستالينية لا يمكن تفسيره الا بهذا الهجوم ٠ لكنه اليوم يتراخى ويتراجع ٠

● **كيف تجمع بين ماركس ونيتشه ، بين صراع الطبقات والعودة الابدية للواحد في هذه الفكرة عن نهاية التاريخ وقد فهمها كل منهما بشكل مختلف عن الاخر ؟**

ـ التاريخ ، في نظر هيغل ، انتهى ٠ لكنه في نظر ماركس ، يجب ان ينتهي في ثورة عالمية ٠ لا يمكن الجمع بين صراع الطبقات والعودة الابدية للواحد ، لكن يمكن التدليل على ان صراع الطبقات قد تغير معناه ٠ لم تعد المسالة ان نطالب بحق العمل ، على الاقل ، بسبب سيطرة الالة او الاتمتة ٠ يجب ان نطرح اليوم مشكلة العنف والدمار ، والرغبة والراحة في مجتمع مديني سيصبح مجتمع البهجة والتمتع ٠ لم يعد في امكان النموذج الماركسي التقليدي ان يفيد او يهم غير البلدان التي لم يتم تصنيعها بعد ، وهنا الجا الى التمييز الجوهري الذي آخذه من نيتشه واعني به الفرق والاختلاف ٠

● **هل هذا انكار للماركسية ؟**

ـ لا اعتقد ٠ هذا شيء اخر غير الماركسية ، لكن انطلاقا من الماركسية ٠ لقد سحق الديالكتيك اليوم ، غير انه سيولد من جديد رغم وضد كل تعسف المنطق والتنظيم والتصميم وتعميم العمران المدني ٠ لم تعد المسالة ان نصنع ثورة باسم العمل والعمال ، بل اصبحت المسالة اليوم ان ننتقل ، كما أوضح نيتشه ، الى طور آخر من المدنية ٠

● **هذه اراء قريبة مما يقوله هربرت ماركوز ، خصوصا ، في كتابه «الحب والحضارة» ٠ لكنك تقسو عليه في احكامك ٠٠٠**

ـ انني ضد كتابه «الانسان ذو البعد الواحد» ان في تشاؤمية ماركوز شيئا من العظمة ، غير ان تكرر الحركات الثورية يؤكد خطاه ٠ انه يسيء تقدير العيوب والنواقص

في التمرد على النمطية ٠ تلك هي الثورة الكبيرة الصامتـة في عصرنا ٠ غير ان «الحب والحضارة» كتاب جميل جدا ، وانا أوافق تماما على آرائه من حيث انه يعيد بنـاء الرغبة ٠ ان نيتشه يتحدث كذلك عن «الرغبة العظيمة» ٠

● ما هي القوى التي ستكمل هذا الانتقال الى عصر ما بعد التاريخ ؟

ـ ما تزال في طريق الظهور ، لم يكن للبروليتاريا طيلة خمسين سنة الا موقف دفاعي ٠ وهي اليوم تنتقل الى الفعل ، بأهداف جديدة ٠ هذا ما توضحه الاضرابات الوحشية ، والحركات الثورية في اميركا اللاتينية ، والنزعات المتطرفة ٠ وهذا كله يشكل استراتيجية جديدة ٠ ان اللجوء الى العنف يزعزع النظام في كل لحظة ٠ ومن المستحيل ايقافه ٠ ان حقيقة الولايات المتحدة قائمة ، موجودة في فيتنام لا في الولايات المتحدة ، وثورة شبيبتها ظاهرة من خارج الرأسمالية ، تحاول ان تنغلق علـى ذاتهـا ٠

سيتم هـذا الانتقال بفضل هـذه الاستراتيجية الجديدة ٠ ان جميع القوى الجديدة تتقدم في مناخ من القمع والعنف ٠ غير ان الديالكتيك سيجرفه ٠ فثمة اليوم أعمـال ثورية حقيقيـة ٠٠٠

● كيف ستكون الدولة في مجتمع ما بعد التاريخ الذي تبشر به ؟

ـ هنا تكمن في الواقع المشكلة الرئيسية ، بالنسبة الى هيغل وماركس ونيتشه ٠ ان توطد الدولة يعني الحصار ٠ الدولة في نظر هيغل هي نتاج الزمن وسيدة المكان ٠ هذا صحيح جدا ٠ فاذا تحطمت سلسلة الدولة ، يصبح المكان انذاك حرا لنشوء مجتمع الرغبة ، مجتمع البهجة والتمتع ، المجتمع المديني ، حيث يمكـن لاساليب حياتية كثيرة ان تتحقق وتنمو ٠ ان لحرب العصابات المدينيـة وللحركات غير العنيفـة مكانا في هذا التغيير ودورا ٠

(حديث في الملحق الادبي لجريدة «لوموند»)

هنري لوفيفر
(باريس)

الشعر بين الثورة والشيخوخة

بيير باولو بازوليني معروف لدى القارىء العربي كمخرج سينمائي ، بشكل خاص . غير انه كاتب وشاعر . وقداصدر مؤخرا عدة كتب : «ست مسرحيات» ، «دراسات» ، ومجموعة شعرية . وهذه هي مجموعته الشعرية الثانية بعد مجموعته «شعر بشكل وردة» التي صدرت سنة ١٩٦٤ .

● **هل صمتك عائد الى الظروف ام الى « ازمة شعرية » ؟**

– بعد مجموعتي «شعر بشكل وردة» شعرت انني استنفدت عالما لغويا معينا ولذة بعض الاختيارات ، وبعض الكلمات . لم اقتنع بهذا الشعور فورا ، وحاولت ان اتجدد باي ثمن ، لكن الارادة هنا لا تكفي وحدها . فلا يمكن التجديد دون تجدد داخلي حقيقي . يجب ان نترك الزمن يفعل فعله . وفيما اخذت انتظر فعل الزمن، اثرت ان اعبر عن نفسي بطرق غير مباشرة : بالممثلين ، بشخصيات مسرحياتي . وبعد مرور حوالي سنتين بدأت اكتب شعرا . وهكذا فان هذا التجدد اللغوي الذي اردته عبثا ، ثم دون ارادة تلقائيا وعلى حدة . ان معظم الكلمات والصيغ التي كانت تشكل جوهر مجموعاتي الشعرية السابقة غابت نهائيا في مجموعتي الشعرية الجديدة .

● **اليس هذا عائدا كذلك الى اتساع افقك الثقافي ؟**

– الواقع ان هذا الافق ضاق . فلم اعد اقرأ بالشهوة ذاتها التي كنت اقرأ بها منذ عشر سنوات . لقد جعلت مني السينما انسانا اقل مدنية واقل ثقافة ، مثل جميع المخرجين السينمائيين . كلا ، لقد هرمت ، واكتشفت ان الشيخوخة تعني ان المستقبل تضاءل امامي ، اي انني اصبحت اكثر حرية . ان هاجس المستقبل هو الذي يمنع الانسان من ان يكون حرا . يبتكرلنفسه مئات الواجبات لكي يتملص من حريته التي لا يطيق فكرتها . ان فكرة المستقبل هي كذلك التي تفسد الايديولوجيات سواء في ذلك الكاثوليكية والماركسية والليبرالية على طريقة ماكلوهان ، التي تنظر الى المستقبل بروح اسطورية وترى فيه مستقبل السعادة غير المحدود .

● **كيف يتجلى هذا التطور في شعرك ؟**

– اولا بنوع من الفكاهة : كان في افلامي ورواياتي السابقة ملامح ساخرة ، لكن لم يكن فيها ظرف وفكاهة . وهذا عائد كما اعتقد الى انني اتضايق من التعبير عن ذاتي : ففي حين فقدت معظم اوهامي ، ظللت اعيش ، اتحرك ، اكتب كما لو انني لم افقدها . حاولت مثلا ان اتخلى عن الايمان بالثورة لكنني بقيت الى جانب شبان

يكافحون من اجلها · وقد اصبح من الوهم ان نكتب الشعر ، ومع ذلك استمر في كتابته ، رغم ان الشعر لم يعد بالنسبة الي ، منذ امد طويل ، تلك الاسطورة الكلاسيكية المدهشة التي سحرتني في طفولتي · لم يكن الشاعر الشاب في الاربعينات او الخمسينات يتصور انه يكتب لمعاصريه · كان يكتب للاجيال المقبلة بكل ما يتضمن ذلك من اساليب البلاغة ·

● **اين تكمن الجدة الشكلية في قصائدك الاخيرة ؟**

ـ الشكل المسيطر هو شكل اليوميات · كتبت هذه القصائد في شكل ملاحظات ، بعضها صادق ، مباشر ، وبعضها سيء النية اي انني كتبته بالاحساس الجمالي لتدوين الملاحظات ·

● **ما هي الموضوعات ، المناسبات ؟**

ـ حاولت بنفسي ان اصنفها ، مع انها في الواقع قصيدة واحدة اقطعها واستعيدها باستمرار · لكن من الممكن ان نميز ثلاث مجموعات : قصائد «مدنية» تتحدث مثلا عن البابا بيوس الثاني عشر من حيث انه يبشر بدين يشبه الايديولوجية الهتلرية او الناموس اليهودي ، دين قائم ، بمعنى اخر ، على الايمان والرجاء ، لكن ، ليس على المحبة اطلاقا · وتتحدث عن باناغوليس ، ومحاولة اغتيال رودي دوتشكي وموت هوشي منه وكندي · اما المجموعة الثانية فقصائد سياسية ، بشكل اخص ، تتعلق بالالتباس الذي اشرت اليه ـ التباس علاقاتي بالشبيبة الثورية اليوم والحركات اليسارية المتطرفة ، الخ · والمجموعة الثالثة تتناول يوميات حياتي الخاصة الاكثر صميمية والتي اعرضها على الجمهور دون حذر ، وبين هذه المجموعة قصائد تستلهم صداقتي مع ماريا كالاس ·

● **نرجو ان توضح لنا معنى عنوان مجموعتك الشعرية الاخيرة «تراسو مانار واورغانيزار» ···**

ـ « تراسومانار » هي الكلمة التي كان دانتي يعني بها في «الجنة» الانخطاف الصوفي الذي لا يمكن وصفه · اما «اورغانيزار» فهي الوجه الاخر لهذه الكلمة · والواقع انني لم اعد اعتقد بالديالكتيك والتناقضات ، بل اصبحت اعتقد بالتقابل او التعارض · لا ادعي هنا انني اصف شعريا ما لا يوصف والذي تتيح لنا الحياة وحدها ان نحياه ونفهمه · وبما انني لست صوفيا ولا قديسا ، فليست لدي اية تجربة عما يمكن ان يكون الانخطاف الى السماء السابعة · غير ان افتتاني يزداد اكثر فاكثر بالوحدة النموذجية التي عرف ان يحققها كبار القديسين ، القديس بولس مثلا ، بين الحياة الدنيوية والحياة اللاهوتية · هذا الوجه المزدوج للكائن الانساني ، هذا التوق المزدوج لكل ما هو خالي من اجل ان يتجسد وان ينعكس ، هو ما احاول جاهدا ان افهمه من خلال هذه الملاحظات التي انتزعها من حياتي الخاصة ومن التاريخ ·

(حديث في الملحق الادبي لجريدة «لوموند»)

بيير باولو بازوليني
(ايطاليا)

النقد والحياة

● **تتحدث بحنان عن نماذج معينة من النساء في روايتك « رعاة الليل » أعني العاهرات ...**

ـ آه ، ربما كنت متحيزا لهن . لا تريد ذلك ، لكنهن ساحرات . كنت في شبابي أتردد كثيرا عليهن ، في حيهن الفقير ، كاستيلو ، الذي أتحدث عنه في هذه الرواية . كانت كبيرتهن ، تيبيريا ، امرأة رائعة . كانت أما حقيقية « للصغيرات » ، تخفف عنهن الالام وتسهر عليهن . كان زوج تيبيريا خياطا يصنع أردية الكهان في مدينتنا ، باهيا . حين مرضت واشتد مرضها أخبرتني بكلمة وتمكنت من رؤيتها قبل موتها . كنت أعيش قسما من حياتي في حيها ، وآكل غالبا . وكنت سعيدا جدا . حتى انني نظمت سهرات أدبية في هذا الحي ، كنا نقرأ فيها أشعارا ونصوصا أدبية أخرى ونشرحها .

● **قلت انك لا تحب الكلام على الادب ....**

ـ لكن ، كن عاهرات . لا شيء عندي ضد النقاد . انهم يقومون بمهماتهم ، على خير وجه ، أما أنا فاكتب قصصا . لا أريد أن أمثل دور الكاتب الذي يجهل الادب . فأنا أقرأ . هناك كتب أحبها وكتب أعجب بها ...

● **مثلا ...**

ـ مثلا ، حين أقرأ كتابا لميجيل أنجيل آستورياس أفرح ، وفي الوقت ذاته أحزن قليلا ، لانني أقول في نفسي : « ها هو الكتاب الذي كنت أحب أن أكتبه . » . لكن حين أقرأ نصا لبورغيس ، أعجب به كثيرا ، وأقول في ذات نفسي : « ها هو نص لا آسف لانني لم أكتبه ». ولمناسبة الاشارة الى النقاد ، أتساءل فيما اذا لم يكونوا يعلقون أهمية زائدة على القضايا الشكلية . أفكر الان بغيمارايس روزا صديقي . هناك اجماع على اعتباره كاتبا كبيرا ، غير أن النقاد يعتبرونه ، بشكل خاص ، خلاقا لغويا . مع ذلك ، في التحليل الاخير ، لماذا نعتبر غيمارايس روائيا كبيرا ؟ الجواب لانه خالق عوالم ...

يجب أن أضيف أننا نحن الكتاب البرازيليون ليسلنا حياة أدبية ، بالمعنى الفرنسي لهذه العبارة . ساروي لك قصة : مرة في قرية برازيلية حضرت عيدا . شرب الفلاحون كثيرا ، واقترب أحدهم من كاهن القرية ، قائلا له : « لم نقدم لك شرابا لانك كاهن . » فاجابه الكاهن : « أنا كاهن حين أبشر فقط ، لكنني حين أشرب ، فأنا شارب . »

والكتاب في فرنسا كتاب في الليل والنهار . أما نحن فنكتب ، بالاحرى لاننا نحيا . ساروي لك قصة ثانية . كان كاتب يتمدد على أرجوحة في حديقته . فمر جار له وحياه قائلا : « تأخذ نصيبك الآن من الراحة .... »، فأجابه الكاتب : « كلا . أنا أعمل . » وفي الغد كان الكاتب يقتلع بعض الاعشاب في الحديقة . فقال له الجار نفسه : « أنت الآن تعمل ؟ » ورد عليه الكاتب قائلا : « كلا . أنا الآن أرتاح . »

(من حديث له في « لاكانزين ليتيرير »)

جورج أمادو
(البرازيل)

الكاتب والقارىء

● **هل يستطيع الكاتب أن يتجاهل القراء ؟**

– كلا . افضل فطنة مؤلفي الروايات البوليسية الذين لا ينسون القراء او الذين يفعلون كل ما في وسعهم لكي لا ينسوهم .

● **قلت ان جميع الكتاب في الوقت الحاضر سياسيون ...**

– صحيح ، بالطريقة ذاتها التي كان فيها جميع الناس في عصر معين سابق لاهوتيين . لعلك تذكر تاريخ الفلسفة في العصر الوسيط بأجزائه الثلاثة ... ربما كان من الواجب التفكير بقارىء الغد ، فنترك له بعض النصوص المطهرة من السياسة ، لكي ننقذه من صحراء الرتابة الشاملة حيث نعكف بحماسة على تمييز فروقات التألق بين ذرة رمل وأخرى .

● **اعلنت انك لا تريد أن تتحول الى ضمير عام . هل انت ضد كتاب من هذا النوع؟**

– كلا ، مطلقا . لم اعلن ذلك . انني شديد الاعجاب بكتاب كان كل منهم ضميرا عاما : زولا ، شو ، ويلز ، شيسترتون ، جوليان بندا . غير أنني اعتقد أن وراء كل عجوز اليوم كاتبا ، وأن في كل كاتب ضميرا عاما . هذا كثير جدا . ليس سيئا أن يتحول كاتب الى دليل ، أما أن يصبح جميع الكتاب أدلاء ، في وقت واحد ، فأمر يبدو لي عقيما . ان حشدا من الضمائر العامة ليس الا حشدا ، بنوا بنواقصه كلها . بدل أن يكون الكتاب حكماء كما عرفنا أمثالهم في بيونس أيرس ، يصبحون وكلاء متجولين ، منهمكين بالاديان والاحزاب السياسية القائمة . ربما ذات يوم ، سأحمل انا كذلك شهادة من شهادات الدكتوراه التي تدهش الناس ، وتتيح أن يكون لي جاه وسيطرة : ذات يوم ، غدا ، او حين ابلغ المئة .

أعرف عيوبي . فأنا بطبيعتي نافد الصبر ، مستعجل دائما ، ولذلك اشتغل ببطء وهدوء كاملين . اذكر ما قاله كافكا (أحد أسيادي المقدسين) : « نفاد الصبر هو أم الخبائث جميعا » .

(من حديث له في مجلة « لاكانزين ليتيرير)

ادولفو كازاريس
(الارجنتين)

النقد الميت

(خواطر حول النقد في المانيا)

مات النقد • أي نقد ؟ البورجوازي ، السائد • مات انتحارا • مات مع العالم البورجوازي الذي كان ينتمي اليه • مات مع الأدب البورجوازي الذي كان يرافقه مربتا على كتفيه • مات مع علم الجمال البورجوازي الذي بنى قواعده عليه • مات مع الله البورجوازي الذي منحه بركاته •

لكن ألا تبنى دائما لله الميت كنائس جديدة ؟ ألا يساعد علم الجمال الميت ، دائما، على الغاء ما هو حي ؟ الا يزدهر الادب الميت ببهاء اكثر من اي وقت مضى ؟ الا يظهرالعالم الميت قوة غير متوقعة ؟ ألا يجد النقد الميت الايمان اكبر ؟ هل مات حقا كل هذا ؟ أليس موتا صوريا فحسب ؟ ان كل هذا حي صوريا • ما يبدو مثل حياة ، هو حشرجة الموت •مايبدو مثل حشرجة الموت ، هو موت• النقد البورجوازي اصبحلعبة اجتماعية•العالمالبورجوازي يدمر نفسه ، في حين يظن انه يدافع عن نفسه•بالادب البورجوازي لم يعد يؤمن حتى الادباء البورجوازيون • علم الجمال البورجوازي يتحدث مع نفسه عن تصوراته الخاصة • كنائس الله البورجوازي فارغة • الذين دفنوا الله الميت يقفون امام الباب وسوف ينشرون النقد • يعرف المرء هذا • يعرف المرء هذا من زمان • يعرف المرء هذا منذ اربعين عاما على الاقل • لكن الحاكمين ، الذين يملكون وسائل الاعلام ، يقاومون • لانهم يملكون احتكارا ، يصورون العالم الذي يريدونه ، ويأملون ان يثبت هذا العالم انه عالم حقيقي• احتكارهم يتفتت • الجديد ، اللابورجوازي ، الحي يجد مساندة وموافقة • انه يتشكل، يؤثر• عدم الرضى يتنامى، ومعه الخوف• كم هو ميت، النقد البورجوازي ؟ انه ميت بحيث انه لا ينجب ، بعد، ما أنجبه العالم البورجوازي دائما : « عظمة »• ليس هناك نقاد « عظام » بعد • هناك ، على الاكثر، كبار نقاد• النقد البورجوازي لا يؤثر أبعد من اليوم الاول• انه يصنع نسيانه بيده• ينتج افكارا لا تعيش اكثر مما يعيش الذباب• كل ناقد ينتج افكاره الخاصة التي تموت يوم ولادتها • كل يناقض الاخر• لا أحد منهم جدير بالتصديق• حيث يدعي النقد البورجوازي انه ينتج للبقاء ، ليس على ورق الصحف اذن ، انما بين دفتي كتاب ، يرتعب حتى المواطنون• هل سيصبح اكثر جدارة بالتصديق، بعد ثلاثة اعوام ، او بعد خمسة اعوام ، او بعد عشرة اعوام ، الشيء الذي لم يكن، منذ اللحظة الاولى ، جديرا بالتصديق ؟ الشيء الذي لا يلقى اعترافا حتى داخل النظام الذي وضع نفسه تحت تصرفه ؟ النقد البورجوازي يرى الثقافة ثقافة والاعمال الفنية اعمالا فنية • يرى السياسة شيئا وعالم الفكر شيئا اخر• انه عاجز عن فهم انه لا يوجد، بعد، مجال خلو من السياسة، أن الفكر ايضا سياسي، اذا كان فكرا ، وأن ما يبدو غير سياسي له نتائج سياسية• انه عاجز عن ادراك انه نفسه يقف في طريق الفكر الذي يدعي انه يدافع عنه• انه عاجز عن رؤية انه يتحدث بمفاهيم ميتة عن امور ميتة• انه لا يزال يؤمن ان العقل هو الاعلى ، أن العقل يمكن ان يحقق ذاته دون قوة ، أن العقل

قوة، لقد قبل، شاكرا، تجريده من السلطة· ترك نفسه ينفى على الصفحات الاخيرة للصحف والمجلات · انه يقبل ان السياسة التي تعمل على الصفحات الاولى ، تناقض النقد الذي يمارسه على الصفحات الاخيرة · لا يزال يعتقد ان بمقدوره ان يفعل شيئا· يقبل نفسه كمظهر ليبرالي لسلطة لم تعد ليبرالية · يدع نفسه يهان كل يوم، لانه يسمح له ان يقول رأيه كل يوم· رأيه البورجوازي·

هل يسمح له ايضا ان يقول رأي المواطنين ؟ هل يسمح في العالم البورجوازي ان يفهم النقد نفسه سياسيا ، ان يضع الحياة مكان الموت ؟ هل يسمح في العالم البورجوازي ان يكف النقد عن اعلان حياة ما هو ميت ، بكلام عاجز لا نفع فيه مدعاة للسخرية، وان يفهم – بكلام جديد، متلمسا ، مجربا، مسميا التجربة تجربة فحسب – اللابورجوازي، ضد البورجوازي، كشيء جديد مستقبلي ؟ ألا يمكن ان نملك نقدا لا يتأخر عشرات السنين عن الواقع ، نقدا يلقي في عرض البحر كل ما يمنعه عن فهم ما لم يفهم بعد، لكن الذي يجب فهمه اذا لم نشأ أن تستمر حشرجة الموت عشرات السنين الاخرى ؟ ألا يمكن ان نملك نقدا يلقي في عرض البحر بالمفهوم البالي للعمل الفني، ويفهم اخيرا الوظيفة الاجتماعية لكل ادب على انها الوظيفة الاهم ويدرك بهذا ان الوظيفة الفنية هي ثانوية ؟ ألا يمكن ان نملك نقدا لا تستند سلطته الواهية بعد على ناقد قرأ اكثر من قرائه، مختص في القراءة، يتمتع بحاسة افضل، درس علم جماله ؟ ألا يمكن ان نملك نقدا تستند سلطته على وضوح وظيفة الادب بالنسبة للناقد ، وان ما يقال عن الادب يجب الا يكون مستقلا عن هذه الوظيفة ؟ ألا يمكن ان نملك نقدا لا ينطلق من لازمنية العمل الفني، وانما من ارتباطه بزمن معين، نقدا لا يفهم الادب كما هو مزعوم ، انما الادب بما يفيده وما يحدث له ؟

مثل هذا النقد سيكون حيا ، ولن يدع حزنا يشيع على النقد الميت ·

(نقلها عن الالمانية ابراهيم وطفي)

فالتر بوليش
(المانيا)

صرخة صغيرة من أجل المقاومة

I

نكاد أن نغرق المقاومة ، هي كذلك ، في مستنقع الكلام . نكاد أن نلقي فوقها غطاء من الألفاظ ثقيلاً كالقبر . حتى أصبح معظمنا يسلك إزاءها كمن يسأل عن الشمس هل هي شمس حقاً ، وعن الأرض هل هي مستديرة حقاً؟ هكذا نبتعد عن البداهات ونعيش حالة من يفقد جذر الحياة ولهبها .

II

الانسان العربي لا يحتاج ، في معالجة القضايا والأشياء ، إلى الوصف ، بل الى الفهم . الى فهم يخترق ، ينفذ كالضوء لـكي يسطع كالضوء .

لماذا نكرر ، مثلاً ، أن الأحداث العربية منذ ١٩٦٧ كشفت عن ضعف المقاومة ، فكرياً وتنظيمياً ، ثم نتسلى بهذا التكرار وأحياناً ننتشي كمن وصل الى اكتشاف فريد ؟

لماذا نكرر أن الثورة على اسرائيل تظل ناقصة وغير فعالة اذا لم تواكبها الثورة على البُنى العربية ، الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية ، التي سهّلت أو أتاحت انتصار الصهيونية وقيام اسرائيل وسيطرة الاستعمار ، والتي ما تزال تسهّل أو تتيح هذا كله ؟

لماذا نكرر أنه يستحيل القضاء على اسرائيل دون القضاء على اسرائيل

الأخرى التي تتغلغل في كيان العربي ، في جسده وروحه : الاستسلام للأفكار والممارسات التي تخرجه من ساحة الفعل ، ساحة الحاضر – المستقبل ، وتبقيه مربوطاً الى اوتاد الماضي ؟

لماذا نكرر أن العربي الذي يملك ثروة مادية هي بين أعظم الثروات المادية التي تعرفها الشعوب ، فيما يعيش ، مع ذلك ، دون مستوى الكلاب والقطط في بلدان أخرى ،

الذي لا يشعر أن طاقة بلاده له وأنه حر فكراً وعملاً ، وسيد مصيره ،

الذي لا يقيّم كإنسان بحد ذاته دون اعتبار لأفكاره الدينية وغير الدينية بل يقيم كعضو في حزب أو عصبة أو طائفة أو قبيلة أو عائلة ، أي أنه يقيم كشكل لا كجوهر ، كوظيفة لا كمعنى ،

الذي يعيش مشرداً أو سجيناً ، أي يعيش في الحالتين ، خارج وطنه لا لشيء الا لأن له رأياً في بناء وطنه يخالف رأي هذا الحاكم أو ذاك الحزب ،

الذي يولد وينشأ ويموت دون أن يعرف ما هي المعرفة في عصر المعرفة بامتياز ،

لماذا نكرر أن هذا العربي مغلوب سلفاً باسرائيله الداخلية ، مشلول بها ، مقيد ومخنوق ؟

III

يثبت ، إذن ، ان جمع الأفراد سهل ، وأن جمع الاسلحة أكثر سهولة ، وأن التجمع ، إن اقتصر على كونه تجمعاً ، لا يكاد أن يتحرك حتى ينفرط .

يثبت ، بالمقابل ، أن هذا وحده قد يجر الى النقيض من غاياته الاساسية ، بل ربما جر الى الكارثة . فالبندقية بحد ذاتها قد تكون نقيضاً للثورة .

يثبت ، إذن ، أن اسرائيل – الكيان الصهيوني الاستعماري – يستند الى ارضية اولى هي اسرائيل الداخلية بتجسداتها جميعاً : الدينية ، الفكرية ، السياسية ، الاقتصادية ، الاجتماعية ، وان من يحارب اسرائيل دون زحزحة هذه الارضية وتغييرها كمن يحارب وهو واقف في الهواء . فلا يمكن الوصول الى نهاية ثورية الا اذا كانت البداية ثورية . ان بين هذه وتلك ترابطاً عضوياً .

يثبت ، اذن ، أن للظلام الذي يحيط بالمقاومة أسباباً ذاتية وموضوعية معاً : موضوعية يفسرها الواقع الذي يركد كمستنقع ألفي . وذاتية يفسرها الالتصاق بهذا المستنقع والتوفيق بينه وبين الماء الحي . ومثل هذا التوفيق متناقض ، بل مستحيل ، لذلك تكاد المقاومة أن تغرق ، هي كذلك ، في المستنقع .

يثبت بالتالي أن البنية العربية القائمة بجميع أشكالها ومضامينها ، وفية لسقوط مسبق .

لماذا نكرر هذا كله ، لماذا نكرر البداهة التي لا تقود إلا الى البداهة ؟

IV

ما يجب أن نكرره هو هذا : البداهة التي تحاصر ولا يمكن أن تقود الا الى أحد امرين : الفعل او محاربة الفعل .

نكرر ، اذن : نتهم بالخيانة من يقول ان الثورة الفلسطينية فلسطينية وحسب . هي ، اذن ، عربية . هذا معيار مطلق .

الثورة اليوم تواجه امتحاناً لهذا المعيار ، وللذين يلغطون به . وأكثر الفئات تطرفاً في اللغط بهذا المعيار ، أكثرها قدرة على احتضان الثورة . مع ذلك تتجند هذه الفئات لمحاربة أي خطر يمس الكرسي الذي تجلس عليه أكثر مما تتجندلمؤازرة ثورة تضرب بشكل من الوحشية والامتهان والغدر قلما ضربت بمثله أية ثورة في التاريخ الحديث . كيف نفسر ذلك ؟ التبسيط السلطوي ، القطري ، البورجوازي الصغير ، البيروقراطي لا يكفي . وهو لا يكفي وان اقترن بالتبسيط الآخر ، لكن الاكثر تعقيداً : الاستعماري – الامبريالي – الصهيوني .

نكرر اذن : هل تؤمن هذه الفئات حقاً انها جزء من الثورة العربية كما هي المقاومة الفلسطينية جزء منها ؟ ان كان الجواب نعم ، يكون من البداهة القول ان الصهيونية لا تحتل يافا وحيفا والقدس والخليل وحدها – وانما تحتل ، بفعل هذا الاحتلال عينه دمشق وبغداد ، الجزائر والقاهرة ، بنغازي وجده .

ويكون من البداهة القول إن السلطة في هذه العواصم العربية ليست إلا وهماً – ومع انه ، في الواقع ، وهم ، فهو ، يا للسخرية ، ليس أكثر من وهم

أدونيس

موقت ! حتى الوهم موقت !

نكرر إذن : كل تحييد للطاقات الثورية ، أو تعطيل ، او ادخار ليوم آخر لحظة تجابه طليعة الثورة مصيرها الحاسم يكون بمثابة التخلي عن الرأس والقلب والاحتفاظ بالارجل والاطراف ، التخلي عن الجسد واحتضان الثياب ، يكون مشاركة في القضاء على هذه الطليعة .

نكرر ، اذن : ان سلطة عمان لم تنتصر موقتاً على المقاومة الفلسطينية الا لانها انتصرت في العواصم العربية . والقوة التي فتكت بأطفالنا وابطالنا في عمان كانت تستبطن القوى العربية وتأتزر بها .

ماذا تخسر الفئات العربية الحاكمة ، باحتضان المقاومة ، اي اعلان الثورة الشاملة ، غير السلطة ؟ السلطة ؟ وما هي السلطة بذاتها – ما هي السلطة ان كانت لا تؤدي الا الى قتل الثورة ، قتل الانسان ؟ ما هي السلطة للسلطة ؟ ان مراجعة التاريخ تنبئنا ان الاحذية ، ان الفئران ، مارست هي ، كذلك السلطة .

V

على الرغم من كل شيء : من تعثر المقاومة ، من تدهورها ، من امكان فشل أشكالها التنظيمية الراهنة – أصرخ مكرراً :

لولا المقاومة ، هذا اللهب الذي يعصف ويخلخل ، لكان السؤال الاكثر إلحاحاً والاكثر مباشرة هو هذا : هل نحن شعب ينقرض ؟

أدونيس

حليم بركات

حول الحركة الطلابية في لبنان

فشلت الاحزاب والنقابات والتشكيلات الاخرى في لبنان ، في ان تلعب دورا اساسيا في تغيير الواقع ، لذلك يتساءل الكثيرون بشيء من اللهفة : هل يمكن للحركة الطلابية في لبنان ان تتخذ المبادرة في تغيير هذا الواقع ؟

ان اي جواب عن هذا السؤال سيتأثر بمشاعر ذاتية مما يمنع ، بدرجات متفاوتة ، حصول تقييم موضوعي للوضع الطلابي واحتمالات نجاحهم · ويكون تأثير المشاعر الذاتية في عملية التقييم هذه كبيرا بقدر ما يعاني المجتمع من وجود فراغ او غياب حركات منظمة فعالة تثبت قدرتها على احداث تغيير حقيقي في الواقع الذي نعيشه · وبما ان هذه المعاناة متوفرة في المجتمع اللبناني ، نجد ان الاجوبة حول وجود حركة طلابية تتأثر بمشاعر ذاتية تأثرا بالغا ويمكن ، بالتالي ، تصنيفها الى نوعين من الاجوبة : هناك، اولا ، اجوبة متشائمة تقول بعدم وجود حركة طلابية وان ما نشهده ليس الا فورات لا اهمية لها · وقد غذت هذا الموقف المزمن وقائع موضوعية عديدة في الماضي ، البعيد والقريب حتى ليبدو كأنه يستند الى تقييم علمي · وتصدر هذه الاجوبة عن فئات عدة بينها بعض الفئات التي قد تنعت باليمين والفئات التي قد تنعت باليسار التقليدي وان اختلفت الاسباب والتفسيرات · يطمئن اليمين الى ان الطلاب ما يزالون يعكسون الوضع الاجتماعي فلا يشكلون حركة واحدة بل حركات متناحرة تتصل كل واحدة منها بالجماعة التي تصدر عنها وتندمج فيها اندماجا كليا · لذلك يسهل شق الصف الطلابي حتى عندما يجمعون على قضايا جزئية ·

اما اليسار التقليدي فيقلل من اهمية الطلاب اذ يعتبرهم فئة برجوازية صغيرة لا تكون طبقة حقيقية ·

هناك ، ثانيا ، اجوبة متفائلة تصدر خاصة عن بعض اليساريين الجدد وبعض المنظمات الطلابية · تظهر هذه الفئات تفاؤلا حماسيا لا ينبع من دراسة جدية للحقائق بقدر ما يصدر عن امنيات مكبوتة ، فتؤكد على انبثاق

حركة طلابية جديدة بالغة الاهمية بسبب ظهور حالة جديدة بين الطلاب الجامعيين ، وهي ان معظمهم الان (بعد نشوء الجامعة اللبنانية والجامعة العربية) يتحدرون من طبقات كادحة او برجوازية صغيرة ، فيما كانت غالبية الطلاب الجامعيين في السابق من ابناء الطبقات الحاكمة والارستقراطية بشكل عام ٠

تعاني جميع هذه الاجوبة ـ المتشائمة والمتفائلة ـ من التأثر بمشاعر ذاتية لا تستند في جوهرها الى حقائق موضوعية اساسية ٠ ونحن في حاجة الى اجوبة موضوعية تتجاوز التشاؤم والتفاؤل بالمعنى الذي ذكرناه ٠ ولكي نحصل على مثل هذه الاجوبة ، ارى ان نطرح السؤال الاساسي الاتي : هل يشكل الطلاب في لبنان نواة حديثة منظمة فعالة قادرة على الاستمرار ، تحمل رؤيا جديدة للمستقبل ، وتعمل دون تردد في سبيل تحقيق هذه الرؤيا ؟ بكلام اخر ، هل يكون الطلاب حركة متحررة ، اجتماعيا وسياسيا ، وبالتالي، حركة مؤهلة لان تلعب دورا طليعيا في احداث ثورة حقيقية في هذا الواقع ؟

هناك عدة عوامل تشجع على القول ان الطلاب من اهم عناصر التغيير الشامل والجذري في الزمن الحاضر بالرغم من وجود عوامل عدة تمنع قيام حركة طلابية منظمة وفعالة في الوقت الحاضر (سنذكر هذه العوامل في قسم لاحق) ٠ انما ، لا يجوز ان نتجاهل وجود عدة ادلة تظهر ان الطلاب سيكونون حركة مهمة وخاصة ، اذا ما نظرنا الى الامور بمنظار السياق البعيد المدى ٠ ما هي هذه الادلة ؟

اولا ، لقد ثبت ان الطلاب لعبوا بالفعل دورا مهما خلال القرنين الاخيرين في اطلاق حركات ثورية عديدة في جميع انحاء العالم ٠ يذكرنا الباحثون المهتمون بشؤون الطلاب ان هؤلاء قد شكلوا عنصرا اساسيا في ثورات ١٨٤٨ في المانيا والنمسا ٠ وكان الطلاب في روسيا القيصرية المنطلق لعدة حركات ثورية تعود نشاطاتها حتى الى الستينات والسبعينات من القرن التاسع عشر اذ تمكن الاف الطلاب من خلق شعور عام بالذنب ، واحساس بالمسؤولية تجاه الشعب المحروم ، واطلقوا نزعة « العودة الى الشعب » ٠ ولم يكتف الطلاب بنشر افكار راديكالية في الصين ، بل اسهموا منذ البدء في الاطاحة بالعائلة الحاكمة في ١٩١١ ٠ ويذكرنا الباحثون ايضا ان الطلاب لعبوا دورا اساسيا في الثورة الجزائرية وفي الثورة الكوبية ٠ كذلك اسهموا في تغييرات جزئية ، كسقوط بيرون في الارجنتين ، وجمنيز في فنزويلا ، وحكومة كيشي في اليابان، وحكومة راي في كوريا ، وبعض الحكومات الانقلابية في السودان ٠ ولا بد من الاشارة الى الدور الذي لعبه الطلاب في فرنسا سنة ١٩٦٨ ، والدور الذي يلعبونه في الولايات المتحدة منذ مطلع الستينات ٠

وربما يكفي ان نذكر ان الحركات الثورية في روسيا والصين وبورما انطلقت في الاساس من حركات طلابية ، ويمكن القول كذلك : ان اكثر حركات المقاومة الفلسطينية وضوحا انما هي حركة انطلقت في الاساس من حركات طلابية ٠

لا بد ، على الرغم من هذه الادلة ، من الاعتراف بان الطلاب لم يحققوا حتى الان اية ثورة بمفردهم ، فقد اعتمدوا في كل ما حققوه على الضغط الشعبي كما اعتمدوا في كثير من الاحيان حتى على عناصر من الجيش ان لم نقل من العمال والفلاحين والاحزاب ٠

ثانيا ، ما يقال عن الطلاب من حيث عدم مقدرتهم على تحقيق اية ثورة بمفردهم يصدق على العمال في المجتمعات الصناعية الرأسمالية ، وفي مجتمعات العالم الثالث النامية ٠ في المجتمعات الاولى يبدو ان العمال اصبحوا جزءا من النظام الرأسمالي السائد ، واصبحت النقابات العمالية حركات محافظة ٠ اما في مجتمعات العالم الثالث النامية ، فما يزال العمال مرتبطين بالمؤسسات التقليدية لا يحملون وعيا طبقيا ٠ انهم مرتبطون بهذه المؤسسات كأفراد ونقابات واحزاب ٠ من هنا نفهم تشتت النقابات وتعددها وعدم تضامنها حتى لتفشل في الاضرابات البسيطة المتعلقة بالحصول على مطالب اقتصادية جزئية كما هو الوضع في لبنان تماما ٠

ثالثا ، ما يقال عن العمال يصدق على الفئات المظلومة ـ المحرومة كالفلاحين وبعض الاقليات والنساء وخاصة من حيث ارتباطها بالمؤسسات التقليدية وتفسخها وعدم وعيها لحقوقها ومصالحها ووضعها العام ٠ انها ما تزال غير مدركة لتلك العلاقة الوثيقة بين وضعها الخاص والنظام الاقتصادي السياسي العام السائد في المجتمع ٠ بكلام اخر ، لا تدرك ان تعاستها ناتجة عن وجود نظام سياسي اقتصادي عام يحرمها بشكل مباشر وغير مباشر حقوقها وحرياتها ٠

رابعا ، مما يزيد من اهمية دور الطلاب في تغيير المجتمع ان عددهم يتزايد على جميع المستويات ٠ كذلك تزداد المدة التي يمضونها كطلاب ٠ يضاف الى ذلك حيويتهم كشبان ، وتعاملهم بالافكار ، وتحررهم من ضغوط العمل والوظيفة والمعيشة ، وسهولة تنظيمهم والاتصال فيما بينهم ٠

خامسا ، ان المفكرين ، ومن بينهم الطلاب ، هم اكثر الفئات مقدرة على التحرر من خلفيتهم الدينية والعائلية والاقليمية والطبقية ٠ بل ان الطلاب من ابناء العائلات الارستقراطية والبرجوازية هم اكثر ابناء هذه الطبقات مقدرة على التحرر من مصالحهم الطبقية ، مما ييسر عملية تحييدهم او حتى تثويرهم ٠ يكون ذلك بحكم تعاملهم بالافكار مما يجعلهم نفسيا واجتماعيا اكثر استعدادا للنقد الذاتي وتقييم الامور استنادا الى مقاييس داخلية تتعلق بالعدالة والحرية والحق ٠

هذه العوامل وغيرها ، تجعلنا نعلق اهمية بالغة على دور الطلاب في تغيير الواقع ٠ ولكن السؤال الاساسي الذي يهمنا هنا ـ والمتعلق بمدى وجود حركة طلابية جديدة في لبنان تتخذ المبادرة في تغيير الواقع الذي يعيشه اللبنانيون ـ يتطلب ان نتناول القوى والعوامل التي تعيق قيام مثل هذه الحركة بقدر ما نتناول العوامل التي تدفعها الى الامام من موقف المطالبة بامور جزئية متعلقة بالاوضاع الداخلية لجامعة معينة الى موقف

المطالبة بامور عامة تتعلق بالوضع التربوي ، ومن ثم الى موقف عام يهدف الى تغيير النظام الاقتصادي السياسي الذي لا يقوم تغيير حقيقي بدون تغييره ٠

لذلك يهمنا ان نتساءل : الى اي حد تحرر طلابنا من خلفياتهم الاجتماعية وخاصة الخلفيات الدينية والطائفية والعائلية والاقليمية ؟ هذا سؤال يطرح بالنسبة الى جميع الطلاب ، مهما كانت الطبقات التي يتحدرون منها ٠ هناك ايضا سؤال خاص يتعلق بمدى تحرر الطلاب المتحدرين من عائلات ارستقراطية وبرجوازية من مصالح طبقاتهم هذه ٠

ان هذا السؤال المتعلق بمدى تحرر الطلاب من خلفياتهم مهم جدا ، والا كيف يمكننا ان نتحدث عن دور الطلاب في تغيير المجتمع دون ان نعرف الى اي حد تغيروا هم انفسهم وتحرروا من الماضي ومؤسساته فشكلوا نواة حديثة فعالة منظمة تحمل رؤيا جديدة للمستقبل ؟ ان دور الطلاب في تغيير المجتمع يتوقف الى حد بعيد على مدى تحررهم الاجتماعي بخاصة ٠

ماذا نقصد بالتحرر الاجتماعي ؟ اننا لا نقصد نزعة الاقبال على مقتبسات مادية ، وحتى فكرية جديدة ترد من الخارج فتمارس دون ادخال اية تعديلات اساسية عليها ٠ التحرر الاجتماعي في لبنان يفهم على انه تبني قيم الطبقة المتوسطة المستوردة من الغرب ٠ لذلك يلاحظ وجود ميل الى قياس التحرر بارتداء احدث الازياء وفي الاقبال على المقاهي والنوادي الليلية وفي تحقيق النجاح الاقتصادي باسرع الطرق دون اي اعتبار للوسائل التي يجب اتباعها في سبيل تحقيق هذا النجاح ٠

التحرر الاجتماعي كما يظهر من خلال تشرف الطلاب اللبنانيين وغيرهم من الفئات بشكل عام ، هو في الواقع تقليد للغرب وانجراف في التيارات الغربية المستوردة ورضوخ لمشيئة ليست لها في الاصل اية علاقة حقيقية بمشيئة اللبنانيين وقناعاتهم الداخلية ٠

لا علاقة لهذا النوع من التقليد بالتحرر الاجتماعي كما يحدد هنا ٠ ان التحرر ، كما نراه ، ذو وجهين : وجه سلبي يشمل الانفصال عما هو قائم بمعنى :

(أ) رفض المفاهيم والقيم والاتجاهات السائدة ٠

(ب) عدم الارتباط او التأثر بمصالح الطائفة والعائلة والاقليم والطبقة المسيطرة ٠

(ج) هدم العلاقات القائمة بيننا وبين المؤسسات التقليدية ٠ هذا الوجه السلبي يشمل الاستقلال عن الماضي ومنطلقاته ومؤسساته ، وهدم الماهيات التقليدية والولاءات الطائفية والعائلية والاقليمية ، والتأكيد على ذلك التعاقد الذي يتم بمحض ارادتنا ٠

اما الوجه الاخر للتحرر ، كما يحدد هنا ، فهو وجه ايجابي يشمل التوصل الى قناعات ومفاهيم واسس جديدة تهدف الى منح الانسان المقدرة على ممارسة حريته وطاقات الابداع عنده ٠ التحرر الاجتماعي ، اذن ، هو

التخلص من سيطرة الماضي وارتباطاته ، وتكوين رؤيا جديدة تقوم في الاساس على احترام الانسان ، ومنحه المجال الارحب الممكن لممارسة حريته وطاقات الابداع عنده في صنع مستقبل جديد • المتحرر ينطلق نحو المستقبل لا نحو الماضي • بل انه لا يرى الماضي الا مادة وحسب يرفضها او يستعملها من اجل صنع المستقبل • الواقع لا يرضيه ، فيحاول دائما ان يتجه به نحو مستقبل يحقق للانسانية ، وليس لجماعة معينة فقط ، مناخا اكثر عدالة وحرية واكثر طاقة على الخلق • ليس للماضي قيمة بحد ذاته ولا بد ان يفقد قدسيته • ان تغيير الواقع الذي نعيشه ضروري لانه لا يحقق هذا المناخ • على العكس ، ان هذا الواقع هو بالفعل واقع هزيل وغير عادل وضد الانسان • انه بشكل خاص ضد الطبقات المحرومة ولكنه ضد الانسان عامة لانه يحوله الى سلعة وواسطة • وبما ان الواقع الذي نعيشه ضد الانسان ، لا بد من الاستنتاج ان الذي يعمل من اجل الحفاظ على هذا الواقع لا يمكن ان يكون حرا ، وخاصة عندما يتكشف له جوهر هذا الواقع ويصر على الحفاظ عليه • ان الطلاب هم من اكثر الفئات مقدرة على التحرر الاجتماعي ، ولكن من يدرس الطلاب الجامعيين في لبنان سيتوصل على الاغلب الى الاستنتاج بانهم في مراحل التكون الاولى وان نشاطاتهم تتعلق في معظمها بتحسين اوضاعهم واوضاع جامعاتهم ، وبمشكلات تخرجهم وتأمين توظيفهم كما يبدو من خلال اضراب طلاب الجامعة اللبنانية وبانهم فشلوا حتى الان في تكوين نواة حديثة متحررة اجتماعيا ومؤهلة للقيام بثورة حقيقية • وفي رأيي ان هذا الاستنتاج يستند الى الظواهر والعوامل التالية :

اولا ، ان الغالبية العظمى من الطلاب لا تهتم بالقضايا العامة ولا يختلف في ذلك الطلاب المتحدرون من عائلات فقيرة عن غيرهم من الطلاب • بل يبدو ان الطلاب المتحدرين من عائلات كادحة اقل اهتماما ونشاطا ومشاركة في القضايا العامة من غيرهم من الطلاب • فهناك دراسات اجتماعية للطلاب الجامعيين في لبنان ترينا ان نسبة الطلاب الذين يشتركون في نشاطاتسياسية بشكل منتظم ومستمر تتراوح بين ٤ و٨ بالمئة فقط ، وان هذه النسبة بين الطلاب المتحدرين من عائلات كادحة تميل لان تكون دون المعدل العام • ويعود انخفاض نسبة الناشطين في القضايا العامة بين هذه الفئة من الطلاب خاصة للاسباب التالية :

(أ) عدم توفر الوعي الطبقي بسبب الولاءات التقليدية العمودية •

(ب) تبني هؤلاء الطلاب قيم الطبقة الوسطى وعقليتها واعتقادهم ان مجالات التقدم موجودة ، ودليلهم على ذلك انهم تمكنوا من الوصول الى الجامعة • ويحسب بعض هؤلاء ان الثقافة التي يتلقونها في الجامعة ستكفل لهم مستقبلا افضل •

(ج) ان ابناء الطبقة الفقيرة اقل مقدرة من غيرهم على تحمل اي اضطهاد او عقاب نتيجة لنشاطاتهم السياسية •

(د) ان ابناء الطبقة الفقيرة اكثر انهماكا بامور معيشتهم ، فهم يعملون ويدرسون في الوقت ذاته ·

ثانيا ، لا يؤلف الطلاب وحدة يمكن تسميتها حركة ، بل يؤلفون مجموعة من الحركات المتناقضة · لذلك ، نادرا ما تتفق حتى حول المطالب الجزئية المتعلقة بشؤونهم الخاصة · وكثيرا ما تكون هذه المطالب المتعلقة باوضاع الطلاب سببا من اسباب تعدد اراء الطلاب وانقسامهم كما ظهر من خلال اضراب طلاب الجامعة اللبنانية الاخير ، فقاطعه البعض لغياب المطالب التي تتعلق بضرورة تغيير الاوضاع الاجتماعية السياسية العامة ، وحاربه البعض الاخر لكون هذه المطالب تتناقض مع بعض مطالب طلاب جامعات اخرى كمطالب طلاب جامعة بيروت العربية ·

ان الانقسام في المطالب يعود الى انقسام اساسي في تركيب الحركة الطلابية وخلفية الطلاب واتجاهاتهم · ويبدو ان الفئة التي تريد التغيير هي اكثر الفئات انقساما على نفسها · بكلام اخر ، اليسار منقسم اكثر من اليمين · ليس هناك المهاجمون الحمر فقط ، بل هناك ايضا الحراس الزرق· وللاحمر ظلاله المختلفة حتى ليصبح بعضه ازرق ، ولا تكثر الظلال بين الحراس الزرق بقدر ما تكثر بين المهاجمين الحمر ، ولكن بعضهم يكاد ان يبدو احمر · ان الاحمر لا يلتقي بالاحمر مع ان الازرق يلتقي بالازرق · وكذلك لا يلتقي الاحمر الازرق بالازرق الاحمر ·

ثالثا ، ان قسما من الطلاب الناشطين يرتبطون باحزاب وحركات وقيادات خارج الجامعة · وليس من خطأ في ذلك · بل من الضروري ان يكون هذا الترابط وثيقا شرط الا يكون على حساب تفسخ الحركة الطلابية · حتى هذا الامر لا يعنينا بقدر ما يعنينا الارتباط بقيادات تقليدية · بكلام اخر ، ان قسما غير ضئيل يرتبط بالقيادات التقليدية وهذا هو الارتباط الذي يمنع قيام حركات طلابية تحررية ·

رابعا : ان العامل الطائفي ما يزال من اكثر العوامل تاثيرا في تصرف الطلاب واتجاهاتهم وارائهم · بل ان الطائفة لا الطبقة الاجتماعية ، هي اهم عامل يفسر الانقسامات السياسية بين الطلاب في المجتمع اللبناني في الوقت الحاضر ·

خامسا ، يرتبط الطلاب اللبنانيون بالعائلة كما يرتبطون بالطائفة والقيادات التقليدية · ما يزال الطالب الجامعي مندمجا في العائلة ومعتمدا عليها نفسيا واقتصاديا ، فلم يستقل عنها كما فعل الطلاب في الغرب حيث هجر حتى الطلاب الثانويون والطالبات اهلهم واعلنوا استقلالهم الاجتماعي والاقتصادي والنفسي · لذلك يتاثر الطلاب اللبنانيون باجواء العائلة ربما اكثر مما يتاثرون باجواء الجامعة حيث يكاد ما يدرسونه ان ينفصل عن حياتهم · ورغم وجود علاقة سلطوية بين الاهل والابناء ، فان الطلاب لا يشعرون بوطأة هذه العلاقة (ويسوغونها عندما يشعرن بهذه الوطأة) فيتقبلونها برضى وتفهم · بذلك تظل علاقة الطلاب باهلهم علاقة وثيقة

يسودها الانسجام ٠

سادسا ، يعتمد قيام حركة طلابية على وجود تراث فكري ثوري في المجتمع يتصل بحس عميق بالحرية والعدالة في الوقت ذاته ٠ اين هذا التراث عندنا ؟ بل اين هذا التراث في الكتب المدرسية بشكل خاص ؟

سابعا ، ان النظام التربوي في لبنان يعكس التفسخ الاجتماعي ويزيد من هوة هذا التفسخ ٠ ان المعرفة التي يتلقاها الطلاب في المدارس والجامعات في لبنان لا تتصل بتلك المعرفة التي تحرر الانسان ، بل على العكس من ذلك ، انها تثبت ولاءاته وتشجعه على القبول بالوضع القائم او على تبريره ٠

ثامنا ، ان نشوء الجامعة اللبنانية افسح مجال الدراسة الجامعية امام ابناء العائلات الفقيرة والبرجوازية الصغيرة ، الا ان ابناء هذه الطبقات لم يثبتوا انهم اكثر ادراكا لوضعهم الطبقي وارتباطه بالوضع الاقتصادي والسياسي العام ٠ ترينا بعض الدراسات الاجتماعية ان هؤلاء الطلاب اكثر اندماجا بالمؤسسات التقليدية وخاصة المؤسسات العائلية والطائفية ٠ لذلك ليس هناك دليل حسي على انهم اكثر تحررا من غيرهم او اكثر رغبة في تغيير الواقع ٠ بل تشير بعض الدراسات الى انهم تبنوا قيم الطبقة الوسطى وعقليتها اذ حسبوا ، على ما يبدو ، ان دخولهم الجامعة يعني بالنسبة اليهم بدء تحرك الى فوق ٠ ان عقليتهم هي عقلية ليبرالية تثق بمقدرة النظام القائم على اصلاح نفسه من الداخل ، وتدارك اخطائه، وبينها الاخطاء التي يرتكبها ضدهم٠

تاسعا ، الفردية السائدة في المجتمع ككل تسود ايضا بين الطلاب ٠ ونحن نرد وجود مثل هذه الفردية الجارفة الى اسباب عدة من اهمها ان الافراد يتعرضون منذ صغرهم وفي جميع مراحل نموهم الى طغيان المؤسسات التي تحاول دائما ان تسحق فرديتهم ، فيكون من نتائج ذلك عكس ما تتوقع هذه المؤسسات ، اي ظهور ردة فعل تؤكد على هذه الفردية في وجه المحاولات التي تهدف الى سحقها ٠

عاشرا ، ان ضعف الحركات الطلابية في البلاد العربية الاخرى يقلل من احتمالات قيامها في لبنان ، فالغالبية العظمى من الانظمة العربية ، وربما جميعها ، لا تسمح بقيام منظمات طلابية تعمل بحرية ٠

هذه هي بعض الظواهر والعوامل التي تؤدي الى فشل الطلاب في تكوين حركة حديثة متحررة ، عنيفة في مطالبها ، مؤهلة للاسهام في اطلاق ثورة حقيقية تغير هذا الواقع اللا انساني ٠ غير ان القول بفشل الطلاب لا يجوز ان يفسر على انه دعوة الى التشاؤم ٠ مثل هذه الدعوة ، كما ذكرنا ، تنتج عن مشاعر ذاتية اكثر مما تنتج عن دراسة جدية للحقائق والحالات الموضوعية ٠ اننا بحاجة الى اجوبة موضوعية تتجاوز بنا المرحلة التعبيرية، اي مرحلة التشاؤم والتفاؤل ٠ وهذه الاجوبة لا تقوم على التمني ، بل تقوم في الاساس على ادلة لا تتوضح الا عندما ننظر الى الامور بمنظار السياق البعيد المدى ٠ وقد ذكرنا بعض هذه الادلة ٠ انما يهمنا ان نضيف هنا ان

الحركة الطلابية في لبنان ستتمكن من تحرير نفسها بنفسها في المدى البعيد من خلال ممارستها وتجاربها كحركة ليبرالية • وسيتأكد للطلاب وخاصة اذا ما اصبحت مطالبهم اكثر اهمية ، ان النظام عاجز بالفعل وان طاقتـه على حل المشكلات اقل بكثير من طاقته على توليدها • ان المشكلات تتراكم وقد سبقته الاحداث باشواط عديدة حتى انه لا يعرف الطريق التي تسلكهـا فيتمكن من متابعتها • ولا يحمي هذا النظام او يدعمه سوى شعور سلبـي يقوم على الخوف مما قد يحدث في حال تغييره • كذلك يمكن القول ان الذين يدافعون عن النظام ، لا يفعلون ذلك لثقتهم به بل لعدم ثقتهم بالذين يطالبون بتغييره • يضاف الى ذلك ان النظام لا يسيطر على الموقف ، لان السيطرة الحقيقية هي في ايدي الدويلات الخاصة ضمن المجتمع اللبناني ـ دويـلات المدارس الخاصة ودويلات الطوائف ودويلات الاقطاعيين والمحامين ورجال الدين والسياسيين المحترفين ودويلات الارادات الخارجية • سيدرك الطلاب من خلال ممارستهم ان العلاقة الابوية بين النظام وبينهم تتحول مع الزمـن الى علاقة اضطهاد • اما سبب هذا التحول فهو ان النظام لا يستطيع ان يتحرك ضد الدويلات الخاصة ، فيضطر ان يتحول ضد الطلاب عندما يكثرون من مطالبهم ويزداد الحاحهم • ثم انه قد ثبت ان النظام الضعيف يتوجـه عندما يحرج ضد الفئات الضعيفة ، وليس ضد الفئات القوية وخاصة عندما تكون هذه الفئات القوية جزءا من النظام •

اذا تبين للدولة انها عاجزة عن تحقيق مطالب الطلاب ، واصر هؤلاء على احراجها ، فانها ستحاول تجاهلهم او تقسيمهم • واذا فشلت في ذلك واستمر الاحراج ، فستلجأ الدولة عند ذلك الى القمع • بذلك تبدأ ثقـة الطلاب الليبراليين بامكانية تحقيق مطالبهم من ضمن النظام القائم تتزعزع• وقد تتكرر تجارب الطلاب هذه قبل ان تنهار ثقتهم كليا •

ان نظرة السياق البعيد المدى التي تقوم على مثل هذا التحليل ترينـا بوضوح ان الحركة الطلابية ستتحول من حركة ليبرالية الـى حركـة راديكالية • طبعا ، لن يكون هذا التحول حتميا ، بل يعتمد على عوامل عدة من اهمها مستقبل علاقة الدولة بالدويلات الخاصة ، وقدرة الطلاب عـلى احراج الدولة ، ومقدرة الراديكالية على التوحد والتنظيم وعـلى هدم جدران اللاثقة الفاصلة بينها وبين الليبراليين •

ان تحرر الطلاب لا يهبط او يولد فجأة ، بل ينبثق من خلال ممارسة طويلة يشرق معها ادراك عميق بان الواقع الطلابي مرتبط بالواقع الاجتماعي ـ الاقتصادي ـ السياسي ، وانه لا يتغير فعلا الا بتغيير هذا الواقع العام •

حليم بركات